رحلات في جنوب روسيا الاتحادية

إقليم أورنبورغ

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

ح محمد ناصر العبودي، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي، محمد ناصر

إقليم اورنبورغ./ محمد ناصر العبودي- الرياض، ١٤٢٤هـ

٢٣٥ ص ، ٢٥ سم

ردمك : ٦-٣١-٠٢١-١٠-٩٩٦٠

١ - روسيا- وصف ورحلات   أ - العنوان

ديوي ٩١٤.٧٠٤   ١٤٢٤/١٥١٩

رقم الايداع : ١٤٢٤/١٥١٩

ردمـــك : ٦-٠٣١-١٠-٩٩٦٠

رقم الايداع : ١٤٢٤/١٥١٩

ردمـــك : ٦-٠٣١-١٠-٩٩٦٠

مطبعة العلا - هاتف : ٤٨٣٤١٧١ - فاكس : ٤٨٠٣٨٨٩

Al-Ola P. Press - Tel.: 4834171 - Fax.: 4803889

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

(١) في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين - بيروت دار الثقافة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢) رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا – نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣) مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين – نشره النادي الأدبي في الرياض ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي - الرياض - المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

(٥) رحلة إلى سيلان – نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

(٦) صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين – نشرته دار العلوم في الرياض ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٧) مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين – نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٨) إطلالة على نهاية العالم الجنوبي- نشره نادي مكة الأدبي الثقافي ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

(٩) زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية – طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١٠) شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين – الرياض – المطابع الأهلية ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

(١١) في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين - الرياض - مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٢) رحلات في أمريكا الوسطى – المطابع الأهلية للأوفست في الرياض ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(١٣) إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي - الرياض ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(١٤) على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل - نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٥) على قمم جبال الأنديز - الرياض مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) في غرب البرازيل - الرياض - مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٧) في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر - طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.

(١٨) بقية الحديث عن إفريقية – مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

(١٩) جولة في جزائر البحر الكاريبي - مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

(٢٠) جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(٢١) داخل أسوار الصين (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٢) بلاد الداغستان - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٣) الرحلة الروسية - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

(٢٤) مع المسلمين البولنديين - مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

(٢٥) جمهورية أذربيجان - طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٦) في أعماق الصين الشعبية - نشرته مجلة المنهل.

(٢٧) بين الأرغواي والبارغواي - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

(٢٨) بورما الخبر والعيان - طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

(٢٩) مقال عن بلاد البنغال - طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) ذكريات من يوغسلافيا - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣١) كنت في بلغاريا - مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

(٣٢) في جنوب الصين - طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(٣٣) كنت في ألبانيا - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٣٤) ذكرياتي في إفريقية - محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

(٣٥) أيام في النيجر - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٦) على أرض القهوة البرازيلية - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

(٣٧) نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية - طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

(٣٨) بين غينيا بيساو وغينيا كوناكرى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٣٩) من أنقولا إلى الرأس الأخضر - مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

(٤٠) سياحة في كشمير - مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤١) يوميات آسيا الوسطى - مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

(٤٢) نظرة في وسط إفريقية - مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٤٣) بلاد القرم - نشرته دار القبلة في جدة.

(٤٤) قصة سفر في نيجيريا (مجلدان) - مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

(٤٥) حديث قازاقستان - نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

(٤٦) المسلمون في لاوس وكمبوديا : رحلة ومشاهدات ميدانية - نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

(٤٧) في جنوب الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٤٨) رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٤٩) إطلالة على أستراليا - طبع في مطابع التقنية للأوفست - الرياض عام ١٤١٧هـ.

(٥٠) أيام في فيتنام - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥١) في غرب الهند - من سلسلة الرحلات الهندية - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٧هـ.

(٥٢) إطلالة على موريتانيا - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

(٥٣) حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية - نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٤) زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٥) سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور - مطابع النرجس التجارية بالرياض عام ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(٥٦) راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥٧) في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

(٥٨) العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية - طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٥٩) في شرق البرازيل، من سلسة الرحلات البرازيلية - طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦٠) هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

(٦١) من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية - طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

(٦٢) بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٣) بلاد الشركس: الإديغي - طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٤) مواطن إسلامية ضائعة - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م.

(٦٥) تائه في تاهيتي - طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٦٦) نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة. مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

(٦٧) ذكريات من الاتحاد السوفييتي. مطابع النرجس بالرياض عام ١٤٢٠هـ

(٦٨) نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي. طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٦٩) إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت، عام ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٧٠) في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين. طبع في مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٧١) قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا، من سلسلة الرحلات الكاريبية، مطبعة العلا في الرياض ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

(٧٢) مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٣) مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

(٧٤) فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة في الرياض ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٥) المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية في الرياض ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٦) في جنوب البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

(٧٧) شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

(٧٨) بلغاريا ومقدونيا، من سلسلة رحلات في بلاد البلقان، طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٧٩) بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر في الرياض، عام ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.

(٨٠) بيليز والسلفادور - رحلات في جمهوريات الموز -، طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م..

(٨١) ((العودة إلى ما وراء النهر)) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في مطبعة المسموعة في الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م..

(٨٢) ((على سقف العالم)) رحلة إلى التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة عام ١٤٢٢هـ.

(٨٣) الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس في الرياض ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٨٤) بلاد العربية الضائعة ((جورجيا))، طبع في مطابع العلا في الرياض عام ١٤٢٣هـ.

(٨٥) الاعتبار في السفر إلى ماليبار، (من سلسلة الرحلات الهندية). نشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة عام ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

(٨٦) ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٢هـ.

(٨٧) بالي، جزيرة الأحلام، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٨٨) غايتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٨٩) إلى جنوب الشمال: بلاد السويد، طبع في مطبعة العلا في الرياض عام ١٤٢٣هـ.

(٩٠) وراء المشرقين، رحلة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٩١) إلمامة بجنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى. مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٩٢) رحلة هونغ كونغ وماكاو، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٩٣) إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(٩٤) على سقف الصين: رحلة في الجنوب الغربي من الصين، طبع في مطبعة العلا في الرياض.

(٩٥) شمال سيبريا (من سلسلة الرحلات السيبيرية، طبعته مطبعة النرجس في الرياض.

(٩٦) إقليم أورنبورغ – رحلات في جنوب روسيا الاتحادية، وهو هذا الكتاب.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

(٩٧) معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات) - نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

(٩٨) أخبار أبي العيناء اليمامي - طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

(٩٩) الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

(١٠٠) كتاب الثقلاء - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٠١) نفحات من السكينة القرآنية - طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس - نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

(١٠٢) مأثورات شعبية - نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

(١٠٣) سوانح أدبية - طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(١٠٤) صور ثقيلة - مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

(١٠٥) العالم الإسلامي والرابطة - نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

(١٠٦) نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء – مطابع التقنية بالرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١٠٧) المقامات الصحراوية - مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١٠٨) مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة – بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية – نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

(١٠٩) كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، نشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(١١٠) المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة) – ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة عام ١٤١٩هـ.

(١١١) مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

(١١٢) رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين – نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م.

(١١٣) الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم. نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

(١١٤) واجب المسلم في بلاد الأقليات. نشرته رابطة العالم الإسلامي عام

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(١١٥) " العالم الإسلامي: واقع وتوقعات " نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها.

(١١٦) الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١١٧) ((حِكَمُ العوام))، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م.

(١١٨) في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبد العزيز في الرياض، في أربعة مجلدات.

(١١٩) حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

(١٢٠) أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.

(١٢١) الكناية والمجاز في اللغة العامية، نشرته مجلة الدرعية التي تصدر في الرياض عام ١٤٢٣هـ.

(١٢٢) أماكن قديمة العمارة في القصيم، نشرته مكتبة العبودي في بريدة لصاحبها صالح بن عبد الله العبودي.

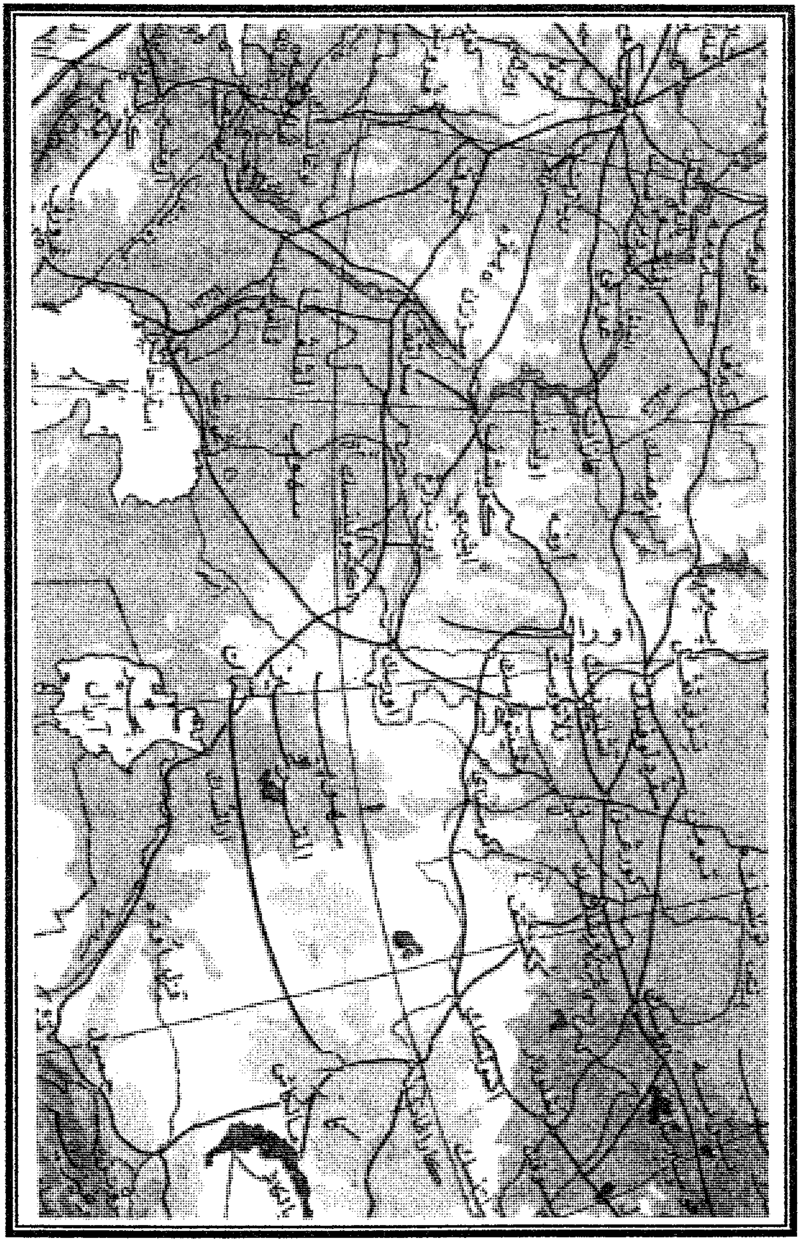

جنوب روسيا

بسم الله الرحمن الرحيم

الخميس ٨/ ٢/ ١٤١٦هـ ٦ يوليو ١٩٩٥م.

إلى جنوب جمهورية روسيا

الحمد لله، وأما بعد، فإن رحلتنا تتجه اليوم إلى جنوب جمهورية روسيا، ولا بد من هذا التعبير، لأنه أصح من قولنا جنوب روسيا، وإن كان هذا صحيحاً من الناحية السياسية والواقعية، فالبلاد التي نزمع الذهاب إليها هي في جنوب جمهورية روسيا الاتحادية، ولكنها في الواقع التاريخي ليست من بلاد الروس القديمة، وإنما كثر فيها الروس حتى كاثروا أهلها، بعد أن استولى عليها الروس في أزمان سابقة، ثم هاجر إليها أناس من الروس و(المتروسين) أي الذين صاروا روساً بالتبعية السياسية، ثم باستعمال اللغة الروسية، واعتناق الديانة الأرثوذكسية المسيحية مذهب الروس.

وبشيء آخر، وهو حمل بعض المسلمين على الارتداد عن الدين، إما بالقوة والإكراه، أو بالإغراء والشبهات، وذلك حدث في عهود سابقة من عهود حكم القياصرة، ثم ألغي وعادت الحرية في أعتناق الدين إلى البلاد، حتى جاءت الشيوعية فقضت على الأديان كلها، ونشرت الإلحاد.

لذلك غلب هذا الجنس الذي أصبح روسيا على هذه المنطقة التي كانت تسكنها أمم عديدة في القديم.

وفي عهد الحكم الشيوعي أعيدت تسمية تلك الأقطار بأسماء تلك الأمم القديمة، وسميت جمهوريات ذات حكم ذاتي داخل الجمهورية الروسية الاتحادية، مثل جمهوريات الجوفاش والتتار والأدموريين والشيشان

والداغستان والأنجوش.

وأما المناطق التي لم تشتهر في القديم موطناً لجنس بذاته، فإنهم أسموها (أقاليم)، مثل أقاليم أورنبرغ، وأستراخان، وسمارا، وبنزا، وإن كانت بعض تلك الأقاليم في القديم ممالك إسلامية، أو تابعة لممالك مسلمة، فهي إذا كانت ديار إسلام، وإن لم يكن أهلها كلهم من المسلمين؛ بل كانت بعضها ذات أغلبيات مسلمة، مثلها في ذلك مثل مراكز المسلمين القوية في المناطق القريبة من موسكو، كقازان التي ظل حكامها من الخانات – جمع خان – وهو الملك باللغة التركية القديمة، يتقاضون الخراج من حكام موسكو لمدة تزيد على قرنين من الزمان، حتى إن الكيناز، وهو الحاكم الروسي الكبير في موسكو لا يعتبر تعيينه شرعياً ولا مقبولاً حتى من الروس أنفسهم، إلا بعد أن يصدر به فرمان، أي مرسوم من خان المسلمين في قازان، ويتم ذلك بطريقة احتفالية تقليدية، بأن يتوجه وفد من قازان إلى موسكو، وهو يحمل مرسوم سلطان المسلمين الذي هو الخان، بتعيين حاكم موسكو، فتجري لذلك احتفالات في قصر الكرملين، وإحيانا يسمونه (قلعة كريملة).

أما بلاد الروس الأصيلة في القرون القديمة، فإنها لم تكن في تلك العصور تزيد مساحتها على ربع الربع من مساحة جمهورية روسيا الحالية، لا سيما إذا تصورنا مساحة إقليم سيبريا الذي استولى عليه الروس في القرن الخامس عشر، وكانت في جزء منه مملكة (سيبير) المسلمة التي أخذ اسم أقليم سيبريا كله من اسمها، ومساحته تصل إلى نحو ١٢ مليون كليو متر مربع.

المشكلة الجديدة:

مسألة أخذ بها حكام روسيا الإتحادية حديثاً ، فقد كانوا بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وإطلاق الحريات الدينية يسمحون لأمثالنا بالسفر إلى أي منطقة نريد من البلاد ، ولكنهم الآن صاروا ، بعدما لاحظوا تمسك المسلمين بدينهم، يخافون من أن يتسبب مجيء الوفود الإسلامية إلى بلادهم القصية ، والاتصال بالإخوة المسلمين فيها في تنمية الشعور الإسلامي في نفوسهم إلى درجة تجعلهم يطالبون بالاستقلال والانفصال عن روسيا ، مثلما يحدث الآن في جمهورية الشيشان المسلمين.

كما لاحظوا أن بعض الدعاة الذين يعودون من البلاد الروسية يقولون ما لا يعجبهم قوله.

لذلك صاروا لا يعطون سمة الدخول إلا إلى موسكو ، والعادة القديمة عندهم أن يطلب من كل أجنبي وصل البلاد ، ويريد أن يسافر إلى جهة أخرى من غير موسكو أن يحصل على سمة دخول (فيزا) إلى ذلك القسم الذي يريد السفر إليه، بمعنى أنهم يكتبون المدن التي يريد أن يزورها على جوازه عند إعطائه (الفيزا) من إحدى سفاراتهم، ولا يسمحون له بزيارة غيرها.

إلاّ إذا كان قد حصل على دعوة رسمية من جهة معترف بها في تلك البلدان، وقد حصلنا على دعوات رسمية موجهة إلينا من تلك الجهات، وسلمناها للقنصلية الروسية في جدة، ولكنها لم تعطنا (فيزا) إلاّ لموسكو.

والمشكلة أننا لم نعرف بذلك إلاّ قبل السفر بيوم واحد ، لأنهم لم ينجزوا لنا السمة إلا في هذا الوقت.

كنا حجزنا للسفر من إسطنبول إلى (قازان) عاصمة جمهورية تتارستان؛ حيث ننوي أن ننطلق منها إلى جنوب روسيا ، ولكن السمة إلى قازان ليست موجودة الآن في جوازاتنا ، لذلك اضطررنا أن نغير خط سيرنا ليكون من إسطنبول إلى موسكو، بدلاً من قازان، وسوف نحاول أن نطير إلى قازان من موسكو، عندما نحصل على إذن بالسفر إلى قازان.

وهذا بخلاف المعمول به في أكثر البلدان؛ حيث تكون سمة الدخول إلى بلد صالحة لجميع مدنه ونواحيه.

إلا أننا حينما وصلنا إلى موسكو أخبرنا الإخوة هناك أن من دخل وليس على جوازه إلاّ زيارة موسكو مثلنا ، فإنه يستطيع أن يسافر إلى أي مكان من جمهورية روسيا ، إذا كان ذلك خلال المدة المذكورة في الجواز.

وقد صح ذلك بالفعل، فسافرنا إلى قازان، ومن قازان سافرنا داخل البلاد براً إلى جمهورية الجوفاش، وجمهورية (ماري إل)، ثم عدنا إلى قازان.

وقد كتبت كتيباً عن السفر من جدة إلى إسطنبول، ثم موسكو، ثم قازان عاصمة تتارستان، ثم جمهوريتي جوفاش، وماري إل عنوانه: ((**جمهورية القبائل الروسية**)).

أما هذا الكتاب، فإنه مخصص للحديث عن رحلة واحدة في الأقاليم الروسية الجنوبية، هو إقليم اورنبورغ الذي يمتد شرقاً أو جنوباً شرقياً بمحاذاة حدود جمهورية قازاقستان، حتى يقترب من سيبريا ، وسوف يعقبه كتاب عن إقليم سمارا الذي سمي فيما يقال باسم أصله عربي، وهو ثمارا بمعنى ثمار، جمع ثمرة، وهي كلمة عربية في اللغة التتارية، فأحال الروس في لغتهم ثاءها إلى سين، ومعه إقليم (أستراخان) الذي تمتد حدوده

غرباً حتى بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين، وكلها أقاليم روسية جنوبية.

بل أن جميع هذه الوحدات الإدارية من جنوب جمهورية روسيا الاتحادية التي سنتحدث عن رحلتنا فيها في هذا الكتاب وما بعده، هي أقاليم يتألف العدد الأكبر من سكانها من الروس كما سيأتي ذلك مفصلا عند الكلام على الأمور العامة فيها.

إن رحلتنا هذه هي واحدة من سلسلة رحلات انطلقت من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وكلها برئاستي، ويؤلف الوفد منها ما بين أربعة إلى خمسة أشخاص، وهذه المرة تألف وفد الرابطة العالم الإسلامي من ثلاثة أشخاص: المرافقان لي هما الأخوان الكريمان الأستاذ حسن بن علي إزميرلي، والأستاذ رحمة الله بن عناية الله مدير إدارة الدراسات والبحوث في رابطة العالم الإسلامي.

والله الموفق

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

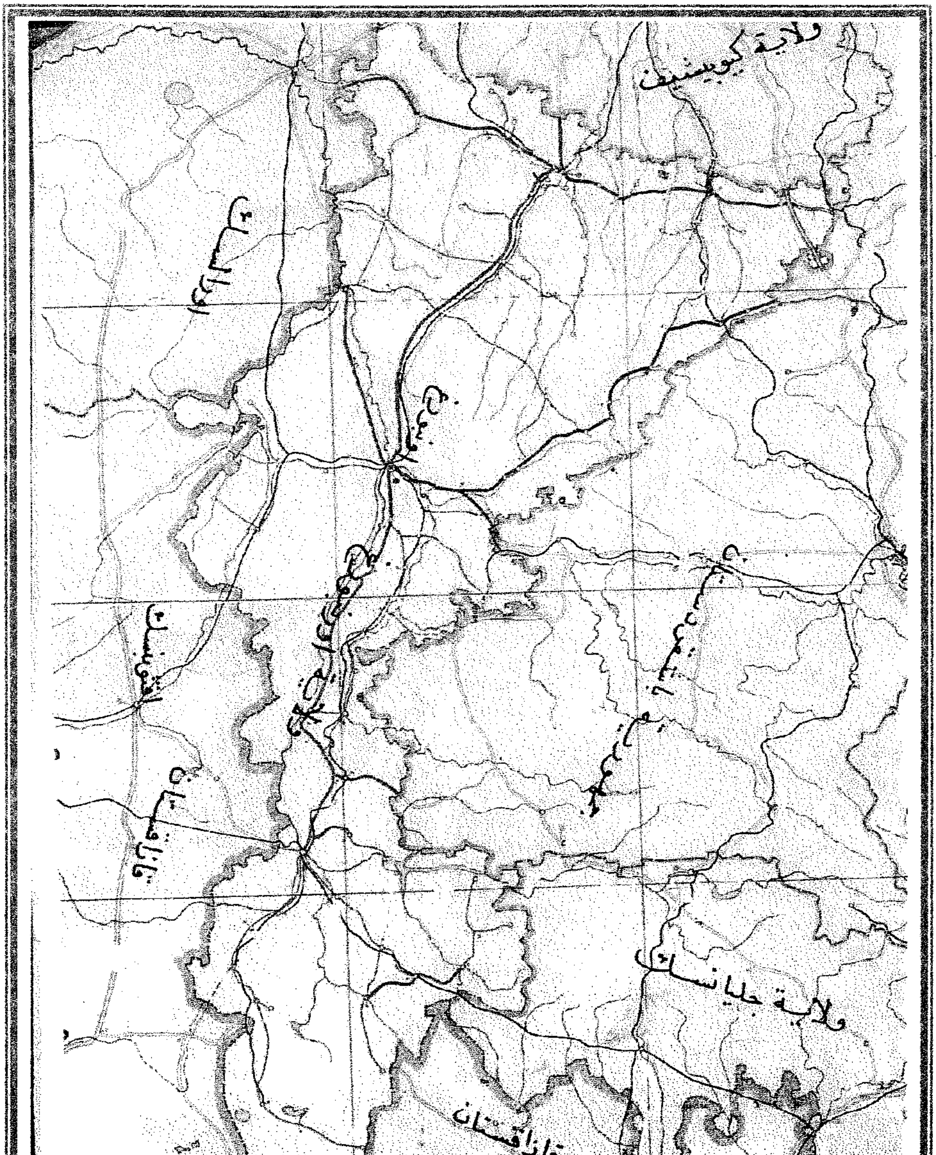

إقليم أورنبورغ

إقليم أورنبورغ

اعتدنا في كتبنا في الرحلات أن نقدم شيئاً من المعلومات العامة عن البلد الذي تتحدث عنه، من أجل أن يتصور القارئ خلفيات بعض ما يمر به من حديثنا في المشاهدات اليومية فيه.

أقليم أورنبورغ:

يقع إقليم أورنبورغ جنوب جبال الأورال، وشمال جمهورية قازاقستان؛ حيث له حدود طويلة معها، هي الحدود الجنوبية لجمهورية روسيا الاتحادية، فهو - إذاً - في جنوب الجمهورية الروسية.

وقد تأسس إقليماً ذا إدارة متميزة خاصة في ٧ ديسمبر عام ١٩٣٤م، ويسمى (أورنبورغ) على اسم عاصمته مدينة (أورنبورغ) التي تعني مدينة النهر باللغة الألمانية، لأن (أورن): نهر، والمراد به نهر (أورال).

وقد تأسست أول جمعية إسلامية رسمية في عاصمته (أورنبورغ) على عهد الإمبراطورة كاترينا الكبيرة عام ١٧٨٨م، وبعد ذلك عرفت (أورنبورغ) بالنشاط الإسلامي، بحيث كانت مطابعها تطبع الكتب الإسلامية بالعربية والتتارية، وقد استفدت من بعض مطبوعاتها مثل كتاب ((**تلفيق الأخبار**)) للشيخ الرمزي كما سيأتي بيان ذلك خلال اليوميات.

ولم تقتصر على طبع الكتب الإسلامية، بل صدرت فيها صحف ومجلات إسلامية، ولكنها كلها ألغيت عندما سادت الشيوعية في روسيا.

الموقع والمساحة:

يقع إقليم (أورنبورغ) على ملتقى قارتي آسيا وأوروبا، وتبلغ المساحة الإجمالية له ١٢٣،٩ ألف كلم مربع، أي ما يعادل مساحة لبنان ١١ ضعفاً.

يحده من الجنوب جمهورية قازاقستان، ويحدها من الشمال جمهورية تتارستان، وجمهورية بشقردزستان، ومن الغرب محافظة (سمارا)، ومن الشرق له حدود مع جمهورية بشقردزستان، ومحافظة تشيلابينسك.

المناخ:

يسود المنطقة مناخ قاري؛ حيث تصل درجة الحرارة في فصل الشتاء إلى أقل من ١٢ درجة تحت الصفر (-١٢)، وفي الصيف ٢٦ درجة فوق الصفر (+٢٦).

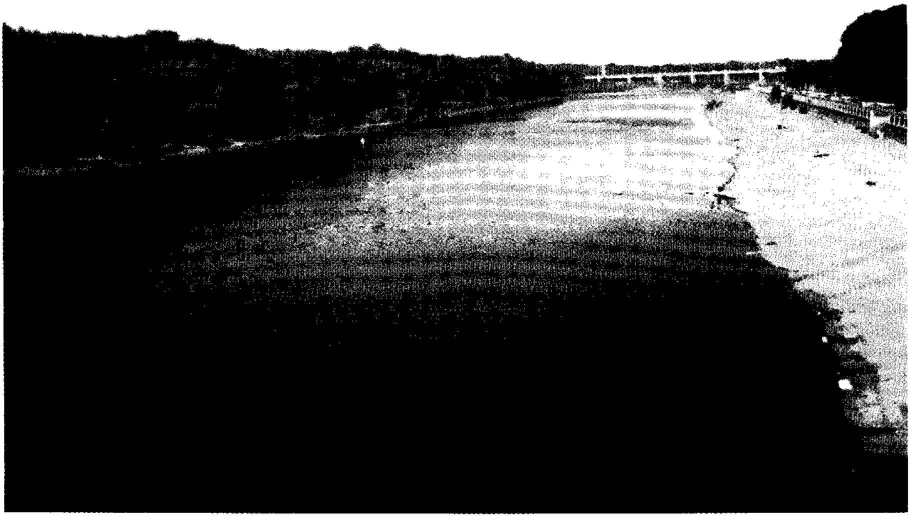

نهر أورال في مدينة أورنبورغ

وإقليم أورنبورغ بطبيعة أرضه التي هي عبارة عن سهوب وسهول يجري فيه عدد من الأنهار، أهمها نهر (الأورال) الذي يصب في بحر الخرز المسمى (بحر قزوين) في الوقت الحاضر، وكذلك نهر سمارا الذي يعتبر من أهم روافد نهر الفولغا الكبير.

عدد السكان:

بالنظراً للجداول التي سيتم عرضها يتبين مدى تعدد القوميات والأجناس في إقليم (أورنبورغ)، حيث تعيش فيه (٧٠) قومية من جميع القوميات التي كانت تعيش في الاتحاد السوفيتي السابق، وقد بلغ تعداد السكان حسب الإحصاءات الرسمية لسنة ١٩٩٥ م (٢١٩٣٧٠٠) نسمة.

الجدول الأول رقم (١) يمثل العدد والنسب بـ٪ للقوميات التي تعيش في الإقليم، هذه القوميات التي تنقسم إلى عدة أقسام، أو عائلات، قسم القوميات الناطقة باللغة الروسية أو اللغات المتفرعة من اللغة الهندو أوروبية، الذين يشكلون أكثر من ٨٠ ٪ ،وقسم القوميات الناطقة باللغات التركية، وهم التتار وقومية البشكير والألطاي والتشوفاش.

قسم أو العائلة الأورالية: وهم الماردوف، هذا بالإضافة إلى قليل من اليهود الذين يسكنون بالمنطقة، والقوميات الأخرى.

جدول رقم (١)

اسم القومية	عددهم	النسبة بـ%
الروس	٥٨٦٠٤٥١نسمة	٧٢,٣%
أوكرانيين	٣١٠٤.١نسمة	٤,٧%
البيلاوس	٠٩٦٩١نسمة	٠,٥%
الألمان	٨٢٦٢٤نسمة	٢.٢%
التتار	٦٠١٤٠١نسمة	٧,٣%
البشكير	٢٦٤٩٥نسمة	٢,٤%
الشوفاش	١٩٣٧٢نسمة	١,٠%
الموردوف	٠١٩٩٧نسمة	٣,٢%
اليهود	٣٨٨٤نسمة	٠,٢%
قوميات اخرى	٤١٣١٢نسمة	١.١%

الجدول رقم (٢) يمثل توزيع السكان على أهم المدن والنواحي الإدارية حسب القوميات

الرقم	أهم المدن والنواحي الإدارية	نسب القوميات بـ %								
	اسم المدينة أو الناحية	عدد السكان بالنسمة	الروس	أوكران	كازاخ	ألمان	تتار	بشكير	شوفاش وموردوف ويهود	نسبة المسلمين
١	مدينة أورنبورغ	٥٥٦٥٠٠	%٤ .٨٢	% ٤,٠	% ١,٣	-	% ٧,١	% ١.١	-	% ٩,٣
٢	مدينة أورسك	٢٧٣٩٠٠	%٨١,٦	% ٥,٧	% ٣	%٦ .٢	% ٤,٣	%١,٧	%٦,٩	% ٩
٣	مدينة نوفاترويسك	١١٠٩٠٠	%٧٨,٤	% ٦,٣	% ١,٧	-	% ٣.٣	% ٢,١	% ٥	
٤	ناحية عبدوالين	٤٠٣٠٠	% ٢٨,٢	-	-	-	%٢٩,٢	-	مردوف فقط ٢٤,٢ %	-
٥	ناحية بوروغسلان	٧٧٣٠٠	-	-	-	-	-	-	-	-
٦	ناحية بوزولوك	١١١٤٠٠	%٩٠	% ١٠						
٧	ناحية غراتشوفكا	١٦٥٠٠	% ٧٩	% ٢	% ٣.٣	% ٢,١	% ٣,٥	% ١,٣	%٨.٨ مردوف	-
٨	ناحية كراستوغفاردسكي	٢٦٧٠٠	%٤٠.٨	-	-	%٢٦,٥	-	% ١٩	-	-
٩	ناحية كارماناليفكا	٢٣٣٠٠	-							
١٠	ناحية ماتفيكا	١٦٠٠٠	%٨٨,٥	-	-	-	-	-	الشوفاش %٤,٥	-
١١	ناحية بريقومايسك	٢٥٦٠٠	%٤٨,٨	-	-	-	%٢٩,٦	-	المردوف %٧/٢٩	-

اللغة الرسمية للمنطقة واللهجات المحلية:

اللغة الرسمية التي تستعمل في المنطقة هي اللغة الروسية، لكن بما أن المنطقة فيها قوميات مختلفة، لهذا توجد لكل قومية لغتها الخاصة بها، أهمها:

١-الروس	اللغة الروسية
٢-التتار	اللغة التتارية
٣-الشوفاش	اللغة الشوفاشية
٤-الألمان	اللغة الألمانية

كما توجد في الإقليم عدة لهجات متفرعة من اللغات التي تم التطرق إليها.

التوزيع الديني للسكان والمذاهب المتبعة:

نظراً لأن أغلبية السكان من الروس، وكذلك وجود الأوكرانيين، فإن الديانة الأكثر انتشاراً هي الديانة المسيحية الارثوذكسية، ثم يأتي الدين الإسلامي، ذاك أن التتار الذين يشكلون القومية الثانية بعد الروس هم كلهم مسلمون سنيون، على المذهب الحنفي، أما الشوفاش فيتبعون الديانة المسيحية، كما يوجد منهم من يتبع الديانات الأخرى كالوثنية والخرافات القديمة.

المؤلف أمام مبنى المحافظة في مدينة أورنبورغ

١-نبذة تاريخية عن المنطقة

أسست مدينة (أورنبورغ) سنة ١٧٤٣على الضفة العالية لنهر الأورال قرب نهر سمارا ،وأصبحت منذ ذلك الوقت،ولمدة قرنين من الزمن، مركزاً

إدارياً واقتصادياً للأراضي الواسعة في المنطقة، كما أصبحت منطقة مهمة في مجال المواصلات، ذلك بأنها تربط الغرب الروسي بآسيا الوسطى.

كما أنه تم بناء مدينة أورنبورغ باعتبارها مدينة محصنة، ومركزاً للتعامل التجاري والاقتصادي والسياسي مع شعوب الشرق ودوله، وأصبحت إقليما بعد التقسيم الإداري لسنة ١٩٣٤م.

أما بالنسبة لتاريخ شعوب المنطقة، وكيفية مجيئهم إلى هذه المنطقة، فقد ظهر السكان الناطقون بالروسية في جنوب الأورال في القرنين ١٥-١٦م، وقبل هذا التاريخ كان يسكن بالمنطقة شعوب البشكير والتتار والكلميك والقازاق، وكانوا يشكلون الأغلبية حتى بداية غزو الروس للمنطقة، بحيث أصبحوا الآن يعتبرون أقليات، وذلك لتهجيرهم إلى مناطق أخرى، وكذلك توافد عدد كبير من الروس وأقربائهم من السلافيين، كالروس البيض والأوكرانيين إليها.

٢-تاريخ دخول الإسلام إلى المنطقة:

تعتبر محافظة (أرونبورغ) منطقة عملت الكنيسة الروسية في الاستحواذ عليها لأغراضها التنصيرية، لهذا صار عدد المسلمين في المنطقة يقتصر على التتار والبشكير والقازاق، الذين يعيشون هناك، وبقوا صامدين أمام الغزو الروسي للمنطقة، أما تاريخ دخول الإسلام فيرتبط بتاريخ دخول الإسلام لدولة البلغار، ذلك أن المحافظة كانت تابعة لدولة البلغار المسلمين في فترة من الفترات، والمراد بالبلغار هنا بلغار الفولقا الذين أسلم ملكهم وكثير من رعيته في القرن الرابع الهجري، وطلبوا من الخليفة المقتدر أن يرسل إليهم من يعلمهم أمور دينهم، فأرسل إليهم وفداً فيه الكاتب ابن فضلان الذي كتب أحداث الرحلة في كتاب خالد، وقد

استقصيت أمرهم في كتابي: ((**بلاد البلغار والتتار**)).

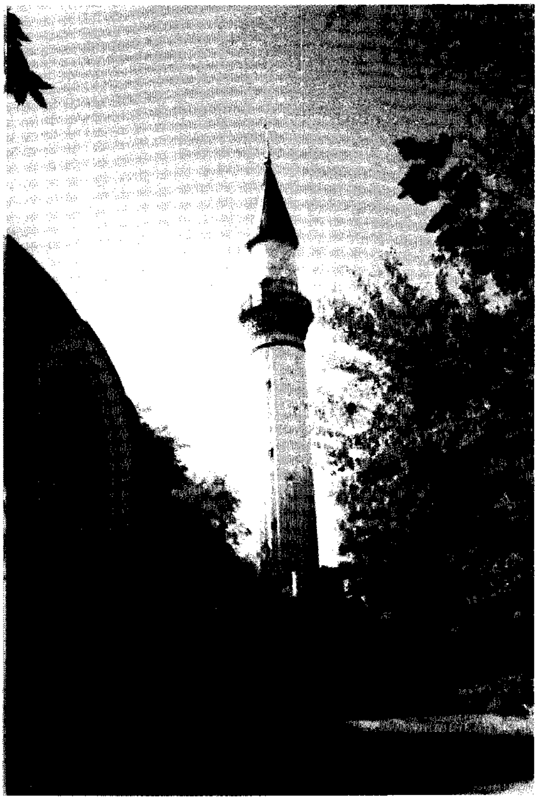

جامع كروان سراي في مدينة أورنبورغ

٣-المناطق المهمة لنشر الدعوة:

لا توجد منطقة خارجة عن نطاق الدعوة الإسلامية، ولكن الكلام على النجاح القريب المحتمل، وذلك يتمثل في المناطق التي يمكن التركيز عليها لنشر الدعوة الإسلامية في المحافظة، وهي مناطق وجود المسلمين والقوى الخاصة بهم، لأن للمسلمين أصدقاء وأحياناً أقرباء من الروس وغيرهم من السكان، وهؤلاء تمكن دعوتهم بسهولة، إلا أن الملاحظ أن المسلمين أنفسهم بحاجة إلى الدعوة، لأنه لم يبق من الإسلام عند أكثرهم

إلا اسمه، كما سيأتي إيضاح ذلك في اليوميات.

وأهم الهيئات والجمعيات الإسلامية في الإقليم: الإدارة الدينية لمسلمي محافظة أورنبورغ التي سيأتي الكلام عليها مفصلاً، بل إن رئيسها، وهو المفتي الشيخ عبد الباري خير الله، هو الشخص المهم لنا في هذه الرحلة.

تبلغ نسبة المسلمين في الإقليم ١٨٪ من جميع سكان المحافظة، وتتمركز أغلبيتهم في مدينة بورغسلان.

وأهم المشكلات في مجال الدعوة في الإقليم هي نقص الدعاة المؤهلين للدعوة ولتدريس الدين الإسلامي، وكذلك نقص الكتب الإسلامية، والكتب المتعلقة بتعليم اللغة العربية، لهذا لابد من توفير أو تكوين مجموعة أشخاص يمكن الاعتماد عليهم مستقبلاً، من أجل العمل الإسلامي بين السكان، وذلك عن طريق رفع مستوى الموجودين بتنظيم دورات دراسية، وتوفير منح دراسية لعدد مناسب من أبناء المسلمين، كذلك توفير الكتب الإسلامية المترجمة، وكذلك العمل على بث برامج تلفازية وإذاعية إسلامية خاصة بالمناسبات الإسلامية، وتوفير الأشرطة السمعية البصرية الخاصة بالأفلام الإسلامية، والدروس، والمحاضرات.

والفرصة سانحة لذلك، فالحكومة الحالية لا يمكن القول بأنها ضد الإسلام، بل إنها تحاول أن تتقرب إلى المسلمين، لكونهم مجموعة مهمة من السكان، رغم قلة عددهم ١٨٪ ، والحكومة الروسية المركزية لا تعارض مثل هذا النشاط الديني إذا لم يتصل بسياستها، إضافة إلى المشكلات العظيمة التي تواجهها، وتحتاج في ذلك إلى ولاء عامة أبناء الشعب، ومنهم المسلمون الذين يبلغ عددهم في جميع أنحاء جمهورية روسيا الاتحادية ٢٥مليوناً، وفي المدارس والمعاهد الحكومية لا يوجد تدريس اللغة العربية أو تعليم الدين الإسلامي، كما أن دور المدارس الإسلامية في غير

المدارس الحكومية غير موجود، نظراً لضعفها وقلتها، والتدريس ضعيف لضعف المناهج المتبعة.

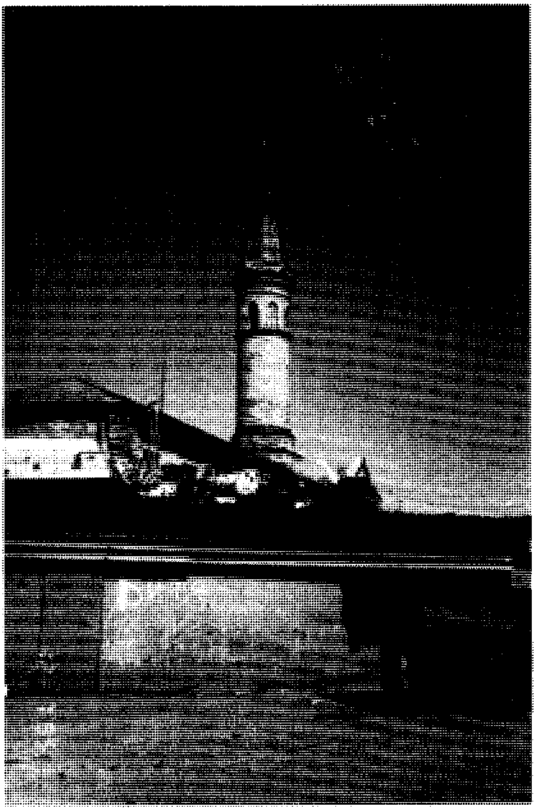

أول مسجد في أورنبورغ

المعالم الاقتصادية والاستثمارية بالإقليم:

يعتمد اقتصاد الإقليم بالدرجة الأولى على الصناعة، حيث نجد أن عدد السكان الذين يشتغلون في هذا المجال يصل إلى حوالي ١٠٩٠٠٠ شخص، أي بنسبة ٥٠,٣ ٪ ، أما أكبر نسبة عمال فيه فهم الروس بـ ٣٠ ٪.

جدول يبين أهم الصناعات الموجودة في إقليم أورنبورغ وأهميتها على الصعيد الروسي بالنسبة المئوية %

الرقم	الصناعات	النسبة المئوية من جميع الصناعات الروسية
١	الغاز الطبيعي	ينتج بالمحافظة ٧% من جميع المنتجات الروسية
٢	الحديد والصلب	%٥
٣	معدات المتالورجيا	٢٠ %
٤	مكابس الحدادة	٢٤ %
٥	المحركات الكهربائية	٢٦ %
٦	الثلاجات	١١ %
٧	المكانس الكهربائية	%٦
٨	مواد البناء	٣٠ %
٩	الأقمشة الحريرية	٦,٥ %
١٠	الأقمشة الصوفية	٣ %
١١	الملح	١٣ %
١٢	معلبات اللحوم	١٢ %
١٣	الرز، العدس... إلخ	٨ %
١٤	الدهون الحيوانية	٣,٥ %

أما الجانب الزراعي، حيث تتوافر الأراضي الصالحة للزراعة، فإن المنطقة تنتج كثيراً من الحاصلات الزراعية، منها:

القمح، الشعير، البطاطس، الخضرات، ويعتبر إنتاج الحبوب أساساً للزراعة؛ حيث بلغت نسبة الفرد من السكان من الإنتاج السنوي المتوسط للقمح أكثر من طنين خلال الأعوام ١٩٨٦-١٩٩٠م.

وتعد نسبة القمح من جميع منتجات الحبوب بـ ٦٠٪.

وهناك محصول وافر من (دوار الشمس) لأنهم يستعملون زيته أدماً،

وثفلـه علفـاً للدواجـن، أمـا الخضـرات والبطيـخ فتشـغل ١٪ مـن الأراضـي المزروعة.

المؤلف مع الأخ نايل من مسلمي أورنبورغ على ضفة نهر سالمار في أورنبورغ

ولتربية المواشي أهمية كبيرة في المنطقة، خاصة في إنتاج اللحوم والألبان والصوف، ففي عام ١٩٩٢م كان فيها ١٢ ألف رأس من البقر، و ١٦٥ ألف رأس من الغنم والماعز.

وأكبر نسبة من السكان تعمل في تربية المواشي هم من المسلمين، ولكن الأقليم كغيره من أنحاء روسيا يواجه الآن مشكلات لا قبل له بها، نتيجة للانتقال من الاقتصاد الموجه من الدولة إلى اقتصاد السوق الحر من دون أن تتوافر لديه مقومات ذلك.

التعليم:

١-نسبة الأمية وسببها في البلد:

في إقليم (أورنبورغ) لا توجد الأمية، بحيث نجد أن أغلب السكان قد أنهوا مرحلة من المراحل الدراسية، مثلهم في ذلك مثل بقية السكان في روسيا، لأن التعليم الابتدائي فيها كان إلزامياً، والتعليم بكافة مراحله مجاني.

٢-عدد المعاهد في الإقليم:

في إقليم اورنبورغ ٦٤ مركزا للتكوين المهني، و٤٨ معهداً فنياً متوسطاً، أما عدد الطلبة الإجمالي في الإقليم فيبلغ ٢٩٦ ألف طالب وطالبة، وأما المعاهد والمراكز الجامعية فهي (٤)، هي المعهد الزراعي، والمعهد الطبي، ويدرس به ٤٠ طالبة من الدول الإسلامية، ومعهد تكوين المعلمين ويدرس به ١٤ألف طالب وطالبة، والمعهد التقني، وهذه كلها إحصاءات حكومية لا سبيل لمثلنا للتحقق منها.

نشاط المنظمات غير الإسلامية

أهم المنظمات التي تنشط في الإقليم كغيره من المناطق الأخرى في روسيا الاتحادية بعد سقوط الشيوعية هي تلك المنظمات التي تقوم بالتنصير المسمى بالتبشير، وهي كلها قادمة من أوروبا الغربية، أو من أمريكا الشمالية، وتتبع هذه المنظمات كنائس مسيحية مختلفة، مثل البروتستانت، الكاثوليك، الأرثوذكس، الأنجليكان ... إلخ، وينشطون أيضاً في القرى المأهولة بالمسلمين، ومن أهم وسائلهم التنصيرية الإغراء بالمال والوظيفة، ولديهم إمكانات مادية كبيرة.

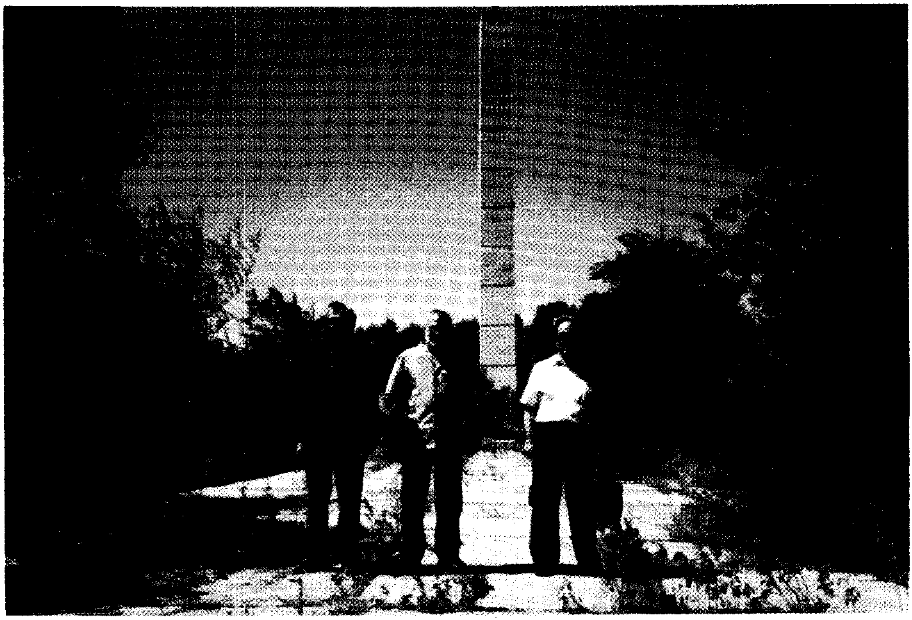

أمام نصب الحدود بين أوروبا وآسيا في مدينة أورنبورغ مع وفد الرابطة

وفيما يتعلق بفتنة المسلمين عن دينهم، لم يبلغنا أن أحداً من المسلمين أهل هذا الإقليم ارتد عن دينه بسببهم، ولكن بلغنا أن قلة من الشبان في خارجه فتنوا بما يقدمه المنصرون من إغراءات، وتأثر بعضهم بذلك، فارتد خمسة شبان، ولا ندري ما إذا كانوا استمروا على ذلك أم رجعوا إلى دينهم الإسلامي الحنيف، والأقرب أنهم سيعودون إليه بإذن الله.

هذا وفي داخل هذا الكتاب أحاديث مبسوطة مختصرة عن أحوال المسلمين، وما يكتنفها من معوقات لا يمكن ذكرها كلها هنا لكثرتها.

المدن والمؤسسات التي زارها وفد الرابطة في إقليم أورنبورغ :

١- أورنبورغ العاصمة، ويبلغ عدد سكانها ٦٠٠ ألف نسمة نسبة المسلمين فيها ١٠٪ من جملة السكان، والمسلمون المحليون هم من التتار

والباشقرد والقازاق، وهناك قوميات إسلامية أخرى من الأوزبك والأذاريين، ويرأس الإدارة الدينية الإسلامية الإقليمية الأستاذ عبد الباري خير الله، وقد زار الوفد في هذه المدينة.

أ- مقر الإدارة الدينية الإسلامية والمسجد المجاور له، ثم المدرسة الإسلامية التي تسمى الحسينية، وكلها داخل فناء كبير يتوافر فيه مكان الوضوء، وغرف لاستقبال الضيوف، وجزء من المكان مؤجر لورشة إصلاح السيارات.

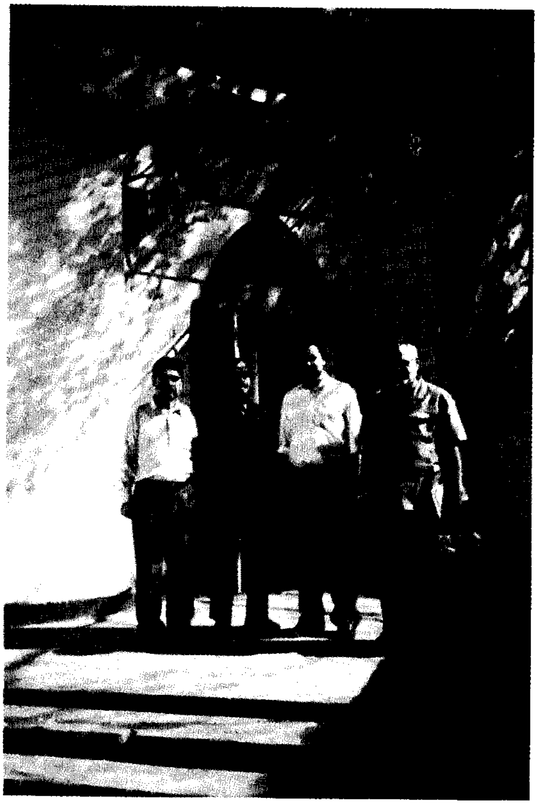

في مدخل جامع كروان سراي بين المفتي الشيخ عبد الباري وإمام الجامع (آمد ميد ماي بن ممباي)

ويتردد على المسجد أفراد من المسلمين لأداء صلواتهم، ويدرس في

المدرسة الحسينية ٣٥طالباً، وبعضهم يقيمون فيها، والطلاب في إجازة صيفية لا يوجد إلا اثنان منهم، أحدهما يسمى نائل رينات، والمسلمون يتطلعون إلى بناء مدرسة عصرية تعمل بالمنهجين الحكومي والإسلامي، ويعود تاريخ هذا المسجد الذي يعرف باسم مسجد سابرينا إلى القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يصادره الشيوعيون في عهد طغيانهم، ولكن صودر مبنى المدرسة، وأعيد إليهم عام ١٩٩٣م.

ب- مسجد كروان سراي الذي يقع في شارع بادغويتش رقم ٦، ويقول الأستاذ آميد بن ميد باي عمروف متولي المسجد المذكور بأن تاريخ بنائه يعود إلى ماقبل ١٥٠عاماً، وحول المسجد مبانٍ كان ينزل فيها التجار وأصحاب القوافل، وقد صادرها جميعها الشيوعيون، وأعيد لهم المسجد بعد أن اتخذه الشيوعيون صالة عرض، والمسلمون يرممونه الآن، وله منارة خارجية ارتفاعها ٤٢متراً.

ج- مسجد الحسينية: لا يزال يشغل الدور الأرضي فيه مكاتب لجمعية فنية، أما الدور الأول فهو غرف صغيرة جعلت إحداها مصلىً، والثانية مكتباً، والثالثة فصلاً دراسياً، وواضح أن المسجد قد قسم إلى دورين، ثم قسم كل دور إلى غرف اتخذوها مكاتب ومساكن، وفي الوقت الذي أخلي الدور الأول وتسلمه المسلمون، لا يزال الدور الأرضي والمرافق المجاورة مشغولاً، وفي المسجد شاب روسي اسمه (شير علي)، يقال إنه الإمام، وهو حديث عهد بالإسلام، ويعرف شيئاً من العربية، وامرأة تسمى (نورجمال صادقوف)، أمينة الصندوق، وأما متولي المسجد فهو غائب، وقيل إنه مسافر إلى خارج أورينبورغ.

د- المدرسة الحسينية الإسلامية شيدها أحمد باي حسين الذي عاش

فيما بين ١٨٣٧-١٩٠٦ ، وتخرج منها عدد من علماء المسلمين، أمثال: موسى جار الله، وفخر الدين الرازي، ولكن الشيوعيين صادروها وجعلوها معهداً زراعياً، وقد تقرر إعادتها إلى المسلمين عام ١٩٩٥ م، وسيتم ذلك حال إيجاد مكان مناسب ينقل إليه الطلاب، كما قيل.

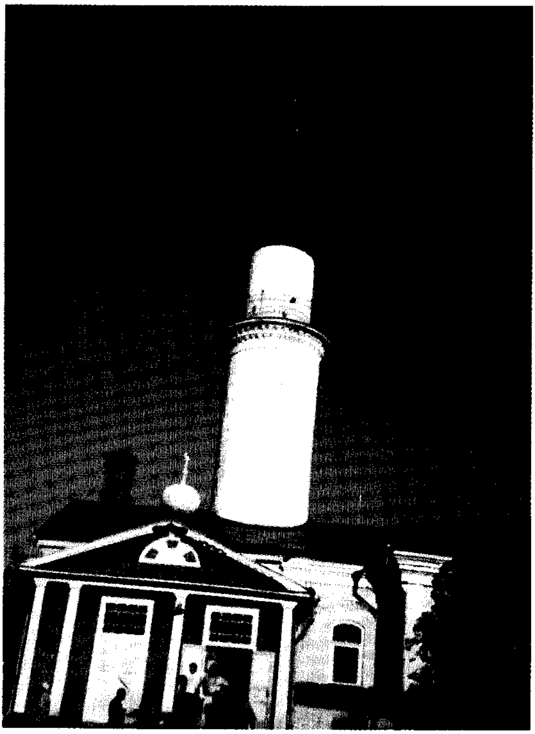

مسجد السليمانية في أورنبورغ

هـ- مسجد السليمانية بني منذ نحو مائة عام، ثم صادره الشيوعيون، واتخذوه سجناً بعد أن قسموه إلى غرف ودورين، وقد أعيد إلى المسلمين عام ١٩٩٣م، وهم يجرون الإصلاح في غرف الدور الأول، ويخططون لتأجير بعض غرفه لتغطية النفقات وتكاليف الإصلاح، مع استعمال جزء منه مصلى، وفصلاً دراسياً.

و- مسجد نوفواوسترويكا، وهو أحد المساجد الخمسة التي بناها أحمد باي بن حسين في أوائل القرن العشرين الميلادي، وتشغله حالياً

الإدارة الخاصة بصيانة الأعمدة الكهربائية، وورشة ميكانيكية، ورغم قرار الحكومة بتسليمه إلى المسلمين فإن الإدارة المذكورة لم تخله بحجة أنها لم تجد مكاناً غيره تنتقل إليه.

٢- بلدة قرغاله على بعد ٢٥كيلو متراً شمال أورينبورغ، وقد تحدث إمام المسجد خليل الله بن فريد عن المسجد والبلدة قائلاً إن تاريخ بناء المسجد يعود إلى عام ١٧٢٦م، ثم صادره الشيوعيون خلال فترة طغيانهم، واستعاده المسلمون، وتم ترميمه حديثاً، وإن عدد سكان قرغاله نحو ثلاثة آلاف نسمة، معظمهم مسلمون، وكان لهم قبل العهد الشيوعي ١٣ مسجداً، لم يبق منها إلا هذا المسجد.

٣- مدينة أورسك: تقع على بعد ٣٥٠ كيلو متر شرق العاصمة أورنبورغ، ويبلغ عدد سكانها ٣٠٠ ألف نسمة، منهم ١٠٪ مسلمون، ويتكونون من ١١٥٧٣ تتارى، و ٧٩٤٩ من القازاق، و٤٤٥٩ باشقردي، وكان فيها خمسة مساجد قبل الحكم الشيوعي، أما الآن فيوجد فيها مسجدان، أحدهما مفتوح، والثاني لا يزال في أيدي السلطة المحلية، وقد وصل إليها وفد الرابطة جواً في المساء؛ حيث كان في استقباله بعض الإخوة المسلمين، منهم فاضل جان بن زاكر رئيس الجمعية الإسلامية في مدينة أورسك، وقادرجان سود أمير علي.

ثم قام في الصباح بزيارة مسجد دربي سالى بركيم بايف، حيث استقبله الإمام صحاب الدين بن شهاب الدين، وتحدث عن تاريخ المسجد قائلاً بأن الشيخ سالي بركيم باي، وهو جد قادرجان سود أمير علي بنى المسجد المذكور قبل ١٥٠عاماً، ولكن الشيوعيين احتلوه واستخدموه روضة للأطفال، ثم أعيد إلى المسلمين عام ١٩٩٠م، وأجريت بعض الترميمات البسيطة عليه.

والمسجد من دورين، فالدور الأرضي غرف ومكاتب، والدور الأول هو المصلى، ويوجد بجوار المسجد مبنى من دورين، يقال إنه كان مدرسة إسلامية، ولكن الشيوعيين اغتصبوه، وجعلوه مصنعاً للأحذية.

٤- بلدة نوفاتروتسك التي تقع على بعد نحو ٢٥ كيلو متراً جنوب مدينة أورسك، يقدر عدد سكانها ١٦٠٠٠ نسمة، منهم ما يزيد عن ١٠٪ مسلمون، ويبني المسلمون الآن فيها مسجداً كبيراً متكامل المرافق على قطعة أرض منحتها السلطات المحلية لهم، تقدر مساحتها بـ ٦٠ × ١٠٠ متر، ويقول الأستاذ محمد شاه أحمد يايق نايف متولي الجمعية الإسلامية التي تشرف على البناء بأنهم يخططون مع بناء مسجد لبناء مدرسة ومكتبة ومطعم وفندق، حتى تؤلف الأبنية تلك مجمعاً أو مركزاً إسلامياً، وقد بدئ المشروع بالمسجد، وانتهى معظم حيطانه وأعمدته، وسيبلغ ارتفاع المئذنة ٢٥ متراً، ويعمل في المشروع بعض الإخوة المسلمين، منهم جميل عبد الله، وهو مدرس يستغل إجازته في الإسهام في بناء المسجد المذكور، وكذلك مرسل بن رفعت، وهو تلميذ رغبته أن يدرس العلوم الإسلامية في الأراضي المقدسة.

وفي الطريق من نوفوتروتسك إلى أورنبورغ البالغ طوله ٣٥٠ كيلو متراً، وقطعه وفد الرابطة بالسيارة، مر على قرى بها مساجد مهملة، مثل قرية إيلينكا Ilinka ، وقرية نيقولسك Nikolsk ، وبليافكا Beliyavka، وسوف يأتي ذلك مفصلاً في اليوميات بإذن الله.

والروس يؤلفون الأغلبية الساحقة من السكان في الوقت الحاضر، وهم من الروس الحقيقيين، أي أنهم من الجنس الروسي الأصيل، وكثير منهم جاؤوا من جهات موسكو وماحولها.

وقد بدأ توافدهم على هذه المنطقة التي كانت بحكامها وأغلبية

سكانها بلاداً مسلمة، وكان توافدهم، بل تكاثرهم بعد استيلاء الروس على المنطقة.

وسبب هجرة الروس إليها هو أنها بلاد واسعة، قليلة السكان، وهي إلى ذلك زراعية خصبة.

وقد بدأت الهجرة الحقيقية، أو لنقل التوطين الحقيقي للمسيحيين الروس ومن لف لفهم في عهد القيصرة كاترين الثانية التي سهلت هجرة بعض الألمان أيضاً إليها، لكي تصبح أغلبية السكان فيها من المسيحيين، فكان لها كذلك.

أما الألمان، فإنهم استقروا في بعض القرى، ومنها قرية اسمها (كش كات) سيحتفل الألمان فيها بعد خمسة أيام بمرور مائتي عام على بدء استيطانهم فيها.

وقد نفى (ستالين) أولئك الألمان بعد الحرب العالمية الثانية إلى آسيا الوسطى، بحجة أنهم لم يصدقوا في محاربة الألمان النازيين إبان الحرب العالمية الثانية، وإنهم بذلك ارتكبوا خيانة وطنية.

وقد عاد الكثير منهم الآن من المنفى، غير أنهم اتجهوا إلى ألمانيا بدلاً من هذه البلاد الروسية، لأن الحالة الاقتصادية فيها أفضل، ولكون حكومة ألمانيا ترحب بهم.

والمسلمون لا يزيدون الآن، لأن الزيادة النسبية القليلة التي في مواليدهم تقابلها زيادة حقيقية عن طريق وصول مهاجرين روس من جمهورية قازاقستان المجاورة، حيث لا يوجد مانع نظامي أو اجتماعي، فضلاً عن عدم وجود المانع السياسي في مجيئهم، فهم روس، وجنسيتهم روسية، وهذه البلاد هي بلادهم.

وقد لاحظت أن الزيادة في المواليد عند المسلمين، وبخاصة عند الأغلبية منهم الذين هم من قومية التتار، هي ضئيلة جداً، فكنت أحثهم في كل مناسبة على زيادة النسل، وعلى تعدد الزوجات، لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لرفع نسبة سكانهم الضئيلة في البلاد، وفي الوقت نفسه كنت أحثهم على رفع المستوى الثقافي للمسلمين.

وهاتان الوسيلتان: زيادة النسل، ورفع المستوى الثقافي، هما أفضل الأشياء التي يجب أ ن تعمل لضمان مستقبل المسلمين في هذه المنطقة التي كانت قبل الغزو الروسي منطقة إسلامية، ولا يمكن عملياً القول بأنه يجب أ ن يرحل عنها الروس وأن يتركوها للمسلمين، لذلك يجب البحث في غير ذلك، وهو ما ذكرناه.

يوم الثلاثاء ١٤١٦/٢/١٣هـ ـ ١١ يوليو ١٩٩٥م.

من قازان إلى أورنبورغ:

صعدنا من مطار قازان عاصمة جمهورية تتارستان بعد وداع إخوة أعزاء من أهل تتارستان، كانوا يودعون عند سلمها، وعلى رأسهم المفتي الشيخ عبد الله صفا رئيس الإدارة الدينية في تتارستان، ونائبه الشيخ مارس طلعت، وإمام جامع المرجانية أكبر الجوامع في المدينة الشيخ عثمان، فركبنا طائرة صغيرة ذات محركين مروحيين، تحمل ٤٤ راكباً، ولكن لم يكن فيها إلا ١٤ راكباً معنا ونحن ثلاثة، وباقي مقاعدها ظل خالياً، وربما كان ذلك لغلاء أجرة الركوب فيها، فهي إلى مدينة أورنبورغ، كما دفعناها لهم (٨٥) دولاراً ثمن التذكرة الواحدة لمسافة تبلغ سبعمائة كيل، إلا أن المواطنين في جمهورية روسيا، وكذلك من رعايا الدول التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق، لا يدفعون إلا نصف هذه الأجرة التي يدفعها الأجانب، وكذلك في المرافق العامة الأخرى، كالفنادق والقطارات، فيدفع الأجانب أمثالنا ضعف ما يدفعه المواطن المذكور.

غادرت الطائرة مطار قازان في الثالثة والنصف ظهراً، وهو الموعد المحدد لقيامها في الأصل.

وكان قيامها مريحاً، فليس حاداً ولا مزعجاً، رغم صوت المحركين المروحيين.

وقد مكننا عدم ارتفاعها من التمتع مرة أخرى برؤية تعانق نهري قازان وإيدل (الفولقا) عند مدينة قازان.

ولا أدري ما يسمون به اقتران هذين النهرين بلغتهم، لأننا أسمينا ذلك

في بعض البلدان العربية بما يفيد الاقتران، فمثلاً يسمى السودان موضع اقتران نهري النيل الأزرق والنيل الأبيض بالمقرن، ويسمى العراقيون مكان اقتران نهري دجلة والفرات بالقرنة.

أما أنا فإنني رأيت اقتران أنهار عظيمة في أنحاء العالم، من أهمها وأكثرها بقاء في الذاكرة اقتران نهر الأمازون الذي يمر بمدينة (ماناوس) عاصمة ولاية الأمازون في البرازيل، ويسمى سلمونس بزميله النهر الأسود، واقترانهما ليس كالاقتران المعتاد للأنهار الأخرى، فهما نهران كبيران، ويتحدان معاً ليصبحا نهر الأمازون العظيم، ولكن لون مياه النهر الأسود - كما يسمونه بلغتهم – (ريو نقرو)، فريو: نهر، ونقرو: أسود، وذلك باللغة البرتغالية لغة البرازيل هو غير لون مياه النهر الآخر.

فلون مياه النهر الأسود هي سوداء حقيقة، بمعنى أن منظرها في النهر أسود، ومياه نهر سلمونس حمراء، فإذا امتزجا عند أول التقائهما رأيت عجباً يشبه امتزاج القهوة الخفيفة بالحليب الخفيف، وقد ذكرت ذلك في كتاب:((**على ضفاف الأمازون**)) المطبوع.

وظلت هذه الطائرة الصغيرة لفترة وهي تحلق بين السحاب، وبين خضم هذين النهرين العظيمين، ثم علت سحاباً أعاليه بيض ناصعة البياض، وأسافله رمادية إلى السواد ما هي.

وهو سحاب ربما كان ماطراً، وكانوا فرحوا بنزول المطر عند وصولنا، لأنه كان قد احتبس عنهم مدة طويلة بالنسبة إلى ما اعتادوا عليه.

وعندما انفرج السحاب كان المنظر تحتنا منظر نهر الفولقا بعد أن فارق قازان، وقد كون محقناً، أي ماء مجتمعاً واسعاً كأنه البحيرة

الكبيرة.

ثم اتخذت الطائرة الاتجاه الصحيح إلى أورونبورغ، وهو جهة الجنوب، ودخلت في غيم مطبق، فانصرف النظر إلى داخل الطائرة، وإذا به خالٍ من كل شيء يكون في الطائرات المعتادة لنا، فليس في جيوب المقاعد صحيفة ولا مجلة، ولا بيان عن الطائرة والشركة، ولا كيس للقيء، وحتى لا توجد مائدة للطعام، ولا منافض للفافة التبغ، وذلك لعدم تقديم الطعام في رحلاتهم الداخلية إلا ما زادت على ساعتين ونصف، أو ثلاث ساعات، ولعدم السماح بالتدخين في هذه الرحلة وأمثالها، وهذا جيد، وهو بقية مما كان في زمن الشيوعية.

وفي مثل هذه الحالة تذكرت أن الشعب الروسي أقل شعوب العالم المتمدين حصولاً على الخدمات العامة، ليس بسبب منع التدخين طبعاً، فهذا أمر صار معمولاً به في معظم البلدان الأوروبية، ولكنه لكونه لا يلقى المعاملة المناسبة، ولا يحسب المسؤولون حساباً لراحته، وربما لا يحسبون حساباً لمشاعره.

صحيح أنه هو نفسه شعب خاضع، لا يتطلع، أو لا يستطيع أن يتطلع إلى ما يتطلع إليه الآخرون، ولم أرهم يشكون مما يشكو منه سائر الناس من سوء الحال، أو فساد الإدارة، أو حالة الطرق، أو حتى معاملة الموظفين والمسؤولين لسائر الناس، وطبيعي أنني أقول ذلك بعد أن سألت كثيراً من أهل البلاد، من الإخوة المسلمين، وإلا فإنني لا أعرف اللغة الروسية. وقال لي أحد الإخوة المسلمين: إلى من يشتكي الناس ؟ إنهم لا يشتكون لكونهم لا يجدون من يرفعون إليهم شكواهم !.

ولكن هذا غير صحيح، فالإنسان يتشكى من الشيء، ويتألم له حتى عند من لا تفيد الشكوى إليه، لمجرد التعبير عن عدم الرضا، كما

هو واضح.

المضيفة النائمة:

وفي الطائرة مضيفة واحدة، جلست في آخر مقعد من الطائرة، واستسلمت لنوم عميق، ولم تعمل أي شيء مما تعمله المضيفات في الطائرات الأخرى، كالإرشاد إلى الأماكن، أو حتى مجرد الاستعداد للخدمة، وقد ذكرني استسلام هذه المضيفة للنعاس بحالة عامل في مطعم فندق أوكرانيا الذي كنا نتناول فيه طعامنا عند ما زرنا الاتحاد السوفيتي في عام ١٤١٠هـ ١٩٩٠م، وسافرت ومعي أخوان مرافقان إلى مدينة مورمانسك القطبية الشمالية، ورجعنا إلى موسكو للسفر منها إلى قازان عاصمة جمهورية تتارستان، ولم تكن إقامتنا في موسكو تزيد على عدة ساعات، فرجعنا إلى فندق أوكرانيا لنتناول الغداء كالعادة، إلا أن مدير المطعم ردنا قائلاً: إنه لم يتسلم أمراً بتقديم الطعام إلينا، وأن الأمر السابق قد ألغي بسفرنا، وكانت معنا النقود، والمطعم فيه فراغ، ولكنه امتنع، فذهب الأخ المرافق لنا في الرحلة الأخ عبد الحميد تورسان، وهو من أهل طشقند، ويحسن الروسية، للمدير فأفهمه أننا ضيوف، ولم نجد طعاماً، فتشاور مع غيره، وبعد لأي أحالونا إلى مطعم صغير في جهة ثانية من الفندق، وقالوا: يمكنكم أن تراجعوه بعد ساعة.

ذهبنا بالفعل للمطعم، فوجدنا مقدمات الطعام كالخبز والسلطة والمياه الغازية موضوعة على المائدة، إلا أننا لم نجد عاملاً لها، وامتنع عامل آخر كان يخدم موائد مجاورة عن خدمتنا قائلاً: هذه ليست مسؤوليتي، وإنما هي من مسؤولية عامل آخر، ابحثوا عنه. فذهب الأخ عبد الحميد يبحث الأمر، ويسأل عن العامل، حتى دلوه على غرفة يكون فيها، فوجده

نائماً مستلقياً، فلما سأله عن ذلك قال: لم يخبرني أحد أنكم ستأتون وتأكلون هنا.

هذا وقد استيقظت هذه المضيفة بعد قليل، فأخرجت من حقيبتها كتاباً، وجعلت تقرأ فيه، والركاب لا يقرؤون ولا يعملون، إلا أن ينعسوا - إن كان ذلك يعد عملاً -، إلا من كان مثلي هوايته البحث عن شيء يلاحظه ويكتبه، و(للناس فيما يعشقون مذاهب).

وقد ساعد الركاب على النعاس صوت محرك الطائرة الذي كان منتظماً، بل رتيباً، وكان طيرانها سلساً، ليس فيه ارتفاعات ولا انخفاضات، وهي أهدأ في الجو من مثيلاتها طائرات الدول الغربية، مثلما أن الطائرات الروسية النفاثة أحسن طيراناً، وأكثر استقراراً في طيرانها، أو لنقل: إنها أهدأ طيراناً من الطائرات النفاثة التي تصنعها الدول الغربية، والظاهر أن مرجع ذلك إلى قوة محركاتها التي لم يكونوا يبحثون عند صناعتها عن التوفير في الوقود، لأنها صنعت - في الأصل - للدولة من أجل القيام بتوفير وسائل الانتقال للناس، وليس من أجل الربح المادي.

ثم قامت المضيفة من مقعدها، وقدمت الضيافة المعتادة، وهي نصف فنجان كبير، أو سلطانية صغيرة من اللدائن فيه ماء معدني، لم أشربه لأنه مليء بالغازات الفوارة، ثم عادت إلى مقعدها تقرأ في كتابها، حتى بدون أن تنتظر من أبطأوا في شرب الماء، وإعطائها الكأس فارغاً.

وقد قدمت المضيفة ذلك الماء الذي يساوي نصف الكأس المعتاد، وهي عابسة، ولو كانت في وضع طبيعي كأن لا تبتسم فقط لما احتاج الأمر إلى تنويه، ولكن جبينها كان مقطباً، وكأنما هي غضبى من الركاب، ولا أدري سبب ذلك.

إن ذكر مثل هذه الأشياء التافهة يدل على حالة أداء الموظفين لأعمالهم في هذه البلاد الفظة الغليظة روسيا، وسوء التربية الشيوعية.

وأما ركاب الطائرة فإنهم كلهم من البيض، فيهم من هو في اللون الأوروبي المعتاد كالروس، وفيهم من هو بلون الأتراك، أو أكثر بياضاً وهم التتار.

هذا وقد استمر الطيران الرتيب، وصحا الجو، فكان المنظر أسفل الطائرة منظر الحقول الخضر، مع قطع من الأراضي معفاة من الزراعة، لتكتسب الخصب من الشمس والهواء للزراعة في السنة القادمة.

كما أن بعض القطع متخلفة عن حقول من القمح الحصيد، صفراء اللون، تبدو من الطائرة كأنما هي خالية من الزراعة، ولم أرَ من الطائرة منطقة خالية من الزراعة أو العمارة. أما القرى فإنها ليست واضحة، لكونها ليست ناصعة الطلاء، ومن الطريف أنني سألت المضيفة وهي جالسة، لأنني كنت في مؤخرة الطائرة، عن المسافة بين قازان وأرونبورغ، لأن إعلانها كان مختصراً بالروسية وحدها، ولم يكن معنا من يعرفها، ويعرف العربية، أو الإنكليزية، فظنت المضيفة أنني أسال عن الحمام، فأشارت وهي جالسة إليه، مع أنني كلمتها بالإنكليزية، ولكن يظهر أنها مثل كثير من المضيفات اللاتي يعمل في الخطوط الداخلية لا تعرف الإنكليزية، مع أن منظرها لا يوحي بذلك، فهي روسية شقراء الشعر.

وقد ذكرتني إشارتها إلى الحمام بدخوله، فدخلته فوجدته في غاية الضيق، ولكن في صنبوره ماء، وجميع ما فيه من المعدن حتى المرحاض.

في مطار أورنبورغ:

في الساعة الثالثة بدأتت الطائرة التدني فوق المناطق المعمورة المعتادة في تتارستان، وفي الطريق كله، ورأينا خطاً إسفلتياً يشق بعض القرى، والخط الإسفلتي ليس ظاهرة عامة في بلاد روسيا النائية.

ثم قاربنا الوصول إلى سماء المدينة، فبدا نهر قريب منها، وتبين بعد ذلك أنه النهر الذي يمر بقريها واسمه (ساكمارا) وسيأتي ذكره عند زيارة قرية (قارغالي) التي يعني اسمها قرية الغربان، والتقطنا صورته.

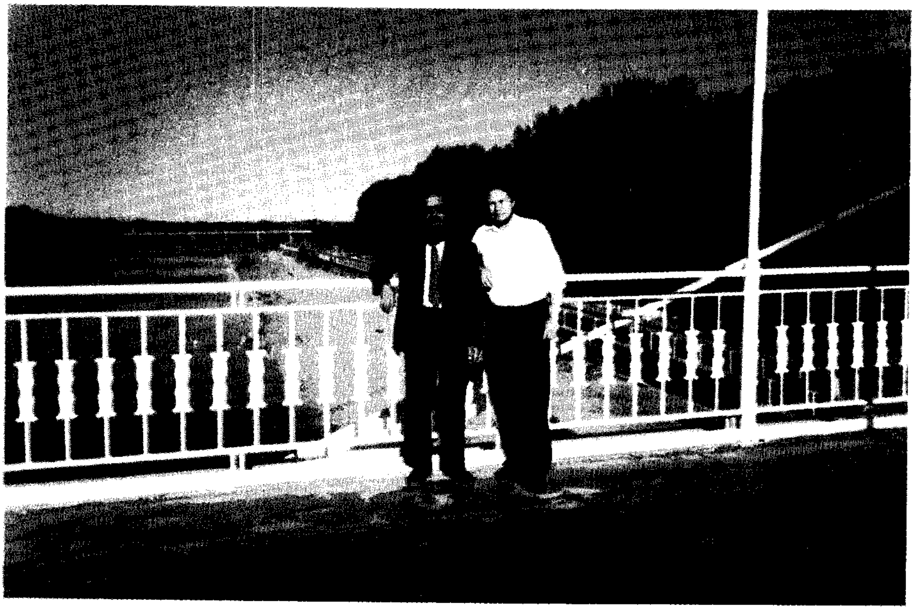

مع مفتي أورنبورغ الشيخ عبد الباري خير الله على الجسر التذكاري فوق نهر أورال في مدينة أورنبورغ

أما النهر الذي عليه مدينة (أورنبورغ) بل إنها سميت بسببه كما سيأتي، فهو نهر (أورال)، وبدت في ريف المدينة منازل متفرقة كالمنتجعات الريفية التي يسمح القانون في هذه البلاد للشخص أن يملك واحداً منها، ومعه أرض صغيرة ربما لا تزيد في بعض الأحيان على ألف متر مربع،

يكون المنزل وهو صغير غالباً ما يتألف من غرفة واحدة كبيرة ومنافعها، أو من غرفتين، وفي أكثر الأحيان يكون طابقاً واحداً، وقد يجعلونه من طابقين، ويزرع صاحب الأرض المحيطة به بطاطس، فيخزن ما يحصل عليه من ثمارها لفصل الشتاء.

ورأيت حقول القمح الحصيد كثيرة فيما حول المدينة، وتبين بعد ذلك أن زراعة القمح كثيرة في المنطقة، وبعض القمح الحصيد يكون مكدساً أكداساً عديدة كبيرة، لم يدوسوه أو ينقلوه بعد.

وأرض المدينة طينية دهماء، وهي الحمراء الداكنة، أو ما صارت تسمى الآن (بنية)، وقد دلني على كونها طينية أن مجاري مياه المطر القادمة من المرتفعات على قلتها قد حفرت مجاريها حفراً عميقاً، حتى صار بعضها كأنه الأخاديد، وليست فيها جبال، ولا تلال مرتفعة.

ولاحظت وجود مطاين قبل المطار، والمطاين جمع مطينة، وهي الحفرة في الأرض التي تنجم عن أخذ الطين منها للبناء أو نحو ذلك.

وعند النزول لم تتحرك المضيفة من مقعدها التي كانت جلست تقرأ فيه.

وهبطت الطائرة في الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد طيران استمر ساعة ونصفاً.

وأما المطار فإنه لا بأس بسعته، وفيه طائرات كثيرة على العادة في المطارات الروسية.

وجدنا في استقبالنا في المطار مفتي إقليم أرونبورغ الشيخ عبد الباري خير الله، وعليه فوق ملابسه عباءة عربية، وعلى رأسه العمامة المدارة حول قلنسوة غليظة، وهذا الزي هو الذي يخطب به يوم الجمعة.

وقد وقف المفتي عند سلم الطائرة ومعه خمسة من العاملين في إدارة الإفتاء، فأنزلوا أمتعتنا بأنفسهم، وحملوها إلى سيارتين قد أعدوهما من قبل.

وكان مفتي تتارستان الشيخ عبد الله صفا قد هاتف الشيخ عبد الباري، وأخبره بموعد قدومنا.

وأول ما أخبرنا به المفتي بعد الترحيب الحار بالعربية، أن توقيتهم يتقدم على توقيت قازان وموسكو الآن بساعتين اثنتين، أي أن الساعة الخامسة في قازان هي السابعة في أرونبورغ، ويعني هذا أن توقيت أورنبورغ يتقدم ثلاث ساعات على توقيت المملكة.

مدينة أورنبورغ:

انطلقنا من المطار إلى المدينة، وقال المفتي: هذه المنطقة صحراء ليست فيها جبال، فقلت: هذا هو ما لاحظته، إلا أنه يريد بالصحراء ما يريده العرب الفصحاء وهي الأرض المستوية الخالية من الجبال، والأماكن المنخفضة ومن الأشجار الكبيرة، وهذه هي صفة هذه البلاد، إلا أن فيها صفة أخرى لم يلاحظها المفتي لاعتياده عليها، وهي أنها أرض معشبة، بل إن العشب البري فيها كثيف، بخلاف صحرائنا العربية، مما جعلني أتساءل عما إذا كانت جزءاً من الأرض الواسعة المشهورة (بدشت قفجاق)، والدشت بالتركية التي أخذتها من الفارسية معناها: الصحراء، ويراد بها البرية أو المفازة، وهي في الفصحى السهوب الواسعة.

وهذه الصحراء أهم حدودها أنها تقع في الشرق من بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين، وإلى الشمال من بحيرة خوارزم التي تعرف الآن

ببحيرة أرال، وهي التي تنتهي إليها مياه النهرين العظيمين المسميين بنهري جيحون وسيحون، وهما ينحدران من جبال الهملايا، ثم يمران بإقليم خوارزم، وينتهيان في هذه البحيرة، بعد أن تكون البلاد الصحراوية الجافة التي مرا بها قد استنفذت مقادير من مياههما العذبة.

أما من جهة الشمال فإن حدودها ليست واضحة في ذهني، ولكنها صارت تسمى الآن (دشت قازاق) بعد أن فني أربابها من القفجاق الذين هم من الأقوام التركية القديمة، وحل محلهم في سكانها أقوام آخرون من ذوي الأصول التركية هم القازاق.

وتقع الآن أو يقع معظمها في جمهورية (قازاقستان) التي يحدها من الأراضي الروسية من هذه الناحية من أقليم أورنبورغ هذا، فمدينة أورونبورغ تبعد ٥٠ كيلو متراً عن حدود جمهورية قازقستان.

وظني أن حدودها من جهة الشمال هي حدود القارة الآسيوية مع أوروبا، وهي تمر بوسط مدينة اورونبورغ نفسها، ويرى المفتي أن هذه الأراضي بالفعل هي من (دشت قازاق).

وقد سرنا مع طريق واسع جيد، إلا أنه غير مفصول بين السيارات المتقابلة فيه إلا بخط أبيض، ولاحظت كثرة السيارات فيه، فذكر المفتي أنها ذاهبة إلى مدينة أورسك التي تبعد بـ ٣٥٠ كيلو متراً من أورونبورغ وغيرها، ومدينة (أورسك) واقعة في إقليم أورنبورغ الذي عاصمته مدينة أورونبورغ.

ويبعد المطار عن المدينة ٢٧ كيلو متراً، فسألت المفتي عن سبب بعده عن المدينة مع أنه لا توجد موانع من الجبال وغيرها تمنع من ذلك، فقال: أنهم أبعدوه من أجل أصوات الطائرات التي تزعج السكان.

وصلنا المدينة، مع شارع واسع عليه الأبنية الحكومية المعتادة التي أسميتها (العمائر الشيوعية)، لأنها موجودة في المدن الشيوعية في أوروبا وآسيا، وهي أبنية ضخمة متعددة الطوابق، تتألف من شقق سكنية تبيعها الدولة بأقساط مريحة، أو تؤجرها للناس بأجور رخيصة.

وهي تؤلف كل المنازل على يمين هذا الشارع ويساره، وتؤلف منظراً جميلاً فيه هو أجمل الأقسام الحديثة في المدينة.

ونوهوا بأنه في أوروبا، لأن نهر أورال الذي يفصل بين القارتين الأوروبية والآسيوية يمر بوسط المدينة.

وقد نوه المفتي بأن (يوري قاقارن) أول فضائي سوفيتي، بل أول إنسان دار في الفضاء الخارجي حول الأرض قد درس في معهد للطيران في هذه المدينة.

ولا يوجد في هذا الشارع، كما يوجد أيضاً في الشوارع الجديدة التي أنشئت منذ أن سادت الشيوعية في البلاد، أي منزل منفرد، لأن الأفراد لا يستطيعون بناء المساكن المنفردة في المدن، وإنما يستطيع الفلاح أن يبني على أرضه التي خصصتها الدولة له مسكناً.

وفي هذا الحي الجديد كنيسة لامعة الطلاء، ملونة باللونين الأخضر والأبيض، لأن طلاء البيوت معظمه أبيض.

قال المفتي الشيخ عبد الباري وكرر قوله بعد ذلك وهو يرحب بنا: أنتم أول وفد إسلامي يصل إلينا في هذا الأقليم.

وذكر أننا نقصد الآن الجامع المركزي حيث تقع الإدارة الدينية، ومررنا بمبنى متميز بألوانه وطريقة بنائه، فهو كالبرميل في مبنى جميل، سألت المفتي عنه فقال: إنه خزان ماء بني قبل قيام الشيوعية، ولا يذكرون

الشيوعية في التعبير عن ذلك، وإنما يقولون: إنه من عهد ما قبل الثورة، فهم اعتادوا على أن يعبروا عن قيام الشيوعية بالثورة، وهي بلا شك ثورة عارمة، ولكنها ثورة شيوعية، جاءت لإنصاف طائفة من الناس كما ذكروا، فظلمت طوائف أكثر منهم.

الإدارة الدينية:

عند باب الجامع المركزي في مدينة أورونبورغ مع المفتي الشيخ عبد الباري خير الله

أقبلنا على جامع شامخ المنار، عالي الشعار، ذا فناء واسع، تظلله الأشجار الباسقة، ومنها أشجار تفاح قد ملأت ثمارها الساقطة أرض الفناء، وهو صغير كأنه التفاح البلدي الأخضر الذي نعرفه في القصيم والطائف، إلا أن لونه أبيض قليلاً، وأحياناً يكون مخلوطاً بحمرة، وأخبرني الإخوة أنه لا يؤكل لكونه لا يصلح، وقد ذقته بعد ذلك فوجدت

أن السليمة منه طعمها مثل طعم التفاح البلدي عندنا، إلا أن السليمة من ثماره قليلة.

بادرت الأخ المفتي، ورئيس الإدارة الدينية يسمى المفتي اختصاراً واصطلاحاً بالسؤال عن هذا المسجد وهل سلم من الشيوعيين الذين صادروا المساجد، واستولوا على أكثرها، وبعضها خربوه؟ فذكر أن الشيوعيين صادروه، ولكن المسلمين استعادوه بعد الحرب العالمية الثانية.

ويسمونه الجامع المركزي.

على مائدة مفتي أورنبورغ الشيخ عبد الباري خير الله في مقر الإدارة الدينية

أوقفنا السيارات داخل فناء الجامع الواسع الذي وجدنا فيه سيارات أخرى واقفة، وتقدمنا المفتي إلى غرفة في الإدارة الموجودة في مبنى ذي غرف متعددة بجانب الجامع، تفصل بينهما مساحة ضيقة من الأمتار، وهذا المبنى هو واحد من مبانٍ عدة تابعة للمسجد، ولكونه للمسلمين، ومنها مدرسة سيأتي الكلام عليها ملاصقة لأرض المسجد، أسموها المدرسة

الحسينية، ويسمى بالمسجد المركزي، وكان يسمى (مسجد صابري) عندما كانت المساجد عديدة في المدينة قبل الحكم الشيوعي.

وجدنا المائدة منصوبة في غرفة من ذلك المبنى، وعليها مقدمات المائدة والفاكهة، وكان أول ماسكبه لنا عصيراً من عصير الفراولة الذي قيل إن هذه البلاد الباردة تنتجه في الدفء، وعجبت من وجوده هنا، مع أنه يعتبر من نبات البلاد المعتدلة والحارة، فقد رأيته جيداً مزدهراً في نيامي عاصمة جمهورية النيجر، وقد ذكرت ذلك في كتاب: ((**أيام في النيجر**))، وسألته أولاً عن اسم الإدارة، فأراني إياه مكتوباً: ((**الإدارة الدينية لمقاطعة أورونبورغ**)) ، ومن الشيء الذي لم أكن أود أنه حصل لي، أنني أخذت أسأل المفتي أسئلة عن حاله بطريقة تدل على أنني لا أعرفه، وأنا بالفعل لا أذكر أنني رأيته من قبل، فأراني صورة تجمعني به عندما زرت الاتحاد السوفيتي لأول مرة في عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، وقال: إنني أحتفظ بهذه الصورة منذ ذلك التاريخ الذي رأيتك فيه في أوفا، وأنا أعرفك، ونظراً لأن ذاكرتي غير ضعيفة - بحمد الله -، وإذا عرفت شخصاً لم أنسه إلاّ في النادر، فإنني عرفت السبب في عدم معرفته، وهو أنني عنما زرت مدينة أوفا عاصمة جمهورية بشقر دزستان المجاورة لمقاطعتهم هذه، جمع مدير الإدارة الدينية آنذاك الشيخ طلعت تاج الدين جميع أئمة المساجد الذين يتبعون إدارته، حتى الذين في سيبيريا منهم، وعقد لنا معهم اجتماعاً جماعياً ضم عشرات الأشخاص، ولذلك لم تعلق بذهني أسماؤهم لكثرتهم مع اختلاطهم بغيرهم.

بعد أن استقر بنا المجلس، ألقيت في الحاضرين، وهم ستة مع المفتي، كلمة عن الغرض من مجيئنا، وأنه لمهمة الاجتماع بالمسؤولين عن

العمل الإسلامي، وعلى رأسهم فضيلة المفتي وأنتم أيها العاملون في الإدارة الدينية، وأن ذلك من أجل تقوية التعاون ما بين رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة وبين الإدارة الدينية في هذه الأقاليم.

وقلت: إنه لاشك في أن أولى درجات التعاون التعارف؛ إذْ كيف يتعاون المسلم مع أخيه المسلم الذي نص الأمر الكريم على التعاون معه في قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ إذا لم يكن هناك تعارف بينه وبين إخوانه المسلمين، ولذلك أيضاً ورد في الحديث فضل زيارة المسلم لأخيه المسلم.

ثم قلت: إن مدينة (أورنبورغ) لها في نفسي منزلة خاصة، فقد اطلعت على مطبوعات بالعربية صادرة عنها، كما قرأت لكثير من علمائها، واستفدت من عالم طبع كتابه بالعربية فيها قبل قيام الشيوعية، وهو الشيخ محمود الرمزي من أهل قازان، وكتابه: «**تلفيق الأخبار، في أخبار البلغار والتتار**» الذي طبع في مجلدين في مدينة أورنبورغ عام ١٩٠٥م، وهو أجمع كتاب استفدت منه في تاريخ هذه المنطقة التي يصح أن تسمى المنطقة البلغارية، نسبة إلى أهلها البلغار المسلمين الذين اتخذوا الإسلام ديناً طواعية واختياراً على عهد خلافة المقتدر بالله العباسي في أول القرن الرابع الهجري، وأرسل ملكهم بعد إسلامه رسولاً إلى الخليفة يطلب منه أن يوفد إليه وفداً فيهم من يعلمهم أمور دينهم الإسلامي الجديد، ويكون فيه من يستطيع أن يبني للملك قصراً يتحصن به من أعدائه، وكانت منازلهم في ذلك الوقت تقام من الخشب.

وقد لبى الخليفة المقتدر طلبه، وأرسل إليه وفداً كان فيه لحسن الحظ الكاتب ابن فضلان الذي سجل الأشياء المهمة التي حدثت للوفد، أو

لاحظها في رحلته، وعرف ما كتبه بعد ذلك برسالة ابن فضلان، وكان للعلامة ذي الفضل العظيم على الثقافة العربية ياقوت الرومي فضل التعريف بأهمية رسالة ابن فضلان بما نقله عنها، واقتطفه منها في كتابه ((**معجم البلدان**)). ثم عرفت الرحلة بعد ذلك، وطبعت ناقصة في دمشق.

رد فضيلة المفتي على كلمتي بقوله: لقد خرّجت الإدارة الدينية من المدرسة الحسينية التي تديرها، وهي ملحقة بالمسجد، ٢٥ إماماً التحقوا بمساجد القرى التي أقيمت، أو استعيدت من الحكومة بعد سقوط الشيوعية، ولم يكن لها أئمة من قبل، وبعضهم عيّناه مديراً في المدارس الإسلامية الملحقة بالمساجد.

ثم تكلم بكلمة شكر ومجاملة على قدومنا إلى هذه البلاد، وتجشم مشاق السفر - كما قال - حتى وصلنا إلى هذا الأقليم النائي الذي لم يصل إليه وفد من مؤسسة إسلامية قبلكم.

وأظنه يقصد بذلك الوفد الرسمي، وإلا فإنني أعتقد أنه لابد أن بعض العاملين في المؤسسات الإسلامية في موسكو قد زاره مندوب أو مندوبون منهم، أما المفتي فإنه يقول: إنه لا يعلم أن وفداً زارهم قبلنا.

ثم قدم الطعام، ولم ينقطع الكلام، فكان مفيداً لنا لأن كله أو أكثره يعتبر جديداً علينا، والمراد به الكلام على أوضاع المسلمين في هذا الإقليم الذي سمعت بعض المتكلمين بالعربية يسميه أحياناً ولاية، وأحياناً يسمونه مقاطعة، وقد أسميته إقليماً، لأن جمهورية روسيا الاتحادية لا تتألف من ولايات متساوية، كما هي عليه الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، والهند، أو من مقاطعات كما في الصين، وإنما تتألف من جمهوريات محلية متمتعة بالحكم الذاتي داخل جمهورية روسيا الاتحادية،

كما يعبرون عن ذلك. ومن أقاليم كما اخترت التسمية.

كان أول الطعام الحار الحساء التقليدي في بلاد المسلمين الشمالية الباردة ابتداء من تركستان الشرقية وبلاد ما وراء النهر، حتى نهاية العالم الإسلامي من جهة الشمال، ممثلاً في جمهورية تتارستان، والحساء المذكور هو (شربة) حارة بالشعيرية واللحم الدسم، وأحياناً يكون فيها الدسم، أما اللحم الذي طبخت به فيقدم في طبق آخر، ثم أتى بعده الأرز البخاري معه لحم الغنم اللذيذ.

هذا إلى جانب نوعين من الخبز والعسل والحلوى والسلطة من الخيار والطماطم.

وخبزهم هذا حديث الوجود في هذه البلاد الروسية، فقد كان الخبز عند ما زرت روسيا قبل هذه الزيارة غليظاً صليباً تشبه الخبزة منه لبنة الآجر الأحمر حجماً وشكلاً، وحتى صلابة في رأيْ العين، ويقطعونه فيكون قطعاً خشنة، ولم يكونوا يستعملون الخمائر التي تجعل الخبز منفوشاً منتفخاً، فكانت الخبزة الواحدة تشبع رهطاً من الناس، ولكنهم الآن بدأوا باستعمال الخبز المنفوش، أي الذي يكون وسطه ليناً خفيفاً، وذلك بإضافة خميرة خاصة إلى عجينته، وبذلك صار الشخص يحتاج إلى أكل مقادير أكثر منه، إذا كان يريد أن يشبع، وشكا إلينا بعض من رأيناهم في هذه السفرة من أن الخبز قد غلا سعره، وخف وزنه، وقلّت جدواه.

وهذا الذي يقولون: إنه قليل الجدوى يشبه الخبز الجيد الذي كان يصنع في المطاعم التركية في بلادنا.

فندق المؤسسة:

قاربت الساعة الحادية عشرة حسب توقيت هذه البلاد التي وصلنا إليها، وهي التاسعة حسب توقيت قازان التي غادرناها ظهراً، فذهبنا إلى فندق كبير، ذكروا أنه أكبرالفنادق في المدينة، فلم نجد عنده غرفاً منفردة، وإنما وجدنا أجنحة لا نحتاجها، لأننا لن نظل في الفندق، ولن نستقبل فيه أحداً، وإنما سوف نجول على المساجد والمؤسسات الإسلامية، فأخذنا الإخوة إلى فندق آخر ليس فيه مصعد، ولكنهم تحملوا وزر حمل الحقائب الثقيلة والأمتعة، ووجدوا فيه جناحين وغرفتين، سكنت في الجناح وأجرته لليلة الواحدة تعادل خمسين دولاراً أمريكياً، ونزل الأخوان اللذان معي كل واحد في غرفة معتادة، كل غرفة بـ ٢٥دولاراً، وذكروا أنه ليس فندقاً تجارياً، وإنما تملكه إحدى المؤسسات العامة، ولا شك في أنه واحد من الفنادق التي كانت مخصصة في العهد الشيوعي لكبار المسؤولين في الحزب الشيوعي والحكومة الشيوعية، يسكنون فيها بأجور رمزية، ويتلقون خدمة ممتازة.

وهذا الفندق مجدد، ولكنه تجديد لم يستر عيوبه القديمة، فمثلاً قاعدة المرحاض وضعت في إطار من الحديد، وصب عليها الإسمنت حتى لا تتحرك، ولكن بقي حدها حاداً، فضرب رجلي مرتين وأوجعها، وفيه خزائن كبيرة للملابس، وأخرى لا أدري لأي شيء هي، ربما كانت للتحف وأدوات الشاي، ولكن كانت لها سيئة بالنسبة إليّ، فهي من الخشب، وقد جعلوها فوق المفتاح الكهربائي، فكان على ما يريد أن يفتح الكهرباء أو يغلقها أن يدخل يده خلف الخزانة، وقد تشعث خشب الخزانة الخلفي مما يلي الجدار، فأصاب يدي مرتين أيضاً، و(لدغ المؤمن من جحر الكهرباء مرتين).

وفي غرفة الجلوس من هذا الجناح مقاعد ثقيلة قديمة مجددة، وجهاز ضخم للتلفاز لا يُري إلا البرامج الروسية.

وماء حوض الأيدي وماء حوض الاغتسال كلاهما من أنبوبة واحدة مشتركة، كما هي العادة في الحمامات الروسية، فإذا أردت أن تغسل وجهك أدرتها ناحية حوض الأيدي، أما إذا أردت أن يصب الماء في حوض الاغتسال فإنك تديرها إليه فتصب فيه، وكل هذا قصد منه توفير صنبور واحد من صنابير المياه.

أما غرفة النوم، فإن فيها سريراً عريضاً، قصدوا منه أن يكون مزدوجاً، ولكنه في عرض السرير المنفرد عندنا، لأن السرير المنفرد عندهم ضيق جداً.

والمناشف مستطيلة ليست عريضة، بحيث إذا ضممت اثنتين منها الواحدة إلى الأخرى كانتا في عرض منشفة واحدة مما اعتدنا عليه، وهذا بالنسبة إلى مناشف الأيدي عندنا، وأما مناشف الجسم بعد الاستحمام فإنني لم أرَ أية واحدة منها كالتي عندنا في أي فندق من الفنادق في روسيا، وفي الجناح ثلاجة كبيرة الحجم في حالة طيبة، ولا يهتمون بماء الشرب، على اعتبار أنهم يشربون من ماء الصنبور مع أنه غير صاف، وقد اعتدنا على أن نغليه في إبريق للشاي على الكهرباء عندنا، وندَخله الثلاجة ليبرد، ثم نشربه، نطرد بذلك وسواس تلوث الماء، مع أن المواطنين المقيمين لا يفعلون مثل ذلك، ويقولون إنهم يشربون منه دون غلي، وأنهم لا يحسون بشيء.

ومع ذلك فإن ماءهم لا يكاد يستساغ من كونه فيه كدر، ويحس شاربه في حلقه بأن فيه شيئاً من الطين، ويوضح كدره إذا سكب في فنجان الشاي لأنه لا يكون صافياً، وهذا باستثناء الماء في فندق

(كوزموس) في موسكو الذي سكنا فيه هذه المرة والمرة التي قبلها قبل أقل من سنة ، فإنه صاف رقراق، والشاي منه يكون نقياً.

يوم الأربعاء ١٤/٢/١٤١٦هـ ١٢/٧/١٩٩٥م.

وقفة على ضفة آسيا:

الجسر التذكاري على نهر أورال الذي يفصل بين أوروبا وآسيا في مدينة أورنبورغ

أشرت فيما سبق إلى أن نهر (أورال) الذي يفصل بين قارتي آسيا وأوروبا، يجري وسط مدينة (أورونبورغ)، وهو على هذا يقسمها إلى نصفين: نصف آسيوي، ونصف أوربي، فضفته الشمالية أوروبية، وضفته الجنوبية آسيوية، وإن لم يكن اتجاهه إلى الشمال والجنوب مضبوطاً، فقد يميل أحياناً، إلاّ أنهم أقاموا عليه - أي النهر - جسراً تذكاراً للمشاة، ممنوعاً على السيارات لكونه ينتهي بدرج صعب المرتقى على الضفة الأوروبية، فإذا توسط المرء هذا الجسر أصبح في نقطة، هي وسط مابين أوروبا وآسيا، وربما إذا كان في وسطها بالضبط كان نصف جسمه في قارة

آسيا ونصف جسمه في قارة أوروبا.

كان الشيخ المفتي قد ضرب لنا موعداً للتحرك في الساعة الثامنة بتوقيت هذه البلاد، وهي لنا السادسة بالنسبة للأيام التي قضيناها قبل ذلك في موسكو وقازان وجمهوريتي جوفاش و(ماري إل)، ولذلك كانت مبكرة، إلا إن حرصنا على اغتنام الوقت جعلنا ننطلق في هذا الصباح المبكر.

ومن اللافت للنظر أن جزء المدينة الذي يقع في قارة أوروبا هو أحسن وأعلى مستوى من جزئها الآسيوي، وقال الإخوة: ربما كان ذلك أمراً مقصوداً من الروس لكونهم من الأوروبيين، أما أنا فإنني قلت: إن السبب في ذلك أن الجزء الذي في أوروبا جعلوا الجديد منه بعد الشيوعية على هيئة أبنية متعددة الطبقات، منسقة الترتيب، منظمة التخطيط، بخلاف الجزء الآسيوي، والجزء الأوروبي القريب من ضفة النهر، فإنه كان قد بني قديماً، ولذلك صار متقارب المستوى.

وقال المفتي لافتاً أنظارنا إلى شيء آخر: إن مدينة أورنبورغ كما ترون يستطيع المرء أن ينتقل منها إلى أوروبا من أسيا وبالعكس في خطوة واحدة يحددها وسط هذا النهر نهر (أورال)، كذلك يوجد جسر على الحدود ما بين إقليم أورنبورغ وجمهورية تتارستان، يفصل ساعتين عن التوقيت، فتوقيتنا متأخر عن توقيت تتارستان ساعتين.

الشاعر بجانب الفضائي:

هذا الجسر التذكاري هو معترض فوق النهر، يصل الضفتين الآسيوية والأوروبية سيراً على الأقدام، إلا أنه مغلق أمام الدواب والمركبات، لأن فيه درجات ترتفع إلى الضفتين، نظراً للانخفاض الطبيعي

في مجرى النهر على مر السنين.

وقد زينوا ضفتي النهر هاتين بأشجار عديدة من أشجار الظل، وأقاموا في مستوى وسط الجسر في المكان المرتفع نصباً يحمل تمثالاً لرائد من رواد الفضاء الروس اسمه (شيكالوف).

وهذا من الاحتفاء العظيم بهذا الرائد الفضائي الروسي الذي لم يقتصر الاحتفاء به على إقامة تمثال له بحذاء النقطة التي تفصل، أو تصل بين قارتي أوروبا وآسيا من الجسر المقام على ظهر نهر (أورال)، وإنما أطلقوا اسمه على هذه المدينة (أورونبورغ) فجعلوه (شيكالوف) وذلك في زمن التسلط المركزي أثناء الحكم الشيوعي، إلا أن الأهالي احتجوا وأجمعوا على إعادة الاسم الأول للمدينة (أورونبورغ).

تاريخ المدينة:

لمناسبة الحديث عن تغيير اسمها ثم الرجوع عنه، يجدر بنا أن نذكر هنا ما سمعناه من هؤلاء الإخوة من تاريخ المدينة، وهو أن تأسيسها كان في عهد الإمبراطورة أو القيصرة - إن صح التعبير - كاترين الثانية، قيصرة روسيا في عام ١٧٤٣م، وكانت تؤلف في ذلك الوقت حدود روسيا مع بلاد قازاقستان، لأن النهر يؤلف الحدود بين البلدين، والآن أزاح الروس الحدود خمسين كيلو متراً لصالحهم، مع أن ذلك لن يضيق أرض جمهورية قازاقستان المسلمة، لأن مساحتها الآن تزيد قليلاً على مساحة المملكة العربية السعودية، إلا أنها خصبة في أكثرها، وتنتج مقادير عظيمة من الأغذية والأعلاف، وفيها معادن عظيمة واسعة، مع أن تعداد سكانها يبلغ سبعة عشر مليوناً من النفوس، منهم سبعة ملايين من المستوطنين الروس، وسبعة ملايين من القازاق أهل البلاد الأصلاء، وكلهم مسلمون، إلا أن

إسلامهم هو إسلام شكلي، إذ يجهل أكثرهم الآن دينهم، ولا يعملون بفرائضه وواجباته، نظراً للتربية الشيوعية التي حاربت الدين الإسلامي، ونشرت الإلحاد في هذه البلاد مدة تزيد على ٧٣ سنة، وقبلها كان الاستعمار القيصري الروسي استعماراً صليبياً بطبيعته وباتجاه شعبه وحكامه.

ويعيش في قازاقستان أيضا ثلاثة ملايين نسمة من الإخوة المسلمين أهالي بلاد ما وراء النهر، كالأورزبك، والقرغيز، ومن أهل القوقاز كالداغستانيين، والشيشانيين، والأنقوش، ومن الألمان الذين كان طاغية الشيوعية الهالك (جوزيف ستالين) قد نفاهم أو نفى أكثرهم من بلادهم هذه إلى البلاد الشاسعة في سيبريا وقازاقستان بالقهر وقوة السلاح.

وأصل تسمية المدينة من اللغة الألمانية، وذلك لكون الثقافة الألمانية كانت الغالبة على بلاط القيصر الروسي في تلك العهود، ومن مظاهر ذلك تسمية عاصمة القياصرة في روسيا مدينة (لينين قراد) التي كان اسمها (بطرس بورج) قبل أن يغيره الشيوعيون إلى (لينين قراد)، ثم يعيد أهلها إليها الاسم القديم، فيسمونها (سانت بطرس بورج)، فبورج معناها بالألمانية: مدينة، ولذلك عندما غير الشيوعيون اسمها إلى (لينين قراد) استبدلوه بكلمة (قراد) بمعنى مدينة في لغة روسيا، وعدد من لغات الأمة السلافية التي ينتمي إليها الروس.

وهذه المدينة (أورنبورغ) معنى اسمها: مدينة النهر بالألمانية، فبورج مدينة، وأورن نهر.

وقد ترجمها المفتي بأن معناها النهر في المدينة، ولا أرى أن هذه ترجمة فقهية فصيحة.

نزلنا من أقدام تمثال (شيكالوف) الشامخ مع درج حجري صعب، إلى حيث الجسر، ووقفنا هنيهة في وسط الجسر، التقطنا فيها بعض الصور التذكارية، تاركين استكمال الحديث عن ذلك عند زيارة النصب الرسمي الذي يفصل بين القارتين على ضفة النهر، حيث ينحرف مجراه قليلاً.

وعدنا للصعود الشاق، وهذه طبيعتهم في عدم النظر إلى ما يشق على سائر الناس، وعدم أخذ ذلك بعين الاعتبار، فوقفنا بجانب تمثال رائد الفضاء لتمثال لشاعر روسي مشهور هو الشاعر بوشكين، الذي قال بعضهم: إن أصله عربي، لكونه يذكر معاني إسلامية في شعره.

ويقول بعض أهل هذه البلاد: إن أصله ليس عربياً، ولكنه قازاقي مسلم، لذلك وردت هذه المعاني الإسلامية في شعره.

وأياً كان الأمر، فإنه معتبر من كبار الشعراء باللغة الروسية، وله عندهم مقام عظيم، وقد أقاموا له تمثالاً على ضفة هذا النهر أيضاً، مثلوه فيه جالساً وبيده قلم يكتب به على لوح فوق فخذه، أي بدون مكتب يعتمد عليه، وهذه الطريقة القديمة التي كنا نكتب بها قبل أن نعرف في بلادنا هذه المكاتب أو (الطاولات).

إن إقامة تمثال الشاعر بجانب تمثال البطل الفضائي أمر له دلالته، فالقوم لم يكتفوا بالمعارف، أو قل بالأمور الوجدانية الإنسانية التي تمثلها الشاعر، حتى أقاموا لبطل آخر يمثل علماً حديثاً من العلوم التجريبية هو علم الفضاء، واستطاعة الإنسان أن يسبح في الفضاء الخارجي، وإن يكن ذلك مع اتصاله بمركبة الفضاء.

ونحن العرب، أو لنقل إن أكثرنا اعتمدوا على العلوم الإنسانية

والآداب كالشعر والأدب، وأهملوا الجانب البحثي من العلوم، فبقوا على ماهم عليه من حالة صاروا فيها عالة على غيرهم من الأمم الكافرة التي تمنّ عليهم بما تبيعه عليهم من سلاح، أو من معارف تجريبية حديثة.

هذا والهواء جميل، والنهر يتدفق فاصلاً بين القارتين، وإن لم تختلف إحدى ضفتيه عن الأخرى، إلا بما فعله بها الإنسان.

والسير على ضفة النهر ممتع؛ حيث لا حر ولا قر، إلا أنني فكرت في حالته في الشتاء، حيث يتجمد ويبدو أنه قد مات، لأن هذا هو ما يراه الإنسان من ظاهره، أما باطنه فإنه يظل يجري، ولكن تحت الثلج، لاسيما إذا كانت مياهه كثيرة أو عميقة.

وقد تأملت ضفة النهر في هذا الجسر المعتنى به، فرأيتها غير جميلة، قد تناثرت فيها زجاجات خمر فارغة، ومعروف أن الروس من أكثر شعوب العالم معاقرة للخمر الثقيلة، أو قل إنهم من أقل شاربيها ضبطاً لما يشربونه منها.

مررنا في طريقنا إلى دار الإفتاء بشوارع المدينة وميادينها، ورأيت الناس قد جلسوا في الشمس، يريدون أن يخزنوا منها في أجسامهم مؤونة للشتاء؛ حيث لا تطلع عليهم صافية إلا لماماً.

والحافلات كثيرة في الشوارع، ولكنها رثة غير معتنى بها، لا من حيث السمكرة وإصلاح المظهر، ولا من حيث الطلاء.

والشعب من النظرة الأولى شعب مختلط، فيه ثلاثة أجناس، أولها الروس الخلص، والثاني المختلطون الذين ولدوا ما بين التتار والروس، والثالث المسلمون الخلص من أهل البلاد الأصلاء، وهم من التتار الذين هم البلغار، أو أن البلغار منهم ومن القازاق الذين هم جنس تركي قديم

متميز، وهو في المظهر ما بين مظاهر المغول والترك القدماء في البلاد التي تقع شمال بلاد النهر، والملامح التركية الأصيلة ضيق العينين، وبروز الوجنتين، وقرب الوجه من الاستدارة، وهي فيهم أظهر من التتار الذين يشبهون العرب الشماليين، كما يشبهون السلافيين الجنوبيين والأرمن.

وجدنا المائدة في دار الإفتاء منصوبة، فأسرع القوم بإحضار طعام الإفطار؛ حيث وجدنا الطعام المنوع، ومنه لحم من لحم الضأن معه البطاطس، وفاكهة كلها مستوردة، منها تفاح أبيض معتاد، وإن كان صغير الحجم، مستورد من روسيا البيضاء، ومشمش من طشقند، وخوخ من بخارى، وأما تفاحهم وهو البلدي الصغير، فإنهم لا يأتون به لعدم صلاحيته للأكل كما سبق ذكره.

والطعام هنا مهم، ويحرص رؤساء الإدارات الدينية في روسيا والاتحاد السوفيتي السابق على تهيئته لضيوفهم، وذلك لكون البلاد شيوعية ملحدة في السابق من الناحية الرسمية، لذلك لا يكون الذبح فيها شرعياً، وإنما يخنقون الذبيحة في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى لو جرى الذبح على الطريقة الإسلامية، فإنه لا يكون حلالاً، لأن الذابح شيوعي ملحد يعلن إلحاده، فلا يجوز الأكل من ذبيحته إذا كان كذلك، حتى ولو كان أبواه مسلمين، كما هو ظاهر لطالب العلم.

ومعنا بعض الأطعمة الناشفة الخفيفة، وأدوات صنع الشاي، غير أن إخواننا المفتين لا يتركوننا نتناول شيئاً في الفندق لهذا السبب.

المدرسة الحسينية:

تقع هذه المدرسة غرب المسجد الجامع، منفصلة عنه بأرض فضاء

ملك للجامع أيضاً، أجروها (قراشاً) للسيارات، من أجل الانتفاع بأجرتها في نفقات المسجد المتكررة.

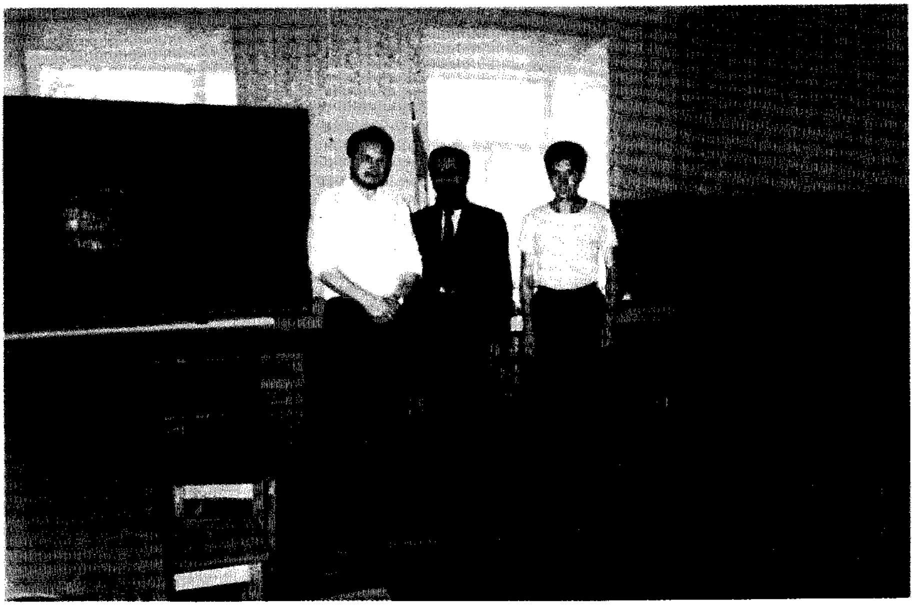

في المدرسة الحسينية بمدينة أورنبورغ بين المفتي الشيخ عبد الباري خير الله وأحد الطلبة

وقد كانت السلطات الشيوعية صادرتها من قبل، وجعلتها مركزاً للشرطة، فاستعادوها منها في عام ١٩٩٣م.

وأسموها المدرسة الحسينية على اسم مدرسة قديمة عندهم كانت تسمى بالمدرسة الحسينية، تخرج منها عدد من العلماء والطلاب، ودرس بها فطاحلة العلماء من أهل البلاد، ولم يستطيعوا استعادتها حتى الآن، ولذلك أسموا هذه المدرسة باسمها، من أجل أن يعطوا الطلاب المتخرجين شهادات التخرج بهذا الاسم، أملاً في أن يستعيدوا المدرسة الحسينية المذكورة، فتستأنف الدراسة الدينية بها. وسوف يأتي الكلام على المدرسة الحسينية الأصيلة عندما نزورها فيما بعد بإذن الله.

ويسكن بعض الطلبة الدارسين في غرف في المدرسة، ولكن عددهم

قليل في الوقت الحاضر، لقلة الإمكانات المالية، بسبب الحالة الاقتصادية السيئة للبلاد التي قللت من دخول المواطنين، ومنهم المسلمون، حتى صار الرجل لايكاد يستطيع توفير العيش الضروري له ولأسرته، ولا يستطيع أن يتبرع للمؤسسات الإسلامية.

وقد اطلعنا على مساكن الطلبة، إلا أن الطلبة أنفسهم لم يكونوا موجودين بسبب العطلة الدراسية، وقد صادف وجود أحدهم، واسمه (نائل بن يرنات).

وقد ذكر المفتي والطالب يسمع، ويستطيع أن يفهم شيئاً من العربية تعلمه في هذه المدرسة، إن هذا الطالب قدم من مسافة تبعد عن (أوروبنورغ) ألف كيلو من أجل الدراسة في هذه المدرسة.

وذكر أن عدد طلابها يبلغ (٣٥) طالباً في الوقت الحاضر، وأن ما يمنعهم من قبول طلاب زيادة على ذلك هو قصور النفقة.

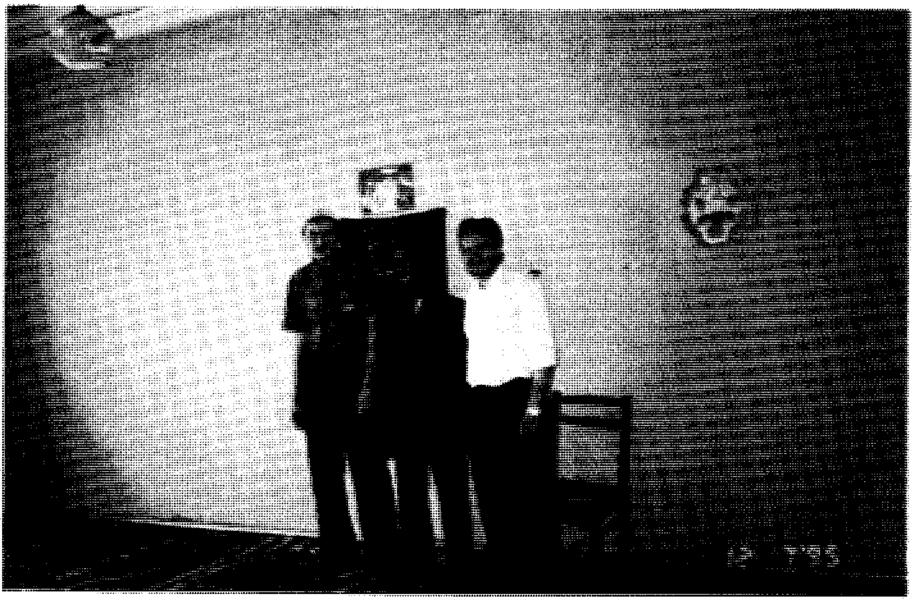

المؤلف في محراب المصلى المؤقت في مسجد الحسينية على يساره المفتي، وعلى يمينه إمام المسجد

وقلت لهم: إنه ينبغي لكم في هذه الرحلة أن تفكروا في إيجاد مدارس إسلامية مدنية تعلم صلب المنهج الحكومي، مستبعداً منه الموضوعات التي لا تهم الطالب المسلم، ومضافاً إليه برامج إسلامية وعربية، فهذا يجعل الناس يقبلون على الدراسة فيها، لأنها تضمن لأولادهم أن يواصلوا دراستهم في مراحل الدراسة التي أعلى منها حتى في مدارس الحكومة، مما يمكن أبناء المسلمين من الحصول على الشهادات العليا اللازمة لشغل الوظائف المهمة في الدولة.

ويمكن أن تعطيكم الدولة إعانات لكونكم تعلمون طائفة من أبناء الشعب الذي يجب أن تعلمه الدولة.

فقال: هذا ما فعلناه، وقد بدأنا بالفعل بإنشاء مدرسة إسلامية قومية للمرحلة الابتدائية، فيها منهج اسلامي إلى جانب المواد المهمة من المنهج الحكومي، وتعترف الدولة بشهاداتها، ويدرس الطلاب فيها مبادئ اللغة العربية، والأمور الأساسية في الدين الإسلامي، وقد بلغ عدد الطلبة فيها (١٢٠) طالباً.

قال: وأما هذه المدرسة الحسينية، فإن الدراسة فيها تقتصر على العلوم الإسلامية واللغة العربية، ويتفرغ الدارسون فيها لذلك، ويلتحق من يتخرجون منها بالمدارس الإسلامية، أو بإمامة المصلين في المساجد.

وأخبرونا أن نفقات الدراسة في المدرسة هي من المسجد، وأن نفقات المسجد هي من تبرعات المسلمين الذين يتبرعون بما يتيسر في المناسبات وبعد صلاة الجمعة، وإن كانت التبرعات قد تقلصت الآن، حتى صارت لا تفي بالحاجة.

هذا وغرف المدرسة جيدة، وتأثيثها من حيث المقاعد والسبورات جيد

أيضاً.

داخل المسجد المركزي:

لم أدخل المسجد أول ما وصلنا إلى الإدارة، وإنما تكلمت على مظهره الخارجي، وقد وجدته كبيراً جداً، مستطيل الشكل، مفروشاً بسجاد ثمين، والشيء الظاهر فيه كثرة أنابيب المياه الحارة والبخار للتدفئة، ففيه أكثر من عشرين وحدة منه، لا يكاد يفصل بين الواحدة والأخرى إلا حوالي متر أو مترين، مما يعطي الانطباع بأن هذه البلاد تشهد شتاء شديد البرد، وهذا صحيح، لكونها بعيدة عن تأثير البحار التي قد تلطف من حدة البرد، ومناخها أشبه بالقاري، لكونها جزءاً من طرف (دشت قفجاق) الذي تقدم ذكره.

أخبرونا أنهم ينفقون نفقة كبيرة على التدفئة مع كونها حكومية، أدخلتها الحكومة لمنازل ومحلات المدينة كلها، مثلما تدخل الحكومة عندنا أنابيب المياه إلى المنازل.

ومحراب المسجد معتاد، كتبوا فوقه بالعربية: (**الله أكبر جل جلاله، محمد عبده ورسوله**)، فقلت للأخ المفتي: إن هذه العبارة جيدة جداً، وبعيدة عن الغلو أو منافاة الشرع، خلاف ما رأينا بعض الجهلة من المسلمين الذين لا يحسنون العربية، يكتبون على محاريب المساجد أو أبوابها الداخلية: (يا الله، يا محمد)، وهذا شرك يخرج كاتبه إذا كان يعرف معناه ويعتقد به عن الإسلام، لأن دعاء غير الله لا يجوز، و(يا محمد) دعاء صريح من الناحية اللغوية.

ومنبر المسجد من الخشب غير المزوق، مفروش بفراش من السجاد في

كل أرجائه.

والخشب هو أكثر المواد الصالحة للبناء وجوداً عندهم قبل صنع الإسمنت، لأن بلادهم بلاد غابات وأشجار كبيرة، ولذلك رأيتهم علقوا في واجهة المسجد يمين المنبر ساعة من الخشب المنقوش، جعلوا في أعلاها أشكال منابر - جمع منارة - من الخشب المخروط.

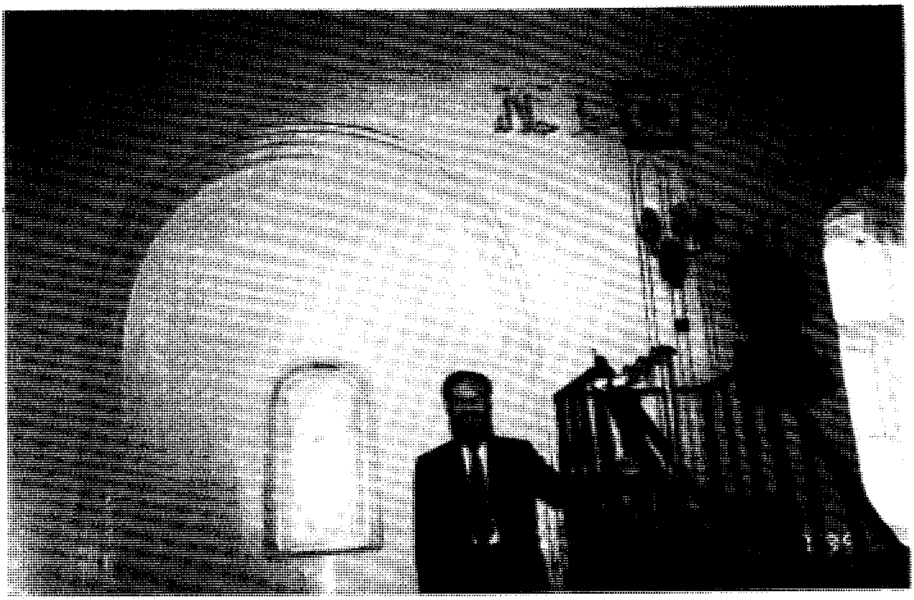

المؤلف في محراب الجامع المركزي في مدينة أورنبورغ

وللمسجد نوافذ عديدة، مع أن الجو بارد في الشتاء، وذلك لكونه يحتاج إلى الهواء البارد في الصيف، مثلما عليه الحال الآن، حيث يجد المرء مشقة من الحر إذا أغلق النوافذ، وعلى نوافذ المسجد ستائر خفيفة، رغم كونه يفتح على فناء للمسجد منفصل، بل بعيد عن الشارع، حيث يغلق الفناء باب حديدي محكم، فلا يمكن الدخول إليه إذا كان مغلقاً.

وعاد المفتي ومن معه، ومنهم الأخ عبد الغفور شاكر رئيس جمعية المسجد إلى الحديث عن نفقات المسجد بأنها من تبرعات المسلمين، وأن المسلمين كانوا يتبرعون كثيراً في زمن الشيوعية، لأن المساجد قليلة، إذ

لم يكن يوجد في هذه المدينة آنذاك إلا مسجد واحد، ومجال الإنفاق محدود، والأسعار محددة لا تزيد، أما الآن فإن الأمر اختلف بسبب أن البلاد تجتاز مرحلة الانتقال من الاقتصاد الشيوعي الموجه من الدولة، إلى اقتصاد السوق الحر، فتدنت دخول الناس، وصارت الأسعار تزيد، بل تقفز في كل وقت.

وذكر على سبيل المثال أنهم يشعلون المدفأة في المسجد لمدة سبعة شهور؛ حيث يكون البرد شديداً في هذه الشهور السبعة من السنة، وهذا يتطلب نفقات مستمرة، فقلت لهم: إن هذا مماثل لما نعمله في الرياض من إشعال مكيفات التبريد سبعة أشهر في السنة، ولكن من ناحية معاكسة، أما الصيف فإنه عندهم ثلاثة شهور، هي: يونيو، ويوليو، وأغسطس، ومن سبتمبر يتغير الطقس، وفي أكتوبر ينزل الثلج، وفي مايو يحل الربيع القصير، إلا إذا اعتبرنا أن الصيف هو ربيعهم، وهذا صحيح.

وذكر المفتي أن عدد الذين يؤدون معهم صلاة الجمعة يبلغ مابين (١٤٠) إلى (١٦٠) مصلياً، وأن المساجد في (أورونبورغ)، وعددها أربعة كلها تقام فيها صلاة الجمعة، وأن عدد المصلين في العيدين يزيد في هذا المسجد على ألفي شخص.

وفي آخر المسجد عن يسار الداخل منه مصلى للنساء، مفصول عن بقية المسجد بحاجز من القماش غير السميك.

مع أن اللائي يصلين في الغالب من المسنات، وأن وجود المرأة سافرة في الشوارع، حتى الشابات المسلمات، يجعل من هذه الستارة أمراً رمزياً لحرمة المسجد.

أين طبع أورونبورغ ؟:

وجدت في المسجد بعض المصاحف وأجزاء القرآن الكريم، كلها بالعربية بالطبع، ما عدا بعض الترجمة، وشيء من الأدعية باللغة التتارية، والذي بالعربية مطبوع في موسكو، فسألت المفتي عن الكتب المطبوعة في (أورونبورغ) ولماذا لم توجد في المسجد ؟ فلم يفهم كلامي لأول وهلة، حتى أخبرته أنني منذ سنوات كنت في زيارة لمدينة (أيركوستك) في سيبيريا، فرأيت في جامعها، وهو المسجد الوحيد الموجود الآن فيها، كتاباً عربياً في الخطب مطبوعاً بالمطبعة الكريمية في مدينة قازان، وهي مطبعة معروفة قبل ذلك، أو في الوقت نفسه في مدينة أورونبورغ أعني المطبعة الكريمية.

فذكر أنه لم ير الكتاب المذكور، وأنه لا توجد مطبوعات عربية مما طبع في هذه المدينة.

فعجبت من ذلك وقلت: إنني رأيت منها عدداً، ولدي في مكتبتي في الرياض الكتاب الذي سبق ذكره وهو « **تلفيق الأخبار** » في مجلدين من مطبوعات مدينة (أرونبورغ)، وإن أولى بدار الإفتاء هنا، وهي الجهة الإسلامية الوحيدة الآن التي تُعنى بالثقافة الإسلامية، أن تحرص على جمع نسخ مما طبع في هذه البلاد من الكتب العربية والتتارية ذات الحروف العربية، وكل ذلك كان قبل الحكم الشيوعي، وصار الجيل الجديد من أبناء المسلمين لا يعرفه، فلعله إذا تهيأت الظروف المناسبة أن يعيد التاريخ نفسه، وأن تعود هذه المدنية (الأورنبورغية) - على اعتبار النسبة إلى الأقليم - إلى ما كانت عليه من كونها مركزاً للثقافة الإسلامية العربية في هذه الأصقاع النائية.

مسجد قصر القوافل:

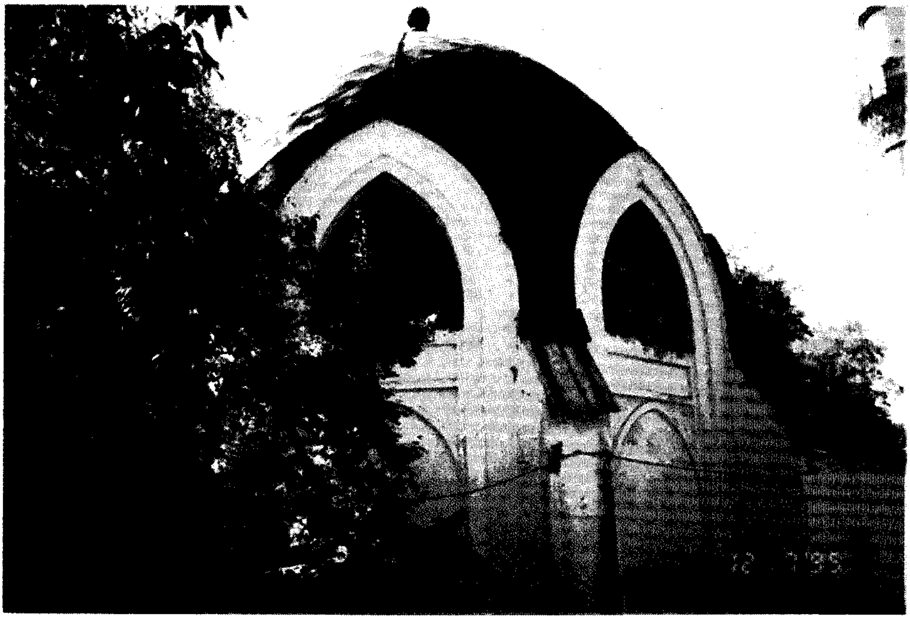

قبة جامع كروان سراي في مدينة أورنبورغ من الخارج

(مسجد كروان سراي) معنى اسمه (مسجد قصر القوافل)، فكروان قافلة، وسراي قصر.

وقد سمي هذا المسجد بذلك لكون مدينة اورونبورغ محطة مهمة للقوافل المسافرة من موسكو وماحولها من شرق أوروبا إلى بلاد ماوراء النهر، وهي آسيا الوسطى.

كانوا يسافرون على الجمال التي أعظمها الجمال ذوات السنامين التي تعيش في البلدان الباردة ذات الطبيعة الصحراوية، مثل تركستان الشرقية، وشمال الصين، وجنوب بلاد المغول، وكانت المنطقة التي حول المسجد هذا خالية من الأبنية، مع أنها تعتبر اليوم من وسط المدينة، فكانت القوافل تأتي فتنيخ إبلها في هذا المكان، وينزل المسافرون في خانات ضخمة كانت تابعة للمسجد، حيث يجدون المأوى لهم، والعلف

لإبلهم.

ذهبنا من الإدارة الدينية لمشاهدة هذا المسجد العريق المهم الذي كان الشيوعيون قد اعتدوا عليه واستملكوه، ثم استعاده المسلمون بعد سقوط الشيوعية، وبدأوا في إصلاحه وترميمه، ولا يزال العمل فيه جارياً.

استقبلنا عند المسجد إمامه الأخ (آمد ميد باي بن ممباي أماروف)، وفسروا لنا اسمه بأن الأول أحمد، وآخره (أمارو) تعني عمر، وهذا موافق لنطق بعض الإخوة الأفارقة في السودان الغربي الذي هو مالي والسنغال وما جاورهما، حيث ينطقون باسم عمر (أمارو).

والأخ الإمام (أمد ميد) نشيط سريع الحركة والكلام، متحمس غاية التحمس لإعادة المسجد إلى ما كان عليه قبل أن يفسده الشيوعيون، ويلقى عناء في جميع التبرعات القليلة من المحسنين لهذا الغرض .

تاريخ المسجد:

ذكر الإمام أنه في (٣٠) أغسطس تكون قد مضت على بناء هذا المسجد مائة وخمسون سنة.

ويقع المصلى وسط فناء واسع من جهتين، وربما كان قد ضيق من الجهتين الأخريين في وقت لاحق لبنائه، على مدخله الشهادتان بخط عربي جميل: (لا إلَهَ إلاّ الله مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله).

دخلنا المسجد فوجدناه تحفة من تحف البناء، يكاد ينفرد بطراز بين المساجد في هذه المنطقة بكونه ليست فيه أعمدة، وإنما تركبه قبة تتدرج سعتها من أسفل إلى أعلى، وفق طراز هندسي يختلف عن الطراز العثماني المألوف لنا في تركيا والبلدان العربية، ولذلك اعتبرته حكومة روسيا الآن

من الآثار التاريخية التي ينبغي المحافظة عليها، وقال لنا الإخوة من أهل البلاد: إن هذا المسجد، ومسجد موسكو التاريخي اعتبرتهما الحكومة من الآثار التاريخية التي يهم البلاد المحافظة عليها، إلا أنها لم تقدم أية مساعدة لتعمير المسجد وترميمه، وإنما تشرف عليه جمعية محلية تجمع له الأموال على قلة ما تجمعه، واعتزامها أن تعيد المسجد إلى ما كان عليه من بهاء وروعة قبل أن يعتدي عليه الشيوعيون.

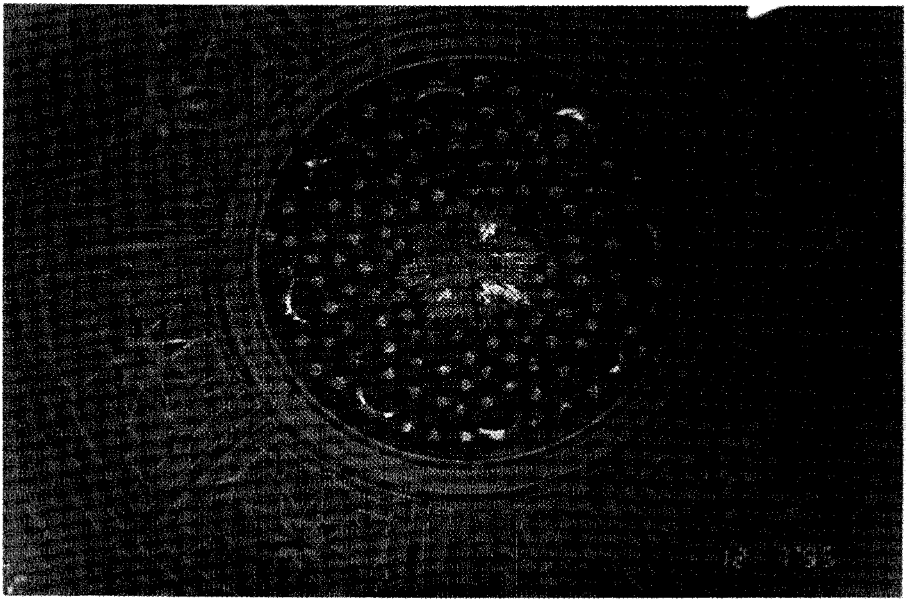

قبة مسجد كروان سراي في أورنبورغ من الداخل

لقد صادره الشيوعيون، واتخذوه مرصداً للنجوم، لأن قبته مناسبة لذلك، وكان فيه عندما صادروه (٧٥) قنديلا من الكريستال الفاخر، وأكثرها يساوي اليوم قيمة عظيمة، لأن مثله قليل الوجود، وقد أخذها الشيوعيون، ولا ندري أين ذهبت، كما أن المسجد محاط من داخله بلوحات بديعة من الآيات القرائنية على حوائطه، وداخل قبته طمس الشيوعيون أكثرها، وما بقي منها أفسدوه بأشياء أخرى، من ذلك أننا رأينا جدرانه قد اسودت بسبب إيقاد النار فيه في الشتاء بالخشب اتقاء

للبرد.

كما أنهم أفسدوا محرابه، إذْ فتحوا فيه باباً للدخول والخروج، وغلقوا الباب الأساسي، لكونهم اتخذوه وما بجانبه من غرف مساكن لهم.

المنارة الشامخة:

منارة مسجد (جامع القوافل) في مدينة أورنبورغ

من انفرادات هذا الجامع الغريب في مبناه ومعناه، أما المبنى فتقدم ذكره، وأما المعنى فإنهم أخبرونا أن خانات المسافرين يخدم فيها المسافرون المحتاجون بدون مقابل، بمثابة الصدقة أو الإحسان، كذا قالوا، مع أنه من المعروف أن المسافرين في القوافل غالباً ما يكونون

ميسورين، أو أغنياء، ويكون بينهم بعض التجار.

قالوا: يأتي المسافر المسلم فيجد المسجد الجامع، ويجد عنده خانات عديدة، والخان هنا هو بمثابة الفندق، أو لنقل: إنه النزل، لأن الخدمات التي تقدم فيه أقل من الخدمات التي تقدم في الفنادق في الوقت الحاضر، هذا مع أن لفظ الفندق لمثل هذه هو عربي قديم، كان مستعملاً في العربية، ولكن غلب اسم الخان على هذا النوع من المساكن التي يستريح فيها المسافرون.

أقول: إن من انفرادات هذا الجامع أن فيه نفقاً تحت الأرض، يمر منه المؤذن من المنارة إلى المصلى بدون أن يتعرض للبرد في أيام الشتاء الباردة.

ومنارة المسجد عالية شامخة، يبلغ ارتفاعها (٤٢) متراً، أي ما يعادل ارتفاع مبنى مؤلف من (١٣) طبقة، قال الأخ الإمام: وفي هذه المنارة (١٣٨) درجة، يقصد به الزلفة من زلفات الدرجة.

والمنارة مبنية من الآجر الأحمر المعقود بإتقان عجيب، مع كونها مستديرة الشكل، وقد صمدت للقرون، ولعبث الشيوعيين، إلا أن درجها كله من الحجارة، وليس من الأجر.

ثم عاد الحديث إلى المسجد حيث زجاج المصلى ملون جميل، ذكروا أنه قديم هكذا، وأنهم جددوا بعضه، كما أن في المسجد منبراً خشبياً جميلاً دمره الشيوعيون، ولم يبق له أثر.

ويؤدون الصلوات الآن، ومنها صلاة الجمعة، في قاعة أشبه بالغرفة الواسعة من القاعات الملحقة بالمسجد، وهي ملاصقة له، وذكر الأخ الإمام أن بعض الطلبة من العرب الذين يدرسون في جامعة المدينة يصلي بعضهم

معهم صلاة الجمعة، وأن عدد الطلبة العرب يبلغ ما بين (٢٠) إلى (٣٠) طالباً.

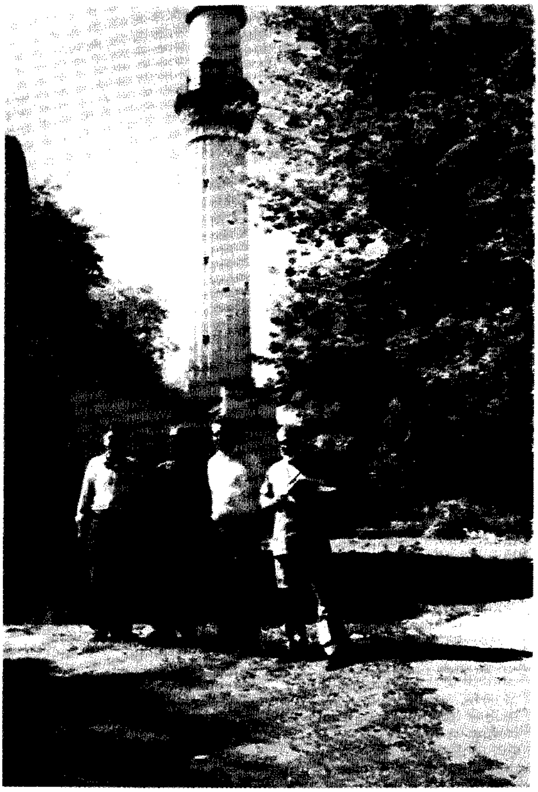

تذكارية عند جامع كروان سراي في مدينة أورنبورغ

وإلى الجنوب من المسجد مبانٍ ضخمة تابعة له، مؤلفة من عدة طبقات، وكانت كلها أوقافاً من أوقاف المسجد، وفيها الخانات التي كان ينزل فيها المسافرون، كما كان منها منازل للائمة والمؤذنين.

وهي مبانٍ واسعةٌ لم يستطيعوا استعادتها حتى الآن، لأن الحكومة تستعملها مقراً لإدارة الجيولوجيا في البلاد، ويزعمون أنهم سوف يخلونها ويسلمونها للمسلمين، لأنها لهم بموجب القانون، ولكنهم - أي المسؤولين الحكوميين – يقولون: إنهم يبحثون عن بديل لها، فإذا وجدوه خرجوا منها وسلموها للمسلمين.

ولا شك أن هذا الأمر جيد من ناحية التسليم بملكيتها القانونية، أو لنقل بتبعيتها القانونية للمسجد، ولكن المسلمين ليسوا مسؤولين عن إيجاد البديل لها، وإنما ذلك من عمل تلك السلطات الحكومية، لاسيما أن المسلمين يملكون الوثائق التي تثبت بأنها وقف من الأوقاف الإسلامية.

ومن الاشياء التي يعملونها هنا، ولم يسمع بها من قبل، أنه إذا صادف العيد في الشتاء صلوا صلاة العيد في كل مسجد من المساجد، لأنهم لا يمكنهم أن يصبروا على برد الشتاء في العراء، أما إذا كان العيد في الصيف، فإنهم يصلون العيد مجتمعين في أحد الأفنية المكشوفة التابعة لأحد المساجد.

وعدنا إلى الحديث عن هذا المسجد الذي لم نرد أن نفارقه قبل أن نسمع كل الحديث عنه، فذكر الإمام وانضم إليه أحد جماعة المسجد إضافة إلى المرافقين من أهل البلاد، ومنهم المفتي، أن الخانات هذه، أو لنقل ما أسموه بقصر القوافل، هو طبقات عديدة، شاهدتها ثلاث طبقات ممتدة متلاصقة، تتسع لمئات الأشخاص في آن واحد.

وقد ذكرني ذلك بما قرأته في رحلة ابن بطوطة عن الإخوة في بعض البلدان الشمالية، وملخصها أن هناك أشخاصاً من أهل البلاد نذروا أنفسهم لخدمة المسلمين المسافرين والقادمين إليهم إقامة مؤقتة، فيستضيفونهم، ويقدمون المنزل لهم، والعلف لدوابهم.

فهذه الخانات - إذا صح ما ذكروه هنا من كونها وقفاً - وأبنيتها وقف بلا شك، ولكن إذا صح أن المسافرين ينزلون فيها بالمجان، فإن ذلك يدل على ماهو معروف لكل متتبع من التضامن والتكافل الاجتماعي بين سكان العالم الإسلامي في العصور الوسيطة، التي يسميها الغربيون بالعصور المظلمة، وهي مظلمة لهم في بلادهم، مضيئة لنا في بلادنا.

وقد خرجنا نتأمل ما حول المسجد، فالتقطت عدة صور له، وأخذنا الإمام إلى داخل المسجد مرة ثانية، وقال بصوت مرتفع: بسم الله الرحمن الرحيم فرددت جنبات المسجد صدى هذا الصوت، ليدلل على أن المسجد قد درس فيه تردد الصوت حتى يسمعه كل من يكونون فيه، مع أن المصلى الداخلي فيه غير واسع.

المدرسة الحسينية:

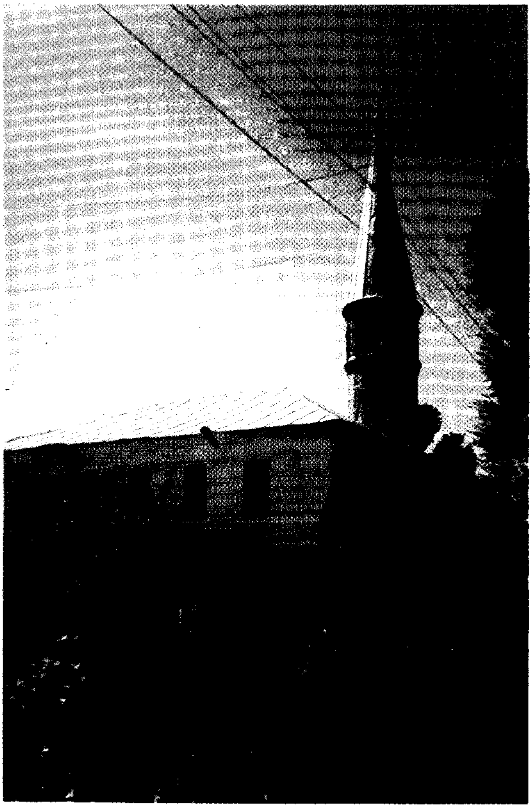

جامع الحسينية في مدينة أورنبورغ

انطلقنا لرؤية المدرسة الحسينية وجامع الحسينية الذي ذكروا أنه يحتاج إلى مساعدة؛ حيث يقوم المسلمون بترميمه بعد أن استعادوه، فمررنا

بميدان رئيسي في المدينة اسمه (ميدان لينين) على عادة الشيوعيين في أن يسموا أحد الميادين المهمة، وغالباً ما يكون أكثرها أهمية، باسم (لينين) الذي أخرج الشيوعية من عالم النظرية إلى عالم الواقع، وإن كانوا يقولون: إنه طبق الاشتراكية على فرض أن يطبق الشيوعية فيما بعد.

وقد أقاموا له تمثالاً في هذا الميدان لايزال قائماً، حتى اسم الميدان لم يغيروه، وإنما أرادوا أن يسموه باسم (ميدان الاستقلال)، ولكنهم عدلوا عن ذلك وتقع عليه محافظة الولاية أي مركز الإدارة لهذا الإقليم إقليم (أورونبورغ).

ومن الجدير بالذكر أن مقر المحافظة كانت فيه كنيسة كبيرة هدمها الشيوعيون، وبنوا مكانها مركز المحافظة.

وقد نوه المفتي والمرافقون، وهم من المعنيين بالأمر، أن الشيوعيين هدموا الكنائس الموجودة في المدينة، ولكنهم لم يهدموا المساجد، وإنما صادروها.

فصعدنا جامع الحسينية مع شوارع في حاشية المدينة سيئة تملأها الحفر والنقر، ويشغل التراب أماكن الأرصفة منها، وأصدق ما يصدق عليها أن تسمى بالشوارع الشيوعية، ولا نقول الروسية، وإن كان ذلك يصدق عليها، لكون معظم الشوارع غير الرئيسية في المدن الروسية لا تقل سوءاً عن الدول المتخلفة في حالة الشوارع.

وقال المفتي، وليس بحاجة إلى أن يقول: إن شوارع مدينتنا سيئة، فالبلدية لا تصلحها.

وقلت له ما لم يكن يظن أنني أعرفه، وهو أنها شنشنة نعرفها من أخزم، وأخزم هو المدن الروسية بلا استثناء، إلا في حالات نادرة، أو في

تفاوت درجة السوء بينها، فقد رأيت من المدن الروسية ما لم يره المفتي، بل لا أظن أن أحداً من أهلها قد رآه، ذلك بأنهم لضعف دخولهم، وقلة خروجهم من المنطقة والبلدة التي يقيمون فيها، لا يعرفون الكثير عن نواحي بلادهم، ألا ما يقرأونه في صحيفة أو يسمعونه في مذياع، وذلك لا يكفي لأنه حكومي موجه، لا يذكر إلا الحسنات كما هو ظاهر.

طفنا بالمدرسة الحسينية التي تقدم ذكرها، فرأيت بناءها واسعاً فخماً، وقال المفتي معلقاً على ذلك: كانت مدرسة عالية، بل كانت جامعة من إحدى ثلاث مدارس عالية في المنطقة، إحداها المدرسة المحمدية في قازان، والثانية المدرسة العالمية في أوفا، والثالثة هذه الحسينية في (أورونبورغ).

صادر الشيوعيون مدرسة الحسينية هذه، وجعلوا فيها حتى الآن كلية الزراعة، وعندما طالب بها المسلمون قررت الحكومة إعادتها إليهم في عام ١٩٩٥م، بحجة أنهم يبحثون عن مقر بديل لكلية الزراعة، وأنهم سيجدونه في هذا العام، غير أنهم حتى تاريخه لم يعلنوا أنهم وجدوه.

وقد تأملت هذا المبنى الإسلامي العظيم، فقدرت أنه لو أجر لكانت أجرته مبلغاً كبيراً يفيد في دفع مصاريف المشروعات الإسلامية في البلاد، وليس المقصود من ذلك تحبيذ أن تستعاد وتؤجر، ولكن المقصود هو تصور ما أضاعه الذين استولوا عليها على المسلمين من فوائد مالية، إضافة إلى الفوائد المعنوية العلمية، حيث عطلت الدراسة فيها وفي كل مكان في البلاد في العهد الشيوعي بحكم قانونهم الإلحادي، حتى صار التعليم الإسلامي في هذه المدرسة ومثيلاتها جريمة يعاقب عليها القانون، لأن قانونهم ينص على أنه يجوز للملحد أن يدعو إلى الإلحاد في كل مكان إلا في داخل المعبد، وهو هنا المسجد أو الكنيسة، ولا يجوز للمتدين أن يدعو

إلى الدين إلا داخل المعبد.

فإذا قارنا مساحة الموضعين بالقياس المادي فقط، نعرف مدى الظلم والإجحاف الذي حل بالدين وأهله في ظل الشيوعية.

ومن تطبيق ذلك أنه لا يجوز للمسلم أن يؤدي الصلاة في مكان خارج المسجد، وإلا عد ذلك جريمة يعاقب عليها القانون، وقانونهم أعمى لايعرف الرحمة أو الشفقة، ولذلك عرضت علينا في رابطة العالم الإسلامي في آخر الحكم الشيوعي قضية إخوانٍ لنا من المسلمين في الاتحاد السوفيتي كانوا سجنوا لأنه عرف أنهم كانوا يستمعون إلى إذاعة إسلامية موجهة من خارج البلاد.

وفيما يتعلق بالمدرسة الحسينية هذه، فإنهم يحفظون أسماء علماء كبار من علماء المنطقة تخرجوا فيها، أو كانوا يدرسون طلابها، منهم مؤلفون، وشخصيات مسلمة بارزة، من بينهم الشيخ (موسى جار الله)، وهو مؤلف مشهور له كتب بالعربية وبالتركية، وهو عالم مشهور مات في مصر، والشيخ فخر الدين بن ضياء الدين، له مؤلفات بالعربية والفارسية التركية.

وقد بنيت المدرسة مع بناء جامع الحسينية في أول القرن العشرين، أي منذ أكثر من تسعين سنة، وكان ذلك قبل أن يتسلط الشيوعيون على البلاد، ويلغوا حرية الإنسان في ممارسة الأديان، بناها مع المسجد شخص ثري من أهل إقليم (أورونبورغ) من قرية قارغالي قرب مدينة (أورنبورغ)، واسمه (أحمد باي حسين)، ذكروا أنه ولد في عام ١٨٣٧م، وتوفي عام ١٩٠٦م.

والمدرسة كالمنطقة غارقة في الأشجار الضخمة، وحولها بيوت بعض

الإخوة المسلمين الذين رأينا أمثالهم واقفين عند باب الجامع.

المدينة الجامعية:

تتبع المدرسة اثنتا عشرة وحدة سكنية كبيرة، كل وحدة بمثابة منزل منفرد واسع، خصصت لتكون مساكن لكبار المدرسين في المدرسة، إلى جانب غرف مخصصة لسكنى الطلبة الغرباء، وهذه كلها كانت من أوقاف المسلمين صادرتها الحكومة الشيوعية، ولم تعدها للمسلمين حتى الآن، ويأمل الإخوة في استرجاعها حالما تخرج كلية الزراعة من المدرسة الحسينية.

ولكن المشكلة أنها مسكونة الآن بعدد من الأسر أبوا أن يخلوها إلا بعد أن توفر لهم مساكن بديلة، ويقولون: إن واجب الحكومة التي أسكنتهم في هذه المساكن أن تبحث لهم عن بديل لها، مع أن الحكومة الشيوعية ذهبت وولت الأدبار، ولكن الحكومة التي خلفتها، وهي لا تقر مصادرة الأراضي، إلا أنها لا تستطيع فيما تقول أن توجد مساكن بديلة لهؤلاء الساكنين في مساكن الوقف الإسلامي، وتقول للمسلمين أن يدفعوا له تعويضات كافية لإيجاد مساكن بديلة، والمسلمون أعجز عن أن يستطيعوا ذلك.

وهكذا وقف الأمر على هذه الحال في الوقت الحاضر، والغريب أن المسلمين هنا يقرون بأن الحكومة عاجزة، وأنها لا تستطيع إخرجهم بدون أن توفر لهم مساكن بديلة، وكأن حصول المسلمين على حقولهم يجب - في عرفهم - أن يكون مرهوناً بقدرة الحكومة المالية، فهذه الوحدات السكنية وغيرها من الأبنية، ومباني المدرسة الحسينية، كانت تمثل مدينة جامعية إسلامية عامرة.

مدينة بنت فتح الدين:

بعد الجولة التي قمنا بها حول المدرسة الحسينية وما يتبعها من مبانٍ، وما أثاره ذلك في نفوسنا من أشجان وأحزان، ذهبنا إلى جامع الحسينية الذي بدا لنا شامخ المنارة، ظاهراً للعيان من جهة الشارع، ولكننا وجدناهم يأخذوننا إلى درج فيه يصعد للطابق الثاني، بعد أن مررنا في فنائه بقوم من الروس لديهم سيارات تكلموا معهم أولاً بشيء، قالوا لنا: إن هؤلاء قد استأجروا منا هذا الفناء ليكون مرآباً لإصلاح السيارات، ونحن نأخذ منهم الأجرة من أجل الانتفاع بها في أعمال المسجد.

وجدنا قاعة واسعة بالنسبة إلى مساحات المباني في هذه البلاد، فيها مقاعد للدراسة يتخذونها فصلاً لتعليم الأطفال مبادئ الدين الإسلامي، ورأينا فيها عجباً من أخت مسلمة مسنة، لا شك في أن عمرها يناهز التسعين، ولكنها قالت بعد ذلك: إنها في السادسة والسبعين، وقدمت نفسها قائلة: أنا (مدينة بنت فتح الدين)، ولك أن تعجب من (مدينة) أن تكون اسم امرأة، ولكن أسموها بهذا الاسم، وقصدوا من ذلك التبرك باسم المدينة المنورة، وليس مجرد مدينة من المدن، ثم أكملت اسمها قائلة: (رحيم كوفا)، فاسمها الكامل: مدينة بنت فتح الدين رحيم كوفا.

وأصلها من بشكيرستان المجاورة التي يقال لها رسمياً: (بشقردزستان)، ومرد ذلك إلى اسم القوم الذين سميت بهم البلاد، فاسمهم القديم الذي ذكر في المراجع العربية (بشقرد)، واشتهروا بعد ذلك بالبشكير، ولهم جمهورية بهذا الاسم، ويرجعون إلى الأقوام التركية القديمة التي هاجرت إلى هذه البلاد منذ أربعة عشر قرناً أو نحو ذلك.

تخرجت الأخت مدينة في جامعة قازان عاصمة جمهورية تتارستان

المجاورة أيضاً لإقليم أورنبورغ، واشتغلت بالتدريس، وهي متقاعدة الآن لكبر سنها، إلا عن البحث العلمي في أمور المسلمين في هذه البلاد، فإنها مازالت تبحث وتفيد الباحثين في ذلك على قلتهم.

قالت: وأبي كان إماماً في قرية في (بشكيريا)، ثم أخذت الأخت، أو لنقل: العمة، والأولى أن يكون وصفها بالعالمة الجليلة (مدينة)، تتحدث مباشرة وبتدفق غريب عن المدرسة الحسينية هذه، وأخرجت مجلداً ضخماً من تأليفها في تاريخ هذه المدرسة، أطلعتنا مباشرة على نسخة منه مكتوبة باللغة التتارية؛ لغة أكثر المسلمين في هذه المنطقة، وهي إحدى اللغات المتفرعة من التركية القديمة المسماة بالجغتاوية، وأخذت تقلب صفحات الكتاب الضخم في تاريخ الحسينية الذي هو تاريخ الثقافة العربية في البلاد، بل وتاريخ العاملين فيها من العلماء والزعماء المسلمين.

وقد جمعت فيه إحصاءات ووثائق، وحلته بصور قديمة نادرة لأشخاص عاشوا قبل الشيوعية، أو ماتوا في أول عهدها، من مؤسس المدرسة الحسينية المحسن الكبير (أحمد بابي) إلى غيره من العلماء والشعراء والزعماء، وعنوانه: ((**المدرسة الحسينية في أورونبورغ**)).

ذكرت أن (قوربا تشوف) زعيم الاتحاد السوفيتي الفارط كان أمر بترجمته إلى اللغة الروسية، وطبعه على نفقة الدولة، وقد نفذ أمره، وصف على الحاسب الآلي، ولم يبق إلا الطبع، فسقط (قورباتشوف)، وسقط بعده الاتحاد السوفيتي، وبقي الكتاب حبيس مسودته كما كان من قبل.

والغريب أنها ترجمته إلى اللغة الإنكليزية، وأهدت إلينا نسخة بالإنكليزية، قالت: إنكم أولى من تهدى إليه هذه النسخة من هذا الكتاب الذي يتحدث عن الأحوال الثقافية التي كان عليها المسلمون في

هذه المنطقة، والنسخة محلاة بالصور مثل الأصل، ولا شك في أن هذا قد كلفها مالاً وجهداً.

وقد استمرت العالمة (مدينة) تتدفق بالمعلومات المهمة عن الناحية الثقافية للمسلمين، فكان مما قالته: إن الشيخ (ولي بن عبد الغني باي) درس في مكة المكرمة؛ حيث ذهب من أورنبورغ إلى مكة في حدود عام ١٩٠٠م، وبقي عدة سنوات، ثم عاد وألف كتاب: « **الدين والحياة** » باللغة التتارية.

كنا نستمع إلى حديثها ونحن جميعاً جالسون على مقاعد الدراسة في هذا الفصل الدراسي من الطابق الثاني المصطنع المحدث في جامع الحسينية، وأنا أفكر فيما أفاضت به هذه الأخت المسلمة من معلومات، وما أظهرت من اهتمام بأحوال المسلمين، وما يتضح به حديثها من غيرة على الإسلام والمسلمين، وأقول في نفسي: لقد قامت هذه الأخت المسلمة بما لم يقم به الرجال من بني قومها، ثم تذكرت أن هذه سنة عرفتها من أخواتنا التتاريات في مناطق عديدة من البلدان الشيوعية، ابتداء من بولندا ودول البلطيق، إلى أنحاء من اتحاد روسيا، فعرفت أن نشاط الأخوات التتاريات في الجمعيات الإسلامية، والعمل للثقافة الإسلامية بقدر جهودهن المحدودة و ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ هي أكثر من عمل الرجال.

ولم تترك العالمة الجليلة (مدينة) لنا فرصة لسؤالها، والاستفصال منها عن بعض الأمور، بل استمرت تتحدث على عادة كبار السن قائلة:

هل جئتم هنا لتروا المسلمين يذهبون وينقرضون وأنتم تتفرجون على مأساتهم ؟ أم جئتم لتساعدوهم؟ ثم علقت على سؤالها ذلك بدون أن تنتظر الجواب منا قائلة:

المسلمون موجودون، ولكنهم مذنبون، إنهم يشربون الخمر مثل الروس أو أكثر مما يشربها الروس.

وكررت الشكوى من انهماك المسلمين في شرب الخمر، وما يجره ذلك عليهم من غضب الله ومخالفة أوامره، ثم من مشكلات أخرى كثيرة، وقالت: المسجد مفتوح، ولكن الذي يحضرون للصلاة فيه قليل. وعندما شعرت الأخت (مدينة) بأنها قالت كل ما أرادت أن تقوله أو أكثره ولم أذكره هنا لطوله، سألناها أولاً عن أسرتها، وكيف تعيش الآن في هذه المدينة؟ فأجابت بأن لها ابنا وابنتين إحداهما تقوم الآن بتدريس اللغة الروسية في جامعة أوسلو عاصمة النرويج، والأخرى مهندسة فيزيائية تعمل في التدريس في جامعة مدينة (بطرس بورج) (لينين قراد) سابقاً، أما ابنها فإنه موجود هنا وتعيش معه.

مما يجدر ذكره هنا أن إخواننا التتار هم من أكثر فئات المجتمع داخل جمهورية روسيا والاتحاد السوفيتي السابق تعلماً، وأرقاهم ثقافة، فيوجد فيهم المثقفون ثقافة عالية في جميع العلوم، مع ما ابتلوا به من التشتت والتفرق في أنحاء الاتحاد السوفيتي، وما وجهه الشيوعيون وقبلهم القيصريون من شتى الضغوط، وأنواع الإرهاب ضدهم، من أشهر ذلك ما فعله طاغية الشيوعيين الهالك (ستالين) بالإخوة (تتار القرم)؛ حيث نفاهم من بلادهم القرم إلى سهوب آسيا الوسطى، وأصقاع سيبريا، نفياً جماعياً، وبطريقة وحشية، حتى فني ربعهم أو ما يقرب من ذلك في الطريق، إذْ نقلوا بالشاحنات والقطارات من دون أن تعطى لأحدهم فرصة التزود بما يحتاج إليه من متاع، أو أخذ ما يملكه، وحتى المرضى شحنوا كما يشحن الحيوان، ومات أكثرهم في الطريق، وقد ذكرت تفصيل ذلك في كتاب: ((**على مسرح المأساة: بلاد القرم**)) الذي نشرته دار القبلة في جدة.

شاي الأختين:

كنا وجدنا مع الأخت (مدينة) أختاً مسلمة أخرى، وهي مسنة مثلها، وإن كان ذلك في العمر، اسمها (نور بنت جمال بن حمزة) تعمل فراشة للمسجد تنظفه، وتقوم بترتيب فراشه، وما يتعلق بتنظيف المدرسة فيه التي هي الفصل الدراسي الذي ذكرت أننا كنا جالسين فيه.

سألتها عن سنها، وأنا أعرف أن المرأة بطبيعتها لا تذكر سنها الحقيقي، ولو كان يظهر عليها الكبر، فقالت: (٥٢)، ومع أنني لا أشك أنها فوق السبعين، فسألتني عن سني ؟ فقلت: إنه أكثر من سنك الذي ذكرتيه بكثير، مع العلم بأنها أكبر مني بلاشك.

وذكرت أن راتبها (٦٠) ألف روبل، ويساوي ذلك (١٦) دولاراً أمريكياً، أي (٥٢) ريالاً سعودياً على وجه التقريب في الشهر.

وهي مثل الأخت (مدينة) تتارية .

وجدنا الأختين الكريمتين قد أعدتا مائدة شاي متواضعة في إحدى غرف المسجد، قدمتا فيها الشاي الساخن الذي نحن بحاجة إليه بعد الجولة، ومعه البسكويت وشيء يعمل مثله في هذه البلاد، ومربى الفاكهة مع قليل من الخبز، وهذا ما لم يفعله أحد من الرجال الذي زرنا مساجدهم، فما عدا المفتي لم يقدم لنا أحد منهم أي شراب حار أو بارد، وقد اعتدنا في بلادنا أن نتناول الشاي أثناء فترة العمل اليومي، لذلك نحن نقبله فيما لو قدم إلينا.

وكان الحديث الذي سمعناه لأول مرة عن أحوال المسلمين ألذ وأشهى من هذه المائدة.

المصلى المؤقت:

جامع الحسينية جامع كبير جليل، عالي البناء، ولذلك عندما صادره الشيوعيون أحدثوا سقفاً فيه، وجعلوا أسفله الأرضي وما فوق ذلك السقف الذي أحدثوه مساكن ومواضع لأغراضهم الدنيوية.

وعندما استعاده المسلمون اكتفوا بالطابق العلوي، فجعلوا فيه غرفة واسعة نوعاً استعملوها مصلى مؤقتاً، أطلقوا عليه اسم المسجد، وقاعة أخرى للفصل الدراسي، وفيه غرف أخرى غيرها.

أما أسفله، فإنهم أجروه لشركة تدفع لهم أجرة جيدة يستعملونها لنفقات المسجد والمدرسة.

دخلنا المسجد المؤقت مع إمامه الأخ (علي بشير)، وهو فتى طويل القامة من أهل أورنبورغ، متخرج من المدرسة الحسينية التي تتبع الجامع المركزي، وتقدم ذكرها.

وليس لهذا المصلى المؤقت محراب ولا منبر، ولا يتسع لعدد يزيد على ثلاثين أو أربعين، وعللوا ذلك بأن عدد المصلين قليل في الوقت الحاضر بسبب تأثير التربية الشيوعية عليهم.

وتشرف على المسجد جمعية يرأسها الأخ عبد الرحمن وفا صديقوف، أي ابن صديق، ولم نقابله لكونه غائباً.

وقد انضم الإمام إلينا على شرب الشاي، إلا أنه لم يشارك في الحديث، فضلاً عن أن يفيض فيه كما فعلت النسوة والمفتي، وذلك لحداثة سنه، وقلة خبرته.

واتصل البحث في شؤون المسلمين وحالتهم الواسعة الآن، وقلت لهم:

إنه ينبغي لكم أن تعملوا على تشجيع المسلمين على الإكثار من النسل، حتى لا تستمر غلبة غير المسلمين على البلاد، فتصبحوا أقلية ضئيلة بعد فترة، قلت ذلك لأنني علمت بأن المسلمين في روسيا لا يزيد عددهم بالسرعة المطلوبة، فلا تكون لهم ذرية كبيرة كما في آسيا الوسطى.

وقلت: ينبغي أن تشجعوا الزواج المبكر، وزيادة الأولاد، كما ينبغي أن تشجعوا زواج المسلم بأكثر من زوجة واحدة، فالإسلام يبيح ذلك، ويشجع على زيادة النسل، وهنا ضحكت العجوزان، وبان الاستغراب على محياهما، ولم تعلقا على ذلك بشيء.

وقد اتفق رأي الجميع على أن الوقت الحالي هو وقت مناسب للعمل على رفع المستوى الثقافي للأقليات العددية المسلمة من المسلمين في الأقاليم الروسية الداخلية، وليس وقت الحروب والقتال، ولذا لا بد من العمل على تهيئة أسباب القوة وإثبات الوجود بكل الوسائل المستطاعة، ومنها تكثير العدد بزيادة السكان، وفي الوقت نفسه رفع المستوى الثقافي للمسلمين.

ودعنا أهل مسجد الحسينية، وبخاصة الأختين المسنتين والإمام الذي ما يزال يتعلم منهما وأمثالهما، وخرجت إلى شارع جيروف الذي يقع عليه المسجد ألتمس زاوية ألتقط منها صورة للمسجد، فعجبت من سوء حالة الشارع، إذا الزفت في وسطه قد تكسر ولم يصلح، والأرصفة قد عدمت حتى عادت تراباً أو كادت، مع أنها أرصفة عريضة جيدة في الأصل، إذا لامستها عجلات السيارات آذت الواقفين والمارة، مع أن المنطقة هي في وسط المدينة، ولكن عدم الإصلاح والترميم أدى إلى ذلك.

وقد اشتدت حرارة الشمس مما عكس الطبيعة القارية للمنطقة بسبب بعدها عن البحار المؤثرة في الجو، إذْ أقرب البحار إليها هو بحر الخزر الذي يعرف الآن ببحر قزوين، وهو ذو تأثير محدود في الطقس لصغر

مساحته، وكونه بحراً مغلقاً منخفضاً أيضاً انخفاضاً قليلاً عن مستوى سطح البحر المفتوح القريب منه، وهو البحر الأسود.

ولاحظت شيئاً لافتاً للنظر بالنسبة إلينا نحن الذين نعيش في الجزيرة العربية، وهو أن ظل الحوائط التي تنطلق من الغرب إلى الشرق موجود إلى الشمال في هذه البلاد، وإن كان قصيراً، وهو لا يوجد عندنا الآن، وإنما يبدأ وجوده بعد مطلع سهيل، وسهيل نجم يطلع، أي يرى في جهة الجنوب يوم ٢٣ أغسطس، لأنه نجم جنوبي، وعند طلوعه يبدأ ظل الأشياء من جهة الشمال عنها، ويسمي العامة عندنا هذا الظل بالسهيلي، لأنه يوجد بعد طلوع سهيل، بعد أن لم يكن موجوداً قبله.

وذلك لكون الشمس تذهب شمالاً في القيظ، ثم تبدأ بالعودة أدراجها جهة الجنوب يوم ٢٥يونيو ،حتى تستكمل ذهابها جهة الجنوب في ٢٢يناير من كل عام.

وهنا يوجد هذا الظل السهيلي قبل طلوع سهيل عندنا، وذلك لوقوع البلاد هذه موقعها من شمال الأرض.

وتزين أرصفة شارع (جيروف) هذا أشجار من أشجار الأخشاب العالية الحسنة المنظر.

جامع السليمانية:

تركنا منطقة الحسينية ذاهبين لرؤية جامع آخر اسمه (جامع السليمانية)، فاخترقنا شوارع (أورنبورغ) غير الجيدة، وأكثرها غير واسعة، وكان فضيلة المفتي هو الذي يقود السيارة، وهي سيارة من طراز (فولقا) الذي يعتبر مركوب الطبقة الراقية في هذه البلاد، وهو أحد

طرازين من السيارات الأكثر شيوعاً، والثاني هو (لادا) الذي يشبه سيارة (الفيات) الإيطالية، إن لم يكن هو هي في الأصل.

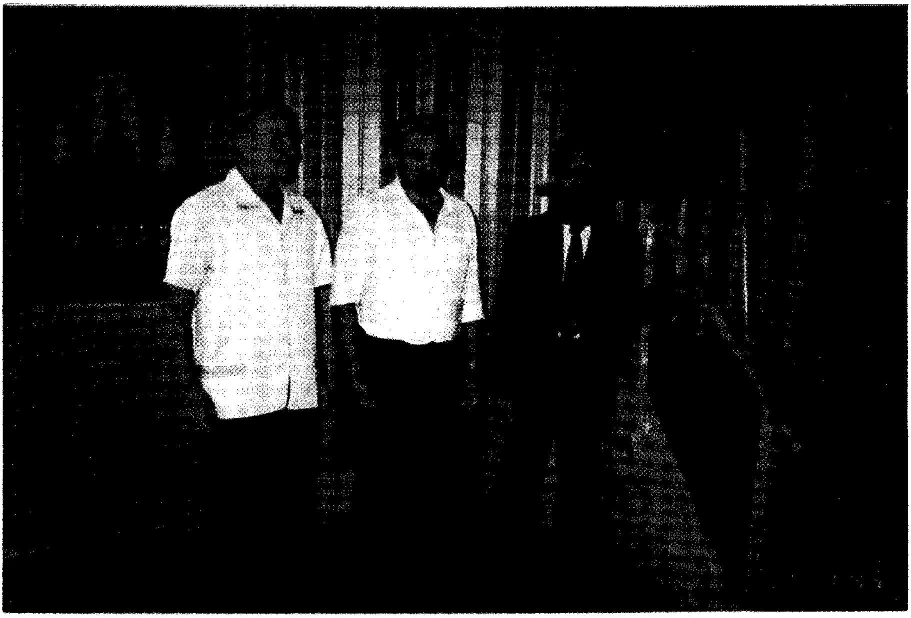

في جامع السليمانية في مدينة أورنبورغ مع المتولي رئيس الجمعية والإمام

وكان يتناوب المفتي مع بعض العاملين في الإدارة الدينية قيادة هذه السيارة التابعة للإدارة، ولاحظت أن الناس كثير في هذه الساعة من النهار، وأنهم الأوروبيون الصرحاء في المظهر، رغم أنهم فيهم من هم من التتار المسلمين والقازاق أهل البلاد الأصلاء، لأن ألوان أهلها هي بيض كألوان الأوروبيين على البعد، أما تقاسيم الوجوه فإنها غير تقاسيم الأوروبيين، ولكنها لا تتضح للمشاهد إلا إذا اقترب منها، وأكثر السكان الآن في هذه البلاد هم من السلافيين الذين يؤلف الروس أغلبهم، إلا أن الخفة أو الرشاقة في الأجسام، وإن شئت قلت: عدم الثقل في الأجسام، شائع في النساء هنا، لذلك تجد فيهن نسبة من الجميلات أكثر مما في الروسيات المسكوفيات مثلاً.

وصلنا (**مسجد السليمانية**) الذي يقع في حي (آرندة)، ويسمونه بلغتهم (آرنده محلة)، فوجدنا في الاستقبال إمام المسجد الأخ (فاروق بن زينة الله)، وهو كأكثر أئمة المساجد في هذه البلاد غير مؤهل دراسياً، أي أنه ليس متخرجاً من مدرسة دينية، وهذا أمر مفهوم السبب، وهو سيطرة الإلحاد الشيوعي الذي حرم على المسلمين وغيرهم من أرباب الديانات التعليم الديني في البلاد.

كما كان معه في استقبالنا الأخ (محمود فوزي أحمد) رئيس جمعية المسجد، ويسمونه (المتولي رئيس)، ورأينا طائفة من التلاميذ من أولاد المسلمين لكونهم يسكنون في بيوت متلاصقة، لأنهم جاؤوا من أجل الدراسة في فصل دراسي ملحق بالمسجد، وهم مختلطون من صبيان وبنات، ويتميزون باللون الأبيض المشرق، وعلى وجههم طلاوة، وثيابهم وأبدانهم في غاية النظافة.

أخبرنا الإخوة أن الشيوعيين صادروا هذا المسجد، وجعلوه سجناً بعد أن أحدثوا فيه سقفاً قوياً لأنه مرتفع، فصار طبقتين قسموها إلى غرف واسعة عديدة، وذلك لسعة المسجد سعة غير معتادة في هذه البلاد إلا في الجامع المركزي الذي تقع فيه (**دار الفتوى**).

وقد فتح الشيوعيون في محرابه باباً حتى لا يبقى شاهداً على كونه مسجداً.

وقد استعاده المسلمون في عام ١٩٩٣م، وصاروا يرممونه، ويصلحون غرفه وممراته وأبوابه من دون أن يزيلوا السقف الذي أحدث فيه، ولا الحواجز بين الغرف، فبقي على ما هو عليه حتى الآن، وإنما اتخذوا إحدى الغرف الكبيرة في الطابق الأرضي مسجداً مؤقتاً، زينوه برسم محراب،

وفرشوه بالسجاد، وأقاموا فيه منبراً صغيراً.

حديث محزن:

حدثنا الإخوة، وهم الإمام والمتولي وثلاثة من جماعة المسجد انضموا إليهم، عن بدء صلاتهم في المسجد، فذكروا أنهم بدؤوا بثلاثة من المصلين فقط، أي أنه لا يصلي في المسجد في أول الأمر إلا ثلاثة فقط، أما الآن فقد وصل العدد إلى ما يزيد عن الثلاثين أحياناً، وإن كان متوسطه ثلاثين مصلياً.

وليس هذا - بطبيعة الحال - من قلة المسلمين في الحي أو المنطقة من المدينة، وإنما في قلة المصلين منهم، لأن أكثرهم كانوا تأثروا بالتربية الشيوعية الملحدة، التي وإن لم تستطع أن تخرجهم من دينهم إلى دين آخر، فإنهم خرجوا عملاً وممارسة من الدين الإسلامي إلى مرحلة لم يبقَ فيها معهم منه إلا الهوية، بمعنى أنهم يرون أن كونهم مسلمين هو الذي حفظ لهم هويتهم وتميزهم عن الآخرين.

ولا شك أن العاقل المتمعن في الأمور يدرك سبب هذا، ويعرف أن الإخوة من أبناء المسلمين بحاجة إلى الدعوة للعودة إلى ممارسة الإسلام اعتقاداً وعملاً وسلوكاً، وأهم ذلك تربية أولادهم تربية إسلامية، وكنت أؤكد هذا الأمر في كل مناسبة من المناسبات، وأقول لهم: إنه إذا فاتكم أنتم أن تتربوا تربية إسلامية، فيجب عليكم استدراك ذلك بتربية أولادكم على ذلك.

وسألتهم عن كونهم لم يزيلوا الحواجز التي أقامها الشيوعيون والمسجد بطابقه الأرضي القديم، والطابق الثاني المحدث فوقه، فأجابوا

بأننا سنفعل ذلك عندما يكثر المصلون، ويحتاجون إلى توسعة المصلى الحالي، بل سوف نزيل كل الحواجز عندما يستدعي عدد المصلين ذلك.

وقد طلبوا منا ن نرسل لهم كتباً إسلامية باللغة الروسية التي هي اللغة الرسمية، ولغة التعليم في البلاد، وباللغة التتارية التي هي لغة المسلمين، وذكروا أن دعاة النصرانية يوزعون الكتب المسيحية بكثرة على الناس، حتى على المسلمين.

وحدثونا عن تاريخ المسجد بأنه قديم لا يعرفونه بالضبط، وإنما يعرفون أنه بني قبل مائة سنة، وأن الذي بناه اسمه (أبو بكر) ولا يعرفون أكثر من هذا عن اسمه.

وليس له ملحقات كالمساجد الأخرى، ولا أدري أذلك كان من أصل وجوده، أم صودرت ولم يستعيدوها ؟ إلا أنني سألتهم عن ملحقات المسجد التي توجد عادة في مثل هذه البلاد وبلاد ما وراء النهر حتى بلاد الصين، كما يكون المسجد أشبه ما يكون بالمركز الإسلامي، فتكون فيه أفنية وغرف للدراسة، وغرف للأغراض الأخرى، وبيت للإمام، وآخر للمؤذن فلم يعرفوا ذلك.

والظاهر أن بانيه اكتفى بسعته، أو أن ملحقاته قد اعتدي عليها منذ وقت طويل.

ويقع على شارع شمالي ليس فيه زفت، وإنما تركبه - أي الشارع - معترضة فوقه أنابيب التدفئة الضخمة التي تنقل الماء الحار إلى بيوت المدينة من محطة أنشأتها الدولة، كما هي عادتها في كل البلاد الروسية.

ويحده من الغرب شارع واسع مزفت، كان جيداً، ولكن جودته ذهبت حيث فسد الزفت فيه، ولم يصلح، وصار جانباه ترابيين غير

نظيفين.

حتى المنازل الموجودة حوله، وكلها منازل منفردة بنيت قبل العهد الشيوعي، اسودت بفعل العوارض الجوية، وكلها مسنمة السقوف تسنيماً حاداً، حتى لا تتراكم عليها الثلوج التي تسقط بانتظام لمدة طويلة من فصل الشتاء، وطريٍّ في فصل الخريف والربيع.

المدرسة الإسلامية:

كما بدأ المصلون بعدد قليل لا يزيد عن ثلاثة مصلين أول الأمر، فإنهم بدؤوا بفتح فصل لتعليم الأطفال وجهزوه بأثاث حسن.

رأينا السبورة مكتوبا عليها الاستعاذة بالعربية: (**أعوذ بالله من الشيطان الرجيم**) ثم البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم)، ثم سورة الإخلاص ﴿**قل هو الله أحد**﴾ إلى آخر السورة.

وتحت ذلك عبارات عربية مكتوبة بخط جيد، وتحتها تفسيرها بالروسية، ومن لطيف ما رأيته مكتوباً في أسفل السبورة كلمتي: (من رب)، وتحتها نطقها (مرَّب)، وذلك في حالة إدغام النون في الراء.

وقد تجمع الأطفال في الفصل، وعددهم (١٤)، وذكروا أن مجموعهم الآن (١٦)، وهم مختلطون ما بين بنين وبنات، وفيهم المميزون، والمميز هو من تعدى السابعة، بل فيهم من هم في سن العاشرة والحادية عشرة، وقد جلسوا مع الفتيات اللاتي رأيت واحدة منهن لا يقل سنها عن الثالثة عشرة، وعليها لباس صيفي لا يمت إلى الستر بصلة، ولكن أهلها

لمحبتهم في دينهم أرادوا لها أن تتعلم في هذه المدرسة من دون أن يعرفوا أكثر من ذلك.

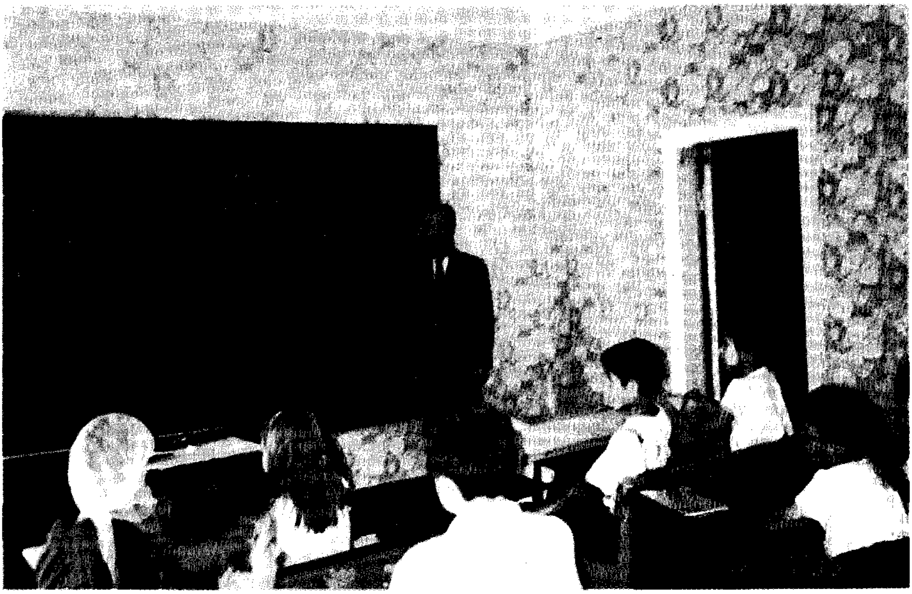

المؤلف بجانب سبورة المدرسة الإسلامية في جامع السليمانية في أورنبورغ

وقرأت طفلة من الفصل اسمها (ليلية)، وهو الاسم العربي الأصيل (ليلى) دخله قليل من التحريف، وأبوها اسمه إبراهيم سورة الفاتحة قراءة جيدة.

وقراءة الفاتحة في هذه البلاد التي ابتليت بالشيوعية يعني أمراً عظيماً، كقراءة سورة من وسط القرآن حفظاً بالنسبة إلينا، وذلك لندرة من يحسن قراءة شيء من القرآن، حتى إن بعض كبارهم إذا طلب منه أن يقرأ شيئاً من القرآن قرأ الفاتحة قراءة سريعة أشبه بقراءة الفاتحة التقليدية المعروفة في البلدان العربية التي تقرأ عند إبرام أمر عظيم، أو بعد الدعاء على سبيل المثال.

ومن الطريف المفرح الذي أخبرونا به أن بين طلاب هذه المدرسة، أو

لنقل الذين يحضرون الدراسة فيها ثلاثة من أبناء المسيحيين يدرسون مع أبناء المسلمين، وأنهم صاروا يصلون مع أطفال المسلمين في المسجد، ولذلك يأملون في أن يصبحوا مسلمين فيما بعد.

أما الآن فإنهم لم يدخلوا في الإسلام بصفة رسمية علنية.

وقد ذكرني هذا بما رأيته في مدينة (سان سلفادور) عاصمة جمهورية السلفادور في أمريكا الوسطى؛ حيث رأيت في مسجد المركز الإسلامي الذي أنشأه الأخ الذي هداه الله إلى الإسلام الدكتور (أرماندو بقيلة) وهو مسيحي عربي أصيل هاجر من فلسطين إلى السفادور، وولد مسيحياً هناك، ولكنه درس الإسلام وأسلم عن اقتناع، فخصص طابقاً من مبنى يملكه للمركز الإسلامي الذي أنشأه، وأعلن في الجرائد أنه فتح هذا المركز لمن يريد أن يطلع على شيء يتعلق بالإسلام، أو يريد أن يعتنق الإسلام.

وقد جعل أحد الإخوة الفلسطينيين المسلمين في المسجد بصفة مستمرة، ومعه أحد المسلمين السلفادوريين يردون على أسئلة المراجعين والمتكلمين بالهاتف واستفساراتهم في كل ما يتعلق بالدين الإسلامي، وعندما زرته وصليت في المسجد صلى معنا أحد الأشخاص صلاة الظهر، فذكروا أنه لم يسلم بعد، وإنما يحضر الصلاة ويصلى مع المسلمين مثل غيره، فإن هداه الله إلى الإسلام دخل فيه، وإلا يكون قد اكتسب شيئاً من المعرفة عن الدين الإسلامي في تلك البلاد التي ظلت مغلقة دونه من قبل.

كما كانت امرأة تراقبنا ونحن نصلي جاءت لترى كيف يصلي المسلمون، ولتحصل على نشرات أو كتب توضح لها ما تريد معرفته عن الدين الإسلامي.

وقال الدكتور بقيلة: نحن أعرف بطبيعة بلادنا وشعبنا، وأعرف بكيفية دعوتهم إلى الإسلام، والطريقة إلى اقتناعهم به، ولذلك نسلك هذه الطريقة.

وقد ذكرت تفصيل ذلك كله في كتاب ((**بيليز والسفادور**)) من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز.

ثم انتقلنا إلى الطابق الثاني من المسجد الذي أحدثه فيه الروس؛ حيث قسموه غرفاً عديدة للمسجونين، فرأيناهم يرممونه ويصلحونه؛ بدلاً من أن يزيلوه ليعيدوا للمسجد هيئته الأصيلة، وذكروا أنهم يفعلون ذلك من أجل أن يؤجروه فينتفعوا بأجرته لنفقات المسجد والمدرسة وما يتعلق بذلك. وقد شكوا إلينا قلة النفقة، وذكروا أنهم في هم عظيم الآن من دين لحقهم يبلغ سبعة ملايين نصف مليون من الروبلات، استدانوه ثمن مواد لترميم المسجد، فأعلنت لهم أننا سنتبرع لهم تبرعاً عاجلاً من رابطة العالم الإسلامي بما يغطي هذا المبلغ، ويفضل منه شيء وندفعه لهم الآن.

ويبلغ عدد الغرف في هذا الطابق الثاني (١٧) غرفة، ولكنها كبيرة وواسعة؛ بحيث تزيد مساحتها على مساحة الثلاثين غرفة من الغرف المعتاد.

إلى نصب القارتين:

والمراد به نصب أي علامة شامخة في النقطة التي تفصل بين قارتي آسيا وأوروبا، حيث تلتقي حدود القارتين هنا كما سبق.

والمقصود من ذهابنا هو الوقوف في النقطة المحددة للحدود بالضبط، بعد أن وقفنا في منتصف الجسر المقام على نهر (أورال) الذي يفصل بين القارتين.

ويقع النصب على الضفة اليسرى من نهر (أورال)، حيث ينحرف النهر يسيراً ليسمح بإقامة نصب وعلامة على اليابسة توازي وسط النهر في معدل اتجاهه قبلها وبعدها.

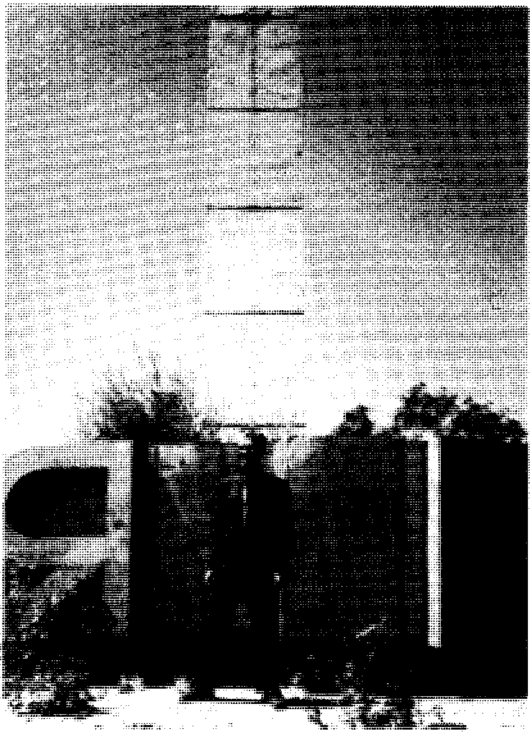

المؤلف أسفل النصب الذي يوضح نقطة الحدود بين أوروبا وآسيا في أورنبورغ، يضع إحدى رجليه في آسيا والأخرى في أوروبا

وعزمت على أن أفعل هنا ما فعلته عند خط الاستواء أول ما رأيته في أوغندا، وهو الخط الوهمي الذي يفصل بين شمال الأرض وجنوبها، أقام الإنكليز عند ما كانوا يحكمون البلاد نصباً من الآجر، وخطوا خطاً يذهب شرقاً وغرباً كتبوا أنه النقطة التي يتساوى عندها نصف الكرة الأرضية، وهذا الخط الذي وضعوا فيه لبنات من الآجر بالطول لا يزيد عرضه على مقدار الشبز، فوضعت آنذاك إحدى رجلي يمين هذا الخط، والأخرى شماله، وقلت للمرافقين: اشهدوا أنني وضعت إحدى رجلي في

شمال الأرض والأخرى في جنوبها!

ثم رأيت علامات وأنصاباً لخط الاستواء في أماكن عديدة من العالم، منها واحد في مدينة بونتيانا في ولاية كلمنتن الغربية في إندونيسيا، وآخر قرب مدينة كيتو عاصمة الأكوادور التي رأينا عندها حانوتاً يبيع التذكارات والأشياء الخفيفة التي أغلبها من مصنوعات المواطنين الأصيلة، وهم من الهنود الأمريكيين الذين هم السكان الأصلاء في تلك البلاد قبل وصول الأوروبيين إليها، ويسمون بهنود الأنديز، وقد عرض علينا أن يمنحنا شهادة اجتياز نصف الأرض من نصفها الثاني، وهي شهادات مطبوعة فيها فراغ للاسم والجنسية بمبلغ زهيد دفعته، وحصلت على شهادة لا أحتاجها، لأنني سبق أن اجتزت هذا الخط في أماكن أخرى من العالم.

أما هنا، فإن الروس أحاطوا أسفل النصب بسياج من الحديد، عليه باب محكم، وهو واسع بحيث لا يستطيع المرء أن يقف في أسفل النصب مباشرة، فاكتفينا بالوقوف في محاذاة نصف النصب، والتقطنا الصور التذكارية، وأخذ الأخوان المرافقان في الرحلة وهما الأستاذ حسن بن علي إزميرلي، ورحمة الله بن عناية الله، كل واحد منهما بيد الآخر وهو واقف في يمين النصب والأخر بيساره، فتصافحا وكل واحد منهما في قارة من القارتين.

ومن اللافت للنظر أنني رأيت عند أسفل هذا النصب الذي هو معلم سياحي من معالم المدينة، ويقع على ضفة نهر (أورال) زجاجات كبيرة من زجاجات الخمرالفودكا فارغة، تدل على ما لا يحتاج إلى دليل من كثرة شرب الخمر في هذه البلاد.

وقلت في نفسي هنا ما قلته في مناسبات سابقة عندما زرت أنحاء

متباعدة من البلاد الروسية: إنه لملك روسي عريض، فقد ملكوا أماكن شاسعة في قارتين، هما آسيا وأوروبا، حتى أصبحت حدودهم تمتد من شاطئ بحر البلطيق حتى بحر اليابان، ويكفي أن تعرف مساحة ما كانوا يملكونه، وإن سموه بعد ذلك بالاتحاد السوفيتي بأنه يعادل سدس المساحة من الأرض اليابسة.

ونحن لا نحسدهم على ذلك، بمعنى أن نتمنى لهم الشر لمجرد البغض أو الكراهية وعدم محبة الخير لهم، وإنما يغيظنا ذلك لكونهم ابتلعوا في ملكهم العريض هذا بلاداً إسلامية عريقة في الإسلام؛ سواء في بلاد القوقاز في شرق أوروبا، أو بلاد ما وراء النهر في آسيا، وقد أذابوا أو حاولوا إذابة شعوب مسلمة، إن لم يستطيعوا إذابتها بالفعل، أذابوا شخصيتها ومقومات تميزها، من ثقافة إسلامية عريقة، ومن لغة وطنية أصيلة.

أول مسجد في أورونبورغ:

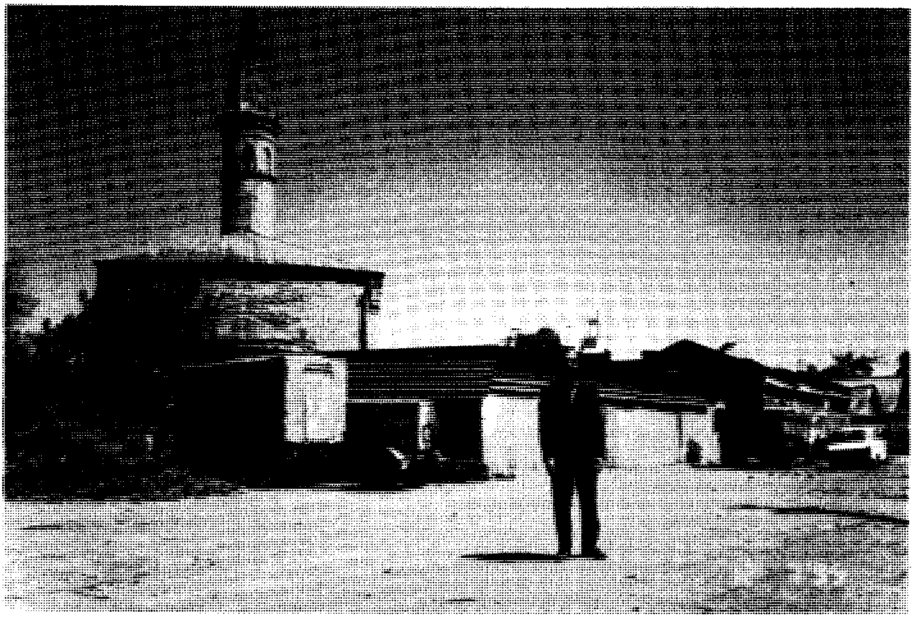

المؤلف في حي نوفا أستروبكا الذي فيه أول مسجد

كانت هذه الهواجس تتزاحم في خاطري، وتثير الأسى في نفسي على كوننا نحن المسلمين لم نستطع رد الظلم عنا، ولا ردع الظالمين عن احتلال بلادنا، وبخاصة عندما تذكرت أن مرد ذلك ومرجعه في أكثره هو لاختلاف المسلمين وتنازعهم، وكون بعضهم يستعين بالروس على إخوانه المسلمين، حتى إذا حصل ما أراده وأراده الروس من هزيمة أخيهم واحتلال بلاده، عادوا إليه هو يهزمونه، ويحتلون مناطق نفوذه، حتى صارت البلاد خالصة لهم لا ينازعهم عليها منازع.

وقطع الاستغراق في التفكير بهذا الأمر الخطير قرقعة السيارة وهي تسير فوق شوارع (أورونبورغ) الفاسدة المليئة بالحفر والنقر، ذات الأرصفة التي لم يعد لها وجود الآن بسبب الخراب والإهمال، أو لكونها لم توجد أصلاً في بعض الشوارع، وذكرت بهذه المناسبة بعض البلدان الإفريقية التي اعتبرتها آنذاك بلاداً ذات طرق في شوارعها سيئة، مثل (باماكو) عاصمة جمهورية مالي، ولكنني وجدت أن الشوارع في هذا الإقليم الذي يبلغ عدد سكانه قرابة ثلاثة ملايين نسمة، وهو جزء من دولة عظيمة في مساحتها، وفي قوة ما تمتلكه من سلاح، وهي تدعي أنها دولة متقدمة، بل تزدري دولاً كثيرة في العالم، مدعية أن تلك الدول هي دول نامية، بمعنى ناقصة النمو، لا تختلف عن شوارع عاصمة دولة إفريقية لا يزيد عدد سكانها على ستة ملايين نسمة.

سرنا في شوارع من شوارع المدينة، أكثرها خال من الجمال، أو التجميل، إلا فيما خلقه الله في وجوه بعض الماشيات على الأرض وأطفالهن، وحتى البيوت أكثرها - إن لم تكن كلها - قديم لم يجدد ولم يجمل، والبيوت القديمة هي من الآجر الأحمر الذي تغير بعض التغير، والمعتنى به منها يكون الجدار فيها عريضاً، يبنى بالآجر والطين، وقد رأيت بيتين

منهما متهدمين، فاتضح ذلك من أنقاضهما. وأما البيوت المبنية بالإسمنت المسلح - كما هو عندنا - فإنها قليلة جداً، وإنما يقتصر ذلك على الأبنية الحكومية المتعددة الطوابق (العمارات)، فإنها كلها مبنية من الإسمنت المسلح كما هو ظاهر.

ورأيت من مظاهر الإهمال بالوعة مفتوحة، ليس عليها غطاء، متروكة من دون أن يجعل حولها ما ينبه على وجودها، لئلا تزل فيها قدم ماشٍ، ولا تسقط فيها عجلة سيارة.

ومررنا بمحطة للحافلات عليها عدد كبير من الناس ينتظرون وصول الحافلة ما بين قيام وجلوس.

شارع كريستوفا:

مررنا بشارع مهم عندهم اسمه (شارع كريستوفا)، وهي (فالنتينا كريستوفا) أول رائدة فضائية روسية، بل أول رائدة فضاء في العالم كله، أسموا باسمها هذا الشارع من المدينة تنويهاً بذكرها، أو تمجيداً لما قامت به من عمل، ولكنه بحالته الحاضرة لا يشرفها، وربما لا تحب هي إذا رأته أن يكون باسمها.

وهذا الشارع ذو اتجاهين، أحدهما للسيارات الذاهبة، والآخر للآيبة، تفصل بينهما جزيرة من التراب اليابس الذي فيه بعض الأعشاب الوحشية، وهي التي نبتت عفواً، ولم تستنبت، ومع ذلك هي غير شاملة للجزيرة، ولا نضرة. وليس فيه أرصفة، بل جانباه ترابيان، وربما كان مرجع ذلك إلى كونه في ضاحية منفصلة عن قلب المدينة.

وصلنا إلى حي (نوفا أسترويكا) حيث يقع أول مسجد بني في هذه

المدينة، وهي ضاحية مهملة، سيئة المنازل، ترابية الأزقة، بل هي غبارية الأزقة - إن صحت النسبة إلى الغبار - وإن لم تصح قلنا: إنها رمادية الأزقة - نسبة إلى لون الرماد ورقة التراب فيه - وليست نسبة إلى رماد النار.

شارع في حي نوفا أسترويكا

كانت السيارة تسير في هذا الحي، وأنا أرثي لها ولسائقها ما يلاقي من عنت في قيادتها فوق هذه الشوارع الفاسدة التي لا تختلف عن الشوارع التي كانت تسير عليها الدواب في القديم، إلا في كونها لم تعرف التسوية أو التمهيد، حتى رأينا المسجد سامق المنارة، ظاهر الشعار.

مسجد أسير:

ومع هذا المظهر الواضح للمسجد، ومئذنته الشامخة، وهيئته المتميزة، فإنه لا يزال أسيراً لدى الدولة التي اغتصبته عندما كانت شيوعية، تدعي أن مبادئها ودستورها يبيح لها ذلك، وعندما تغيرت، وتغير دستورها الذي يحارب الأديان، أعادت أكثر المساجد التي كانت قد

اغتصبتها، ولكن بقي بعضها ينتظر الفكاك من الأسر، ومنها هذا المسجد.

ويشغل المسجد حالياً إدارة المرور في المدينة، وهي إدارة حكومية لا تستطيع أن تتعلل بكون الحكومة لا تقدر على إيجاد المكان المناسب لها بديلاً عن هذا المسجد، غير أن هذه الإدارة الحكومية تتعلل بذلك.

وقال أحد الإخوة المرافقين: إننا لو استعدناه نحن المسلمين، فإننا لا نستطيع الإنفاق على ترميمه وإصلاحه. فقلت له والأخ المفتي يسمع: إنا نعدكم أن نرسل لكم مساعدة مالية مجزية، وإن لم تكف لكل نفقات إصلاحه وترميمه، فإنها تساعد على ذلك.

وذكر المفتي أن المسجد يعتبر الآن بحكم المستعاد، لأن الحكومة وافقت على ذلك، وإدارة المرور لا تمانع فيه، ولكنها تذكر أنها تنتظر الحصول من الحكومة على مقر بديل، بل أخبرونا أن الحكومة حددت عام ١٩٩٥م تاريخاً لإخلاء المسجد، ولكنها لم تفعل ذلك حتى الآن.

وقد سلم المسجد من التخريب، فبقيت منارته شامخة غالبت الزمن، حيث مضى على أول بناء المسجد أكثر من مائة سنة، وهي مبنية من الحجارة، حتى إذا ارتفعت نحو (٢٥) متراً بنيت من خشب جيد قوي، رص بعضه إلى بعض، يعلوه رأس المنارة من الحديد، فوقه شاهد أبيض في شكل مخروطي حاد.

لم ندخل المسجد، فهو مشغول - كما قلت - بشرطة المرور، كما أنه لم يسلم للمسلمين، لذلك اكتفينا برؤيته من الخارج، وقلت للمفتي: إننا على استعداد لإرسال مساعدة له من الرابطة إذا استرجعتموه، وبدأتم في إصلاحه.

وبجواره منازل رثة، وموقف لسيارات خشنة مهملة، وأرض خالية من الزفت، وكلب ينبح من يراه في الشارع، مع أننا في وسط النهار.

وعلى ذكر الكلاب أقول: إن القوم في البلاد الروسية التي زرناها يتخذون الكلاب للحراسة، وغالباً ما تكون صغيرة لمجرد التنبيه على الغريب الذي يقترب من المنزل، ولهم ولع أيضاً باتخاذ القطط، واختيار الأجناس المتميزة منها.

عودة للجامع المركزي:

بدأنا العودة من حي (نوفا أسترويكا) في الثانية عشرة والنصف ظهراً، والسيارة لا تكاد تسير في أرض الشارع، ورأيت بعض البيوت في المدينة مبنية من الطين، اتضح ذلك من حالة بعضها التي ذهب طلاؤها، لأنهم يطلون الجدران الطينية بمادة الجص، ولكن هذه البيوت الطينية ليست الأكثر بين بيوت المدينة، وإنما أكثر البيوت القديمة مقامة من الخشب، أو مبنية حيطانها من الآجر، والباقي من الخشب، إلا أنها كلها تشترك في كون سقوفها مسنمة، وليست مسطحة.

ومررنا بسوق صغير للخضرات، أكثر العارضات فيه من النساء، وبضاعتهن نزرة قليلة من الطماطم أو الخيار أو نحوهما، مما ذكرني بالأسواق الشعبية في المدن الإفريقية العريقة في إفريقيتها خلف الصحراء، مع الفارق الكبير في ألوان الناس، وفي حالة الطقس في الشتاء ما بين هذه البلاد الثالجة وإفريقيا المعتدلة.

كما شد ذاكرتي إلى المدن الإفريقية هذه الشوارع السيئة الأرصفة، والحارات المهملة.

وعندما أبديت ملاحظتي على كثرة الغبار، وقلة الاخضرار في هذه الديار، قال المفتي: إن المطر قليل هذا العام، وإلاَّ فإنه إذا نزل نزولاً معتاداً اخضرت الأرض، وقلّ الغبار.

ومع ذلك رأيتهم غرسوا مساحات ضيقة من جزر الشوارع أو الميادين بزهور وردية صغيرة.

مع أعضاء الجمعية الإسلامية في مدينة أورنبورغ عند الجامع المركزي

وصلينا في الجامع صلاتي الظهر والعصر جمعاً في الثالثة والربع، ظناً منا أنهم قد فرغوا من صلاة الظهر، وتبين بعد ذلك أنهم لم يصلوا بعد، وأنهم يصلون صلاة الظهر في الثالثة، وهذا يساوي الساعة الواحدة لتوقيت موسكو وتوقيت جمهورية تتارستان المجاورة لهم.

وقد ارتدى الإمام العباءة العربية التي كانت عليه عندما استقبلنا في المطار، كما وضع على رأسه العمامة المدارة حول القلنسوة (الطاقية)، وهي طاقية تشبه الطربوش حمراء، وهذا شعار يعتبرونه لازماً لطالب

العلم، وللإمام عند قيامه بإمامة الناس، وصلى معه صلاة الظهر (١٤) شخصاً، ولم نصل معهم نحن، لأننا صلينا العصر جمعاً مع الظهر، وإلا لصلينا معهم نافلة.

وأغلب المصلين - إن لم يكونوا كلهم إلا واحداً - هم من المسنين، وهذا أمر يؤسف له، إذْ يدل على أن الشبان والصبيان لا يصلون في المسجد، وقد أكد لي القوم ذلك فيما بعد. وكان ثلاثة من المصلين يصلون وهم جالسون على كراسٍ موضوعه لهم في الصف لعدم استطاعتهم كف أعضائهم عند السجود والركوع.

وتأملت المسجد فوجدتهم كتبوا على محرابه: (**الله جل جلاله - محمد عبده ورسوله**) ومنبره خشبي مطلي بأسود عليه عصاً غليظة، يستعملها الإمام أثناء خطبة الجمعة، وفي رأسها حربة حتى تبدو كالرمح الغليظ.

إلى قرية الغربان:

وليس هذا اسمها، وإنما هو ترجمة له، واسمها (قارغالي) بمعنى الغربان - جمع غراب -، وتبعد (٢٧) كيلو متراً من مدينة (أورنبورغ) العاصمة.

ذهبنا إليها على سيارة صغيرة جديدة ذات زجاج معتم، يملكها سائقها أخونا نائل الذي أخبرنا أنه رزق اليوم بولد أسماه حيدر، فقلت له: ينبغي إن تضيفوا إلى اسمه لقب (مكي) لأنه ولد في هذا اليوم الذي جاءكم فيه زوار من مكة المكرمة، ومعنا سيارة أخرى، فكان خروجنا مع شارع ذي اتجاهين تفصل بينهما جزيرة غرسوا في جزء منها زهوراً وردية قصيرة، فعبرنا نهر (أورال) الذي يفصل بين أوروبا وآسيا، فكان أول ما

استرعى انتباهنا معمل، أو النقل إنه محطة لإنتاج الماء الحار والبخار الذي يستعمل للتدفئة، ثم وقعنا في الريف حيث توجد على الطريق أعشاب برية غير نضرة، وإن كانت كثيفة، فمررنا بقرية اسمها (قوش كل)، ومعناه البحيرتان، أو الزوج من البحيرات، ويسكن في هذه القرية جماعة من المسلمين يقدر عددهم ما بين (٤٠٠) إلى (٥٠٠)، وفيها مسجد، ولكن زيارتها ليست في برنامجنا، أما سائر السكان فيها الذين لهم الأغلبية فإنهم من الروس، ويبلغ عدد سكانها ألفين وخمسمائة.

ورأيت الأبقار ترعى الأعشاب، وهي أبقار حسنة المنظر، ولو كانت هذه الأعشاب البرية عند قوم يقدرون قيمتها مثل بني قومنا، أو مثل الدانيمرك التي ارتفعت بمستوى المعيشة فيها عن طريق استغلال إمكاناتها الزراعية إلى مستوى الدول الصناعية، لكانوا استفادوا منها الاستفادة الكاملة، بأن أكثروا من تربية الحيوان، ومن استغلال ألبانها، وما يشتق منها من زبد وجبن وقشطة، ولكن هؤلاء الناس كانوا قد اعتادوا على أن يكلوا الأعمال إلى الحكومة الشيوعية التي احتكرت الاستغلال الاقتصادي لها وحدها، ولذلك لم تكن لديهم حتى الآن التجربة أو الجرأة على ذلك.

وصلنا قرية (قارغالي) في الرابعة إلا الربع بعد أن تجاوزنا جسراً على نهر (ساكمار) الذي تقع القرية على ضفته الشرقية، فوقفنا عند جامعها الذي هو المسجد الوحيد فيها، بعد أن كان فيها أحد عشر مسجداً قبل الشيوعية، وكانت أكبر مما هي عليه الآن.

وجدنا أعيان القرية ووجهاءها في الانتظار في المسجد الذي استرعى انتباهي وجود لوحة عليه توضح تاريخه بأنه في عام ١٧٢٦م. ويبلغ عدد المجتمعين منهم (١٥) شخصاً، بينهم الإمام خليل الله بن فارج، وهو تتاري

القومية.

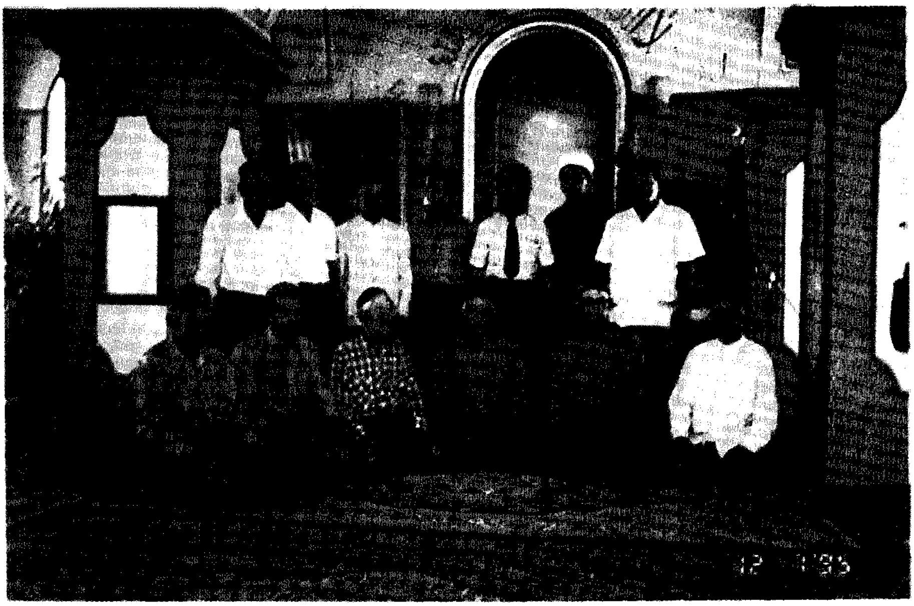

مع جماعة المسلمين في قرية الغربان قارغالي في أورنبورغ

قال الأخ المفتي: إنه ينبغي أن تلقي كلمة في هؤلاء القوم الذين ظلوا فترة ينتظرون قدومكم في المسجد، فألقيت فيهم كلمة كان المفتي الشيخ عبد الباري خير الله يترجمها جملة جملة، تضمنت إبلاغهم تحيات إخوانهم في المملكة العربية السعودية وبخاصة من مكة المكرمة والمدينة المنورة، وبينت لهم أهمية التعاون بين المسلمين، ونحن جئنا إلى هنا لنبحث مع أخينا حضرة المفتي أوجه التعاون بين الرابطة وبين دار الفتوى في هذه البلاد، وأوصيتهم بتقوى الله تعالى، وبمراقبته في السر والعلانية، وأن يخافوا الله في أولادهم فيربوهم تربية إسلامية، لأنهم أمانة في أعناقهم، لا بد من أن يسألوا عنها أمام الله تعالى، وأمام التاريخ، لئلا تنقطع هذه السلسلة الذهبية الإسلامية التي انتظمتهم منذ أن أسلم أجدادهم قبل أكثر من ألف عام، ثم أتبعت ذلك بالدعاء لهم.

وقد عقب أحدهم على كلمتي بالشكر وبقوله: إننا نريد معلماً

يتفرغ لتعليم أولادنا، هذا مع العلم بأن لديهم الإمام الحاضر معنا، وهو (خليل الله بن فارج)، ويعرف قدراً ضئيلاً من العربية، لا يستطيع أن يفهم به غيره، ولا إن يفهم ما يقوله له من يتحدث العربية وحدها. فقلت لهم: إنه لا مانع لدى الرابطة من تخصيص معلم لهم من أبناء هذه البلاد الذين تخرجوا من مدارسها، فهم أجدر بأن يتفرغوا لتعليم أولادهم، وهم أقل طلباً للراتب الكثير من غيرهم.

والمسجد ذو مظهر جيد من الداخل، وإن لم يكن فاخراً، وهو مفروش بسجاد معتاد.

ثم تكلموا عن تاريخ المسجد فذكروا أن تاريخ بنائه يرقى إلى أكثر من مائتي سنة، وأن جميع أهل القرية هم من المسلمين، ويقع المسجد على شارع ترابي خالٍ من الإسمنت، عليه بيوت من الخشب مطلية بطلاء أبيض وأخضر، وكلها بيوت لإخوة مسلمين، ويبلغ عدد سكان القرية في الوقت الحاضر ثلاثة آلاف نسمة.

مأدبة القرية المسلمة:

ولم أرد أن أكتب العنوان الذي يتبادر إلى ذهني هنا، وهو مأدبة الغريان الذي يراد به القرية التي اسمها (الغريان)، فبعد التعارف والكلام الذي حصل مع أهل القرية عند اللقاء بهم في المسجد، انتقلنا بالسيارات إلى بيت أحد وجهاء القرية وهو أخونا (عبد القدير بن قيوم) الذي يقع على ضفة نهر (ساكمارا) مباشرة، لا يفصل بينهما إلا مساحة ضيقة نمت فيها أعشاب برية كثيفة.

فوقفنا أولاً على ضفة هذا النهر الذي هو ليس كبيراً، ومع ذلك لو

كان في بلاد تشكو من شح المياه لصار مذكوراً، بل مشهوراً، تؤلف في ذكره الكتب، أو تنظم فيه القصائد، فهو أكبر من نهر بردى في دمشق ثلاث مرات أو أربعاً.

وطاب لي المنظر، فالتقطت فيه عدداً من الصور.

نهر ساكمار قرب قرية قارغالي في أورنبورغ

وعندما دخلنا إلى بيت الأخ عبد القدير وجدنا المائدة منصوبة في إحدى غرفه، وقد أغلق سائر النوافذ فيه تجنباً لدخول الذباب الذي كان كثيراً خارج البيوت في القرية، وربما كان ذلك بسبب كثرة الأبقار فيها، وما تفرزه من فضلات، أو يسبب فضلات أهل القرية في هذه البلاد السيئة الإدارة، العرجاء الخدمات.

وعلى المائدة كانوا وضعوا مقدماتها، وهي تفاح من المنطقة، صغير لم أرَ من مسه منهم، ولبن رائب (زبادي)، وكعك لين(كيك)، وخبز، وحلوى مقرطسة، أي كل واحدة ملفوفة وحدها في قرطاسة، وزبد.

ثم جاء الطعام الحار، وأوله الحساء المعروف هنا، وهو حار رغم

كون الجو حاراً في المكان، بل كنا نتصبب عرقاً بسبب إغلاق النوافذ، وعدم وجود ما يخفف من الحر عندهم، لأنهم لا يعانون من مشكلة الحر مثلما يعانون من مشكلات البرد.

ثم جاء بأطباق مليئة بلحم الضأن السمين، ذي الرائحة الزكية التي ذكرتني برائحة اللحم عندنا في القديم، عندما كان قومنا يطبخون اللحم وحده من دون أن يضيفوا إليه ما يغير لونه أو طعمه من بهارات أو إضافات أخرى، وقد بلغ من سمنه أن كان شحمه يساوي الهبر فيه، لأنهم لم يبعدوا عنه الشحم قبل الطبخ، ثم جاؤوا بالأرز شبيهاً بالمصري من حيث قصر الحبة، وتلاصق بعضه ببعض، وإن كان أكثر دسماً، وفيه قطع صغيرة من لحم الضأن أيضاً.

وقد جلس على المائدة من مرافقينا ومن أهل القرية نحو اثني عشر شخصاً.

وفي أثناء ذلك أمر مضيفنا الأخ عبد القدير ابناً له في السادسة عشرة من عمره بتلاوة آيات من القرآن الكريم، فقرأ سورة الفاتحة قراءة جيدة، واسم ابنه (رئيف).

وبيته نظيف من الخشب كله، إلا أنه واسع ذو غرف عديدة، وقد كسا حيطانه الخارجية بلبن من الآجر الأبيض.

هذا وفي ختام المائدة طلب المفتي من إمام القرية الأخ خليل بن فارج تلاوة آيات من القرآن الكريم، فاستعد لذلك وتنحنح، ثم تعوذ وبسمل، فظننته سيقرأ من سورة النحل، أو سورة فاطر، ولكنه قرأ سورة الفاتحة لم يزد عليها، فانبرى المفتي وقرأ آيات من وسط المصحف، ثم ختموا المأدبة بالدعاء كعادتهم، وهو دعاء لا يدري صاحب المحل ما هو، لأن الإمام أو

المفتي مثلاً يرفع يديه، ويهمهم بدعاء قصير لا يسمعه منهم أحد، ثم يقول آمين. فيقولون بعده: آمين، ويمسح الجميع وجوههم بأيديهم بعد الدعاء.

المؤلف في محراب مسجد قرية الغربان قارغالي في أورنبورغ مع إمام المسجد الشيخ خليل بن فارج

وقد أعلنت لهم كما أعلنت لأهل المساجد التي زرناها من قبلهم أننا سنقدم مساندة مالية عاجلة من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة للمساعدة على النفقات المتكررة للمسجد، مثل نفقات الكهرباء والتدفئة، فشكروا ذلك.

وأعجبتني وقفة في شرفة المنزل الخارجية مرتفعة، يصعد إليها بدرج خشبي، وتطل على نهر (ساكمارا)، فالتقطت له منها صورة.

كما التقطت صورة تذكارية على جسر فوق النهر مع الأخ نائل صاحب السيارة، ورأيت البط يتبختر في شوارع القرية مثلما يتبختر البقر فيها. ومن الأشياء التي لاحظتها في القرى الزراعية في أكثر أنحاء العالم، وقد زرت العالم كله، أن قرى المسلمين يكثر فيها البط، وقرى النصارى

تكثر فيها الخنازير، والمراد بذلك القرى الريفية.

وأما أهل الأديان الأخرى، كأهل البوذية والهندوكية، فإن قراهم يكثر فيها الحيوان غير المأكول، كالقرود إلى جانب البقر الذي يعظمونه، ولا ينفرونه، ولا يضربونه، فضلاً عن أن يذبحوه، لأنهم يزعمون أنه معبود لهم، وأنه قد اجتمع في البقرة ثلثمائة مظهر من مظاهر الآلهة كما يقول أحد زعماء الديانة الهندوكية في الهند.

المؤلف في شارع في قرية قارغالي في أورنبورغ

وليس في القرية شوارع مزفتة، وبيوتها من الخشب كما قدمت، إلا أنه ينبغي التنويه هنا بأن أسوارها هي أيضاً من الأخشاب التي تكون على هيئة ألواح صغيرة متقاربة أو مرصوصة، أو على هيئة أعواد قوية من الخشب مرصوصاً بعضها ببعض.

السفر إلى مدينة أورسك:

عدنا إلى مدينة أورنبورغ في الساعة السادسة، فأخذنا أمتعتنا،

وخرجنا إلى المطار مباشرة للسفر إلى مدينة (أورسك) إحدى المدن الرئيسية في إقليم (أورونبورغ) هذا.

كان موعد قيام الطائرة الذي عرفه الأخ عبد الغفور رئيس الجمعية الإسلامية في أورنبورغ، وهو الذي سعى في أمر سفرنا، هو السابعة، لذلك خرجنا في السادسة والربع إلى المطار، وجلست مع المفتي في قاعة الترحيل، فأخبرونا أنهم لن يبدؤوا العمل في الرحلة إلا في السابعة، لأن الطائرة ستقلع في السابعة والنصف.

وكنا اشترينا تذاكر محلية بأربعين دولاراً للشخص الواحد، مع أن المسافة إلى اورسك هي (٣٧٠) كيلو متراً، ولكن الأجنبي يدفع ضعف ما يدفعه المواطن الذي يراد به من يحمل جنسية روسيا، أو دول الاتحاد السوفيتي السابق. وهذا له مثيل في المرافق العامة الأخرى كالفنادق، والقطارات، والحافلات، فالأجرة فيها للأجنبي أمثالنا هي ضعف الأجرة للمواطن.

وفي السابعة قطعوا التذاكر، ولم يزيدوا على ذلك، فلم يعطونا بطاقات الصعود إلى الطائرة المسماة (بوردنغ باص)، كما أنهم لم يتسلموا أمتعتنا، وقالوا: عليكم أن تحملوها إلى الطائرة مثل غيركم من الركاب.

وهذا صعب علينا، لأن معنا أربع حقائب خلاف الحقائب اليدوية، ولكن الأخ المفتي الذي كان معنا، وسوف يرافقنا إلى (أورسك) ساعدنا مع بعض العاملين في الإدارة الدينية الذين كانوا في الوداع.

دخلنا إلى الممر الذي يؤدي إلى قاعة المغادرة ونحن نسحب حقائبنا مرة ونحملها مرة أخرى، ولاحظت أن الركاب ليست معهم إلا أمتعة خفيفة، ربما كان ذلك تلافياً لصعوبة حملها إلى الطائرة وإنزالها منها، أو

لكونهم لا يملكون مثل تلك الحقائب، وعند باب الممر قبل الدخول وقفت موظفة معها بيان بأسماء الركاب، طلبت من كل واحد منا أن يريها جوازه، وتذكرة سفره، فأخذت تقارن ذلك بالبيان، أي القائمة المكتوبة معها بأسماء الركاب وأعدادهم، وكلما تأكدت من وجود اسم الراكب ضربت على اسمه في البيان، بمعنى خطت فوقه خطاً، ثم ختمت على تذكرته.

وبعدها أدخلنا أمتعتنا إلى فاحص كهربائي، ثم انتقلنا إلى قاعة المغادرة، وهي صغيرة فيها كراسٍ غير كافية، ولكن الركاب تجنبوا الجلوس عليها لعلمهم أن موعد الخروج إلى الطائرة قريب، فهم لا يسمحون للركاب بالدخول إلى قاعة المغادرة إلاَّ قبيل موعد الصعود للطائرة.

وعدد الركاب قليل، لم يزد على (٢٥) بالغاً و(٤) أطفال، وكلهم ذوو هيئة أوروبية إلا أربعة منهم تظهر عليهم الملامح والتقاسيم القازاقية التي تجمع بين الملامح التركية الأصيلة، وشيء من الملامح المغولية.

ووقفت حافلة كبيرة واسعة عند باب القاعة مما يلي موقف الطائرات، فحملنا أمتعتنا معنا إليها، وهي ثقيلة، وكذلك فعل سائر الركاب بأمتعتهم التي هي خفيفة.

ثم صعدنا بها إلى الطائرة، ووضعناها في المكان المخصص لوضع الأمتعة في مؤخرة الطائرة.

ووجدنا الطائرة مروحية صغيرة ذات محركين من طراز أنطونيف.

وفيها أحد عشر صفاً، كل صف فيه (٤) كراسٍ، مجموع كراسيها (٤٤)، وكذلك بقيت بعض الكراسي خالية رغم كوننا وجدنا في الطائرة بعض الركاب العابرين.

ولم تكن فيها مضيفة كما هو المعتاد، وإنما جعلوا فيها مضيفاً شاباً، جلس في مؤخرة الطائرة مع الركاب، ولم يقم بأي عمل طوال الرحلة.

وأقلعت الطائرة في السابعة والنصف متأخرة خمس دقائق عن الموعد المحدد لقيامها، وليس فيها صمامات للهواء، ولا أي وسيلة من وسائل التهوية، لذلك شعرنا بعدم الراحة. ولم تختلف المناظر في الأرض عما كانت عليه بالأمس، فليس غير الحقول التي بعضها مزروع أخضر، أو معشبة عشباً غير نضر، أي ليس كامل الخضرة، أو حقول قمح حصيد صفراء اللون، أو أرض مراحة تهيئة لزراعتها في العام القادم.

والأرض أيضاً سهول حتى الآن، فلا جبال ولا وديان.

ولم يتحرك المضيف أو غيره من العاملين في الطائرة حتى القليل من الماء المعدني الذي اعتادوا على تقديمه في الطائرة، وهو ثلث كأس أو ربعه يجعلونه في فنجان من اللدائن في العادة، لم يقدموه.

ثم تغيرت مناظر الأرض تحتنا بعد أن أمضت الطائرة (٢٥) دقيقة من الطيران، فظهرت تلال عالية بينها وديان، أحدها فيه نهر صغير، وفي تلك الوديان قطع من الأشجار، وقليل من الغابات، وأما ظهور التلال فليس فيها شيء من ذلك.

أما طيران هذه الطائرة الصغيرة فإنه مريح وهادئ، مثل طيران أمس، وهذا أمر عرفته من الطائرات الروسية، وهو هدوءها في الجواء - جمع جو - سواء كانت نفاثة أو مروحية، ثم كثرت التلال وتعددت أشكالها، وما تزال الطائرة تتجه اتجاهها الصحيح إلى (أورسك) وهو جهة الشرق من مدينة (أورنبورغ).

مطار أورسك:

تدنت الطائرة وهي تتدلى فوق أراضٍ شهباء، أكثرها أماكن حقول متروكة بلا زراعة، وأعشاب من أعشاب الربيع الخضر، وقمح حصيد. وقبيل المطار رأيت سداً مقاماً على وادٍ صغير فيما يشبه الصحراء لولا كثافة الأعشاب الجافة.

هبطت الطائرة في مطار (أورسك) في الثامنة وثمان عشرة دقيقة عصراً، بعد طيران استغرق (٤٣) دقيقة، وما تزال الشمس حية، بل ما يزال النهار فتىً، كما كان الأدباء القدماء يعبرون.

فكان من المناظر الجميلة حول مدارج المطار زهور من زهور الربيع الصفر تزين الأعشاب الربيعية، وهي تذكرني بأزهار الرياض - جمع روضة - في نجد عندما يجودها الغيث، فتزدهر فيها أعشاب الربيع.

أما الأعشاب هنا فإن أكثرها بدا عليه الجفاف.

وقفت الطائرة في ساحة الوقوف في المطار وهي ضيقة، والمطار غير واسع، ولم يتحرك الركاب من مقاعدهم عندما وقفت الطائرة، بل ظلوا سكوناً لا يفهمه من لا يعرف سببه، وذلك أن عادتهم ألا ينزل الركاب، بل لا يقوموا من مقاعدهم حتى ينزل الملاحون من الطائرة، وقد نزلوا - بالفعل - وهم ثلاثة في هذه الطائرة الصغيرة.

وحملنا أمتعتنا بعد أن أنزلناها بأنفسنا من الطائرة، ووجدنا في الاستقبال أربعة من الإخوة المستقبلين، على رأسهم الأخ (فاضل جان طاهروف) رئيس جمعية المسجد، ويسمونه (متولي)، ومعه ابنه طلعت يسوق سيارته، وهو من التتار تزين صدره وكتفيه أوسمة عديدة، سألته عما إذا كان يعمل في الجيش؟ فقال: كان ذلك في القديم، فهو الآن متقاعد.

ومظهره لا يكاد يختلف عن مظهر العرب من أهل شمال إفريقية، والأخ مغاي باي وهو من القازاق مظهراً ومخبراً، حيث تتجلى الملامح القازاقية فيه، وهي الملامح التركية الأصيلة، مختلطة بشيء من الملامح المغولية، في سيارة ثانية يقودها الأخ (قادر جان بن ساودا) الذي نوهوا بأن جده هو الذي بنى مسجد (أورسك) الحالي.

لم نضع أي وقت في المطار الذي خلا بسرعة من الناس لقلة ركوب الطائرة عندهم بين البلدان المتقاربة، وإنما اتجهنا فوراً إلى المدينة، فركبت سيارة الأخ مغاي باي القازاقي الذي لا تخفى (قازاقيته) على أحد، ورأيت السائق أيضاً عليه ملامح القازاق، فسألتهم عن حدود جمهورية (قازاقستان) من هذه الناحية، فأجابوا أنها ملاصقة، أي لا تبعد عن المطار إلا بكيلوين اثنين، أما مدينة (أورسك) نفسها فإنها تبعد عنها أربعة عشر كيلو متراً، وبالنظر إلى ما ذكرته من قبل، من كون حدود جمهورية روسيا الاتحادية قد زحفت قليلاً في اتجاه حدود جمهورية قازاقستان حتى اخذت منها قطعاً ليست بذات أهمية في هذه البلاد ذات المساحات الشاسعة، فإن أراضي الجمهوريتين كلتيهما كانت تعتبر أراضي روسية بحكم الغلبة والتملك القسري في عهد القياصرة، ثم أراضي الاتحاد السوفيتي في عهد الشيوعيين.

ويبعد المطار عن مدينة (أورسك) (٩) كيلو مترات، سارت فيها السيارة مع خط إسفلتي جيد، إلا أنه غير واسع، وتحف به أعشاب جافة، لكنها صالحة لرعي الماشية، وذكروا أن الأمطار قليلة في هذه السنة، وهي أمطار صيفية، أما الشتاء فإنه الثلج المطبق.

ولم أرَ على طريق المطار أشجاراً مغروسة، وبادرني الإخوة المرافقون بقولهم: هذه صحراء، وكرروا كلمة صحراء، مع أن الأعشاب فيها

كثيفة، وقالوا: هذه الأعشاب تنبت بعد ذوبان الثلوج في الربيع، ثم يسقيها مطر الصيف، وهي مراعٍ جيدة، واستوضحتهم عن ذلك، فذكروا أن معنى كونها صحراء أنها ليس فيها أشجار، وإنما الأعشاب المذكورة.

ومثلما تلتقي أو تقترب حدود جمهورية قازاقستان من جمهورية روسيا الاتحادية عند هذه المدينة، فإن حدود جمهورية مسلمة أخرى، هي جمهورية (بشقردزستان) التي تسمى بشكيريا - نسبة إلى أهلها البشكير وهم (البشقرد) في كتبنا العربية القديمة تقترب - حتى لا تبعد حدود جمهورية (بشقردز) عن مدينة أورسك إلا بـ (٥٠) كيلو متراً، ويمكن للقارئ الكريم إذا أراد أن يقرأ شيئاً عن جمهورية (بشقردز ستان) أن يرجع إلى كتابي: ((**ذكريات من الاتحاد السوفيتي: بلاد الروس والبشقردز**))، فقد ذكرت فيه مشاهداتي عن حاضر تلك الجمهورية المسلمة، وما ذكره علماؤنا العرب الأوائل في كتبهم عن أحوالها وأحوال أهلها القدماء، مما لا يعرفه المحدثون من بين قومنا.

نهر أورك:

قبيل الوصول إلى المدينة انحدرنا انحداراً قليلاً إلى وادٍ يجري فيه نهر غير كبير اسمه (أورك)، وقد التبس اسمه في ذهني باسم نهر (أورال) الذي عرفت أنه يشق المدينة، فذكروا أنه نهر آخر، وأنه أصغر من نهر (أورال)، فقلت في نفسي: أين الصحراء من مدينة يشق وسطها نهر، ويجري في ضواحيها نهر آخر ؟.

وحول ضفتي نهر (أورك) زراعة ملتفة، إلا أنها غير واسعة، إذْ تحاصر المرتفعات الجرداء الوادي الذي يجري فيه النهر.

كان أول ما رأيناه من المدينة صفاً من الأبنية الحكومة المتعددة الطوابق المؤلفة من شقق سكنية صغيرة، ومع أنها عالية، فإنها تقع على شارع غير واسع، ورأيتهم يعيدون صب الزفت فوق الشارع ليصلحوا ما أفسده الدهر والإهمال فيه.

وعلى هذا الشارع أعمدة الكهرباء الخشبية، وهي تحمل الأسلاك التي تجري فيها الكهرباء لتدخل إلى البيوت، وهذا أمر تجاوزته أكثر البلدان، إذْ أصبحت حبال الكهرباء أو ما تفرع منها تدفن تحت الأرض.

ووصلنا إلى حي في القسم القديم من المدينة، بيوته من الخشب، وبعضها تكون حوائطه من الحجارة، وكلها ذات سقوف مسنمة من الصفيح.

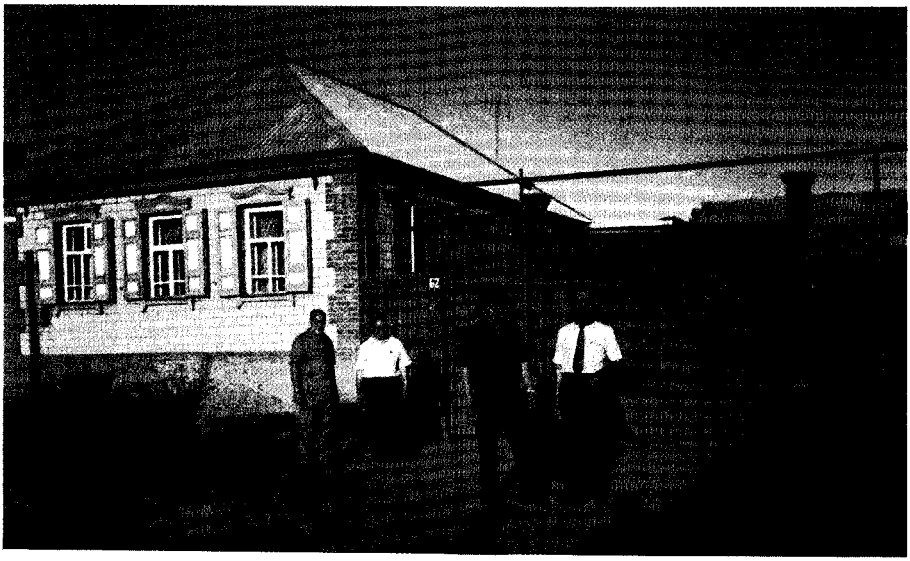

أمام بيت الأخ فاضل جان رئيس جمعية المسجد في أورسك مع الأخ قادرجان القازاقي

وقفت السيارات عند بيت أخينا (فاضل جان) الذي يقع على شارع سيئ السفلتة، قد نبتت في مكان الأرصفة منه أشجار برية قصيرة،

ولاحظت أن طلاء البيوت على شارعه هو الأصفر والأحمر، مما أعطى الانطباع بأنها تشبه طلاء البيوت الإفريقية الجيدة، إذ الإفريقيون يحبون اللون الأصفر والأخضر والأزرق، لا سيما إذا كان اللون فاقعاً.

تقدمنا الأخ فاضل جان إلى بيته بعد أن فتح باب حوشه الخارجي، ونبحنا كلب صغير لهم كان بجانب البيت كالعادة.

صعد مع درج خشبي إلى حيث الطابق الثاني، فصعدنا خلفه، وعندما دخلنا بيته رفع يديه بدعاء رمزي قصير، وكان فعل مثل ذلك عندما قابلنا قبل هنيهة في المطار.

والبداءة بالدعاء عند اللقاء أمر شائع في هذه البلاد الشمالية، وبعض بلاد ما وراء النهر، وهو دعاء رمزي قصير، بحيث لا يتأنى الداعي، ولا يرفع صوته بالدعاء، ولذلك لا تدري ما يقول، ومثل ذلك أو ألزم منه عندهم الدعاء بعد الانتهاء من تناول الطعام.

وبيت الأخ (فاضل جان) له فناء خاص به، وهو منفرد من طابقين، مبني أو على الأصح مقام من الخشب، ومثل هذا البيت لا يحظى به إبان الحكم الشيوعي إلا من كان ذا حظ عظيم، أو مقام في الدولة كبير، أو ورثه عن أحد أبويه، لأنه لم يكن يسمح ببناء البيوت المنفردة في المدن في ذلك الوقت، وإنما البيوت الشائعة لعامة الناس هي المؤلفة من شقق سكنية صغيرة.

جلسنا في غرفة الجلوس في بيت الأخ فاضل جان المؤثثة بمقاعد لا بأس بها، بينما رأينا زوجته وهي سيدة مسنة في المطبخ الذي كان في طريق الدخول إلى غرفة الجلوس.

وقد دارت أحاديث مفيدة، بل مهمة لنا عن الوضع في هذه المدينة

بالذات، وعن الوضع الإسلامي في المنطقة عامة.

كما بحثنا معه برنامج زيارتنا القصيرة للمدينة.

الشارع الذي فيه بيت الأخ فاضل جان رئيس جمعية المسجد في أورسك

ثم جاءت زوجته وكلمته، فذهبنا إلى المائدة في غرفة مجاورة عليها فطائر وبسكويت وشاي ومشمش مجفف وزبدة وحلوى مقرطسة، أي كل قطعة صغيرة منها مغلفة بالورق، وهي من الحلوى القديمة المعتادة عندنا، ولم يمسها منا أحد كالعادة، ولكنهم يأتون بها للمائدة أشبه ما يكون بالأمر المظهري فقط.

كما وضع على المائدة نوعين من الفاكهة المحلية، كلاهما لم نستسغ طعمه، ولم نعرف اسمه، كما أن الأخ المفتي الشيخ عبد الباري خير الله، وهو من أهل المنطقة، ويعرف قدراً صالحاً من العربية تعلمه في مدرسة مير عرب في بخارى، ثم ذهب إلى عمان على منحة دراسية لتعلم العربية قدمتها حكومة عمان له، ولعدد من الأئمة في هذه المناطق، لم

يعرف اسم هذه الفاكهة بالعربية، وهو على حق، إذْ لا نظير لها عندنا، ولذلك لا أعتقد أن لها اسماً شائعاً، فإذا كانت ذكرت في بعض الصحف أو الكتب العربية، فلا شك أن ذلك غير معروف لأكثر الناس، وأحسن وصف لها أنها تشبه ما يسمى بعنب الذيب (الذئب)، وهي حبات صغيرة كروية كحبات العنب الذي لا بزر له المسمى بالبناتي، إلا أنها حمراء، ويمكن أن توصف بأنه في القدر واللون كحب الرمان، إلا أنه كروي الشكل، بخلاف حب الرمان الذي هو كلوي الشكل، والغريب أن في طعمه قرباً من طعم حب الرمان.

والفاكهة الثانية تشبه (حب الملوك) كما يسميه المغاربة، وهو المعروف عندنا في الشرق بالكرز، إلا أنه صغير الحجم، حامض الطعم.

تناولنا من هذه المائدة التي أحضر إليها الخبز، وجلست زوجته المسنة معنا، وهي أم لأولاد لهم أولاد

وعندما فرغنا من المائدة كانت بقيت من النهار ثمالة، أردنا نستغلها برؤية بعض معالم المدينة، إلا أنني لم أجد عند القوم انشراحاً لذلك، وإنما أخذنا طلعت ابن الشيخ فاضل جان بسيارته (اللادا) إلى فندق في المدينة اسمه (**فندق الأورال**) إضافة إلى نهر (أورال) الذي يشق المدينة، مثلما يشق مدينة (أورونبورغ) فاصلاً بين قسميها إلى قسم أوروبي، وقسم آسيوي، أو إضافة إلى جبال الأورال التي تعتبر من هذه المنطقة حداً لسيبريا، وقد يعتبرها بعضهم الحد الطبيعي الظاهر بين قارتي آسيا وأوروبا، وإن يكن القول استقر الآن أن الذي يفصل بين آسيا وأوروبا هو نهر (أورال).

دخلنا إلى الفندق مع غروب الشمس، وغرنا مظهر مدخله، فحسبناه

جيداً، وقد ذهب السائق طلعت بالسيارة وعندما دخلنا الفندق، وجدناهم يجددونه ويعيدون طلاء حيطانه، مثله في ذلك مثل كثير من الفنادق والأماكن العامة في البلاد.

أما الحمام، فإنه لا يوجد إلا محل واحد للدور الذي يتألف من حوالي (٢٠) غرفة، فيه مرحاض واحد غاية في القذارة، يكفيه رداءة أن يوصف بأنه مرحاض شيوعي، فما رأيت في العالم كله، في طوله وعرضه أكثر قذارة، بل أفظع قذارة من المراحيض والحمامات العامة في الدول الشيوعية، ابتداء من الصين وانتهاء بأقطار أوروبا الشيوعية.

وأخذ الرفقة يتشاورون فيما يعملونه تجاه ذلك، وليس معنا الآن من أهل البلد أحد، ولا نعرف فيها فندقاً آخر، فاستقر الرأي على التسليم بالبقاء فيه لهذه الليلة، مع مغادرته في الصباح المبكر غداً، لأن موعدنا مع زعماء المسلمين في المسجد الجامع في الساعة التاسعة صباحاً منه.

وأجرة الفندق (١٢٨) ألف روبل، ويساوي ذلك (٢٨) دولاراً أمريكية على وجه التقريب.

ولم نجد في الحمام العام أي حمام، بل هو مجرد مرحاض قذر، وحوض لغسيل الأيدي قذر أيضاً، وأما الحوض الذي في داخل الغرفة، فإنه لا بأس به، إلا أن ماءه بارد جداً كأنما أخرج من ثلاجة.

وفي الغرفة تلفاز فاسد، لا تتضح فيه الصورة، وهكذا في بقية الغرف، ولاشك في أنه من الأجهزة التلفازية المستعملة التي حاولوا إصلاحها، إذ ليس له مفتاح، وإنما قالت المرأة الوحيدة التي رأيناها تعمل في الفندق: إنه يعمل بإيصاله بالتيار الكهربائي، ويوقف عن العمل بنزع توصيلته عنها، وليس في الغرفة ثلاجة، وجميع أثاثها وفق الذوق الروسي

المميز الذي يظهر في التقتير، وسوء التدبير.

وأسرعنا نصلي المغرب والعشاء جمعاً، ثم نمنا مبكرين، إلا أن نومنا شابه غزو هادئ من حشرات لاسعة صغيرة من حشرات البلاد الباردة التي تكثر في فصل الصيف، لتعوض بذلك ما فاتها من سبات في فصل الشتاء الطويل.

يوم الخميس ١٥/٢/١٤١٦هـ ١٣/٧/١٩٩٥م.

صباح الأورال:

والأورال هنا هو الفندق، وهو المنطقة القريبة من نهر الأورال، وغير البعيدة من جبال الأورال.

نلت كفايتي من النوم، وصحوت مبكراً مع الفجر، فإذا بالنور يغمر الأفق، فظننت أنني قد تأخرت في الاستيقاظ، لكن تبين أن الأمر يتعلق بحالة السماء في هذه البلاد الشمالية، فالفجر يسفر مبكراً مثلما أن الشفق يغيب متأخراً، وفي الصيف لا يكون فيها فاصل بين غروب الشفق وإسفار الفجر، بل يتصل هذا بهذا، حتى يشكل على المرء الذي عاش في البلدان المعتدلة والحارة مثل بلادنا كيفية التصرف في أوقات الصلوات في مثل هذه الحالة، وكنت سألت الأخ الشيخ عبد الباري خير الله مدير الإدارة الدينية في أورونبورغ عن ذلك، فقال: نحن نقدر للأمر تقديراً، فصلاة المغرب الآن هي في العاشرة والنصف، وصلاة العشاء في الحادية عشرة، ونصليها مع وجود الشفق، وهو النور الذي يبقى في غرب السماء بعد مغيب الشمس، لأنه لا يذهب، أما الفجر فإننا نصليها قبل طلوعها بساعة، لأن الفجر يسفر مبكراً، إذ يشاهد في أطول أيام الصيف في الواحدة والنصف بعد منتصف الليل.

وقد كان منظر النافذة في غرفتي على ميدان فيه دوار قد غرس بالزهور، وجمّل تجميلاً لا بأس به، إلا أنني عندما قارنت جماله بحال فندقنا تبادر إلى ذهني النفاق الشيوعي الذي كان يجعل بعض الأشياء التي يراها الأجانب حسنة المظهر، وأما التي لا يراها إلا عامة الشعب فإنه لا يهتم بها.

ونظرت إلى جهة الشمال حيث جهة القطب الشمالي الذي كنت في إحدى مدنه قبل سنوات، في ٢١يونيو، وهو أشد أيام السنة دفئاً هناك، ولا نقول حراً، لأنه لا يوجد فيها حر، ومع ذلك كان البرد قارصاً، إذْ كانت درجة الحرارة (٣) درجات فوق الصفر، وهذا هو صيفهم، وقد علتني قشعريرة البرد عندما تصورت ذلك المكان وما يقاربه، إلاَّ أنه ليس محاذياً لهذه الجهة، وتصورت برده، وثلجه الذي رأيت بعضه في ضواحي مدينة (مورمانسك) ويسمونه الثلج الأزلي، بمعنى أنه لا يذوب أبداً، فما دام أنه موجود في أشد أيام الصيف دفئاً؛ حيث لا تغرب الشمس مطلقاً عن تلك المدينة، فإنها تزداد صلابته ويتكاثف عليه ثلج آخر في أكثر أيام السنة.

ولم يكن صباح الأورال نادياً، فلم ننل إفطاراً دسماً، وإنما صنعنا الشاي في غرفنا، ثم أكلنا مما نحمله من طعام يابس، منه الكعك اليابس (الشابورة)، والتمر، وما أشبه ذلك، فلم نسأل عن الإفطار في الفندق لعلمنا بأنه ليس فيه ما نريد، إضافة إلى كوننا لا نأمن أن يكون قد مسه أو قارب ما مسه لحم الخنزير أو شحمه.

في جامع أورسك:

حان موعد الذهاب إلى جامع (أورسك) للالتقاء بزعماء المسلمين، وبحث الأمور المتعلقة بالعمل الإسلامي في هذه البلاد، والنظر في إمكان تقديم مساعدة عاجلة إلى أهل المسجد إذا كان المسجد يحتاج إلى مساعدة.

كان الجو عندما خرجنا في هذا الصباح بارداً، ولكنه برد الربيع الذي يؤول إلى دفء، وهو سيؤول آخر النهار إلى ما قد يصل إلى درجة الحر، إذْ كان الجو عصر أمس يميل إلى الحرارة، مما يؤكد الطابع القاري لجو هذه البلاد.

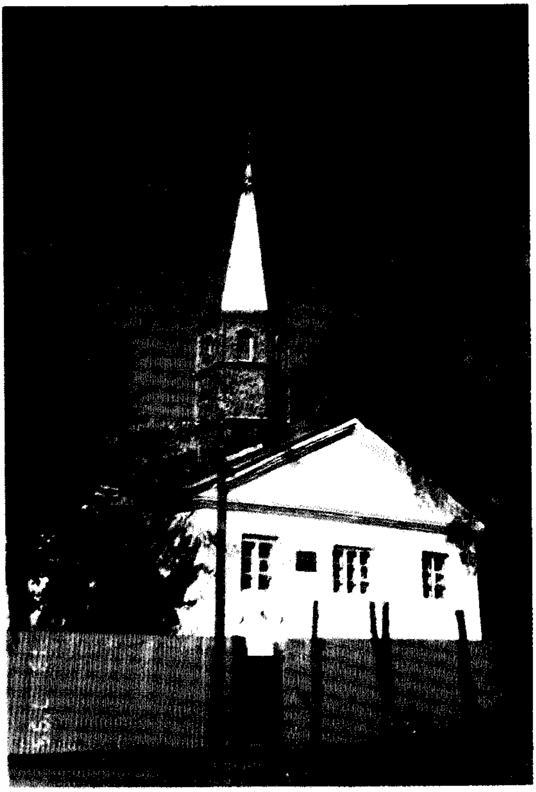

جامع أورسك

مررنا في الطريق إلى المسجد بميدان مهم عندهم يسمونه (ميدان قاقارين) وهو يوري قاقارين أول رائد فضاء في العالم، وهو روسي كما هو معروف، وقد احتفلوا به، وأطلقوا اسمه على ميادين وشوارع عديدة في المدن الروسية.

ومنه سلكنا شارعاً مشجراً، ووجود الأشجار في هذه البلاد لا يسترعي الانتباه لكثرتها، ولكن كونها مغروسة على جانبي الشارع ومنسقة هو الذي يسترعي الانتباه.

وفي هذا الشارع خطوط قطار الكهرباء القصير المسمى في مصر بالترمواي، وفي بيروت بالترام، وسيارات كبيرة تنفث الدخان، وشاهدنا في

هذا الصباح عجائز روسيات متغضنات الوجوه، وهن يبدو من حالهن كما لو كن يشعرن بالبرد إذ هن متقبضات الأجسام، وهن يمشين بالشارع ثقيلات الأجساد.

ووصل الشارع إلى نهر (أورال) الذي يفصل بين قارتي آسيا وأوروبا، وتقدم ذكره عندما رأيناه في مدينة أورونبورغ، فهو هنا يقسم المدينة إلى قسمين بين قارتي آسيا وأوروبا، مثلما يفعل في أورونبورغ.

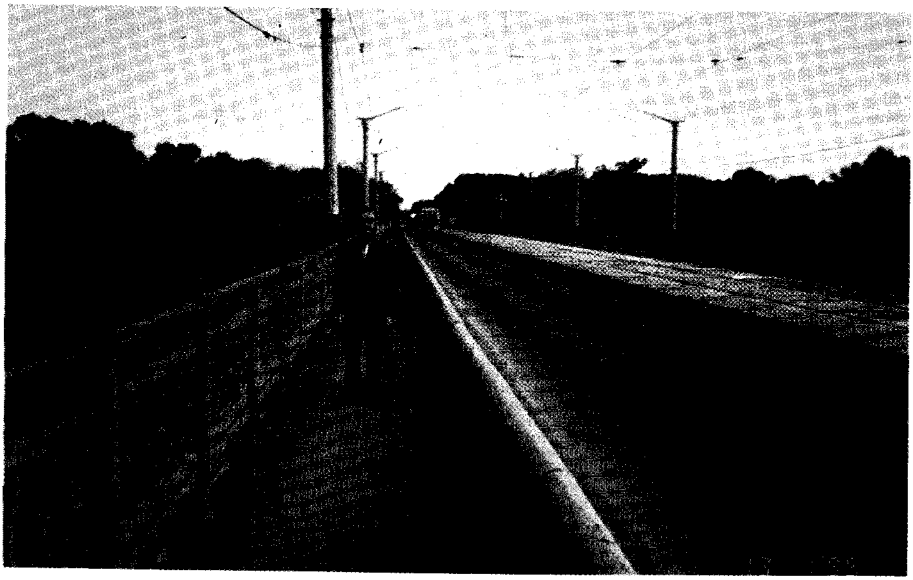

فوق الجسر الكبير على نهر أورال في أورسك

وعليه جسر قوي وقفنا عنده، ولكنه متسخ إلى درجة مزرية، فالتراب والغبار يغطي طريق المشاة الواقع على جانبي الجسر مفصولاً عن طريق السيارات، وجوانب الجسر قد بعد عهدها بالصيانة، فضلاً عن التنظيف، وأما شطآن النهر فإننا رأيناها من الجسر، ولم ننزل إليها، لأنها تحتاج إلى سلوك طريق لا يوصل إليه إلا بالسير على القدمين، ولنا عودة إلى رؤية النهر في مكان آخر من المدينة أوضح من هذا، وأكثر قرباً من شاطئه، ومع ذلك التقطت صوراً للنهر من هذا الجسر، وللطريق الذي

يركبه.

وعجبت من إهمال شاطئ النهر إهمالاً كاملاً من العناية، فقد تركت الأشجار التي عليه تنمو كيفما اتفق، والأعشاب والنباتات الوحشية تغطي جزءاً من مياهه دون تهذيب.

وصلنا المسجد، فأعجبنا بمنظر منارته التي لم ينل منها الشيوعيون، ووجدنا في الاستقبال جماعة من الإخوة المسلمين على رأسهم الأخ (فاضل جان) رئيس جمعية المسجد، وإمام المسجد الشيخ (صحاب الدين بن شهاب الدين)، وهو تتاري القومية، أبيض الوجه، واللحية مستدقها.

ورأينا عبارة مكتوبة بالحروف العربية تقول: (**باني المسجد جربي صالي بن جميانف**) هكذا كتبت العبارة، ولعل صالي أصلها صالح، وجميانت أصلها جمعانيف التي تعني بالروسية ابن جمعة، ولم يعرف القوم ذلك.

تاريخ المسجد:

جلسنا معهم وقد اجتمع ستة منهم، ثم جاء اثنان آخران، أغلبهم من المسنين، وفيهم اثنان من المتوسطين في العمر، فسألناهم في مبدأ الأمر عن تاريخ المسجد، فأجابوا أنه بني قبل ١٥٠ سنة، ولكنهم لا يعرفون من اسم بانيه إلا ما ذكر في العبارة السابقة التي قرأناها لهم، لكونهم لا يحسنون قراءة الحروف العربية.

وقد صادره الشيوعيون، وجعلوه روضة أطفال، ثم استعاده المسلمون بعد مطالبات في عام ١٩٩٥م، أي أول هذا العام.

وذكروا أن عدد المصلين يوم الجمعة يبلغ ثلاثين مصلياً، وفي العيد

يمتلئ بهم، أما في الصلوات اليومية فإن العدد يتراوح ما بين ١٠ و ١٢.

تذكارية مع جماعة أهل مسجد أورسك في المسجد

سألت الإمام عن السبب في قلة عدد المصلين من المسلمين، فأجاب: ذلك من عدم المعرفة بالدين، وهذا جواب سديد، لأن القوم كانوا واقعين - كما هو معروف - تحت ضغط شيوعي إلحادي، حارب الدين، ومنع أداء الشعائر الدينية بالقوة، فقلت له: إنه ينبغي لكم أن تعظوا المسلمين وترشدوهم إلى وجوب صلاة الجماعة، فقال: إننا نفعل ذلك في المناسبات التي يتجمعون فيها، كالزواج، والتعزية بالموت، فقلت: هذا لا يكفي، بل ينبغي أن تذهبوا إليهم في بيوتهم، وتنصحوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، فإن هذا أبلغ في النصح، وأحرى بأن يعرف الشخص منهم أنه مقصود بالموعظة، وليست موعظة مطلقة غير موجهة لأحد.

ولاحظت أنهم يدخنون في هذا المكان الذي هو الطابق الأسفل من المسجد، وأما المصلى فإنه في الطابق الثاني، وقد جعلوا في هذا الطابق الأسفل وهو الأرضي مدرسة للأطفال، وقاعة للاجتماع في المناسبات

العامة، مثل عقد الزواج، وتجهيز الموت، وفي الاجتماع في رمضان، ولقد رثيت لهم من كثرة التدخين، لأن مدنهم ملوثة الهواء بسبب ما تنفثه السيارات الكبيرة من ناقلات وحافلات، ثم لم يكتفوا بذلك حتى صاروا يلوثون صدورهم بما يترشفونه من دخان ثبت علمياً أنه مضر، وأنه بمثابة السم من السموم البطيئة.

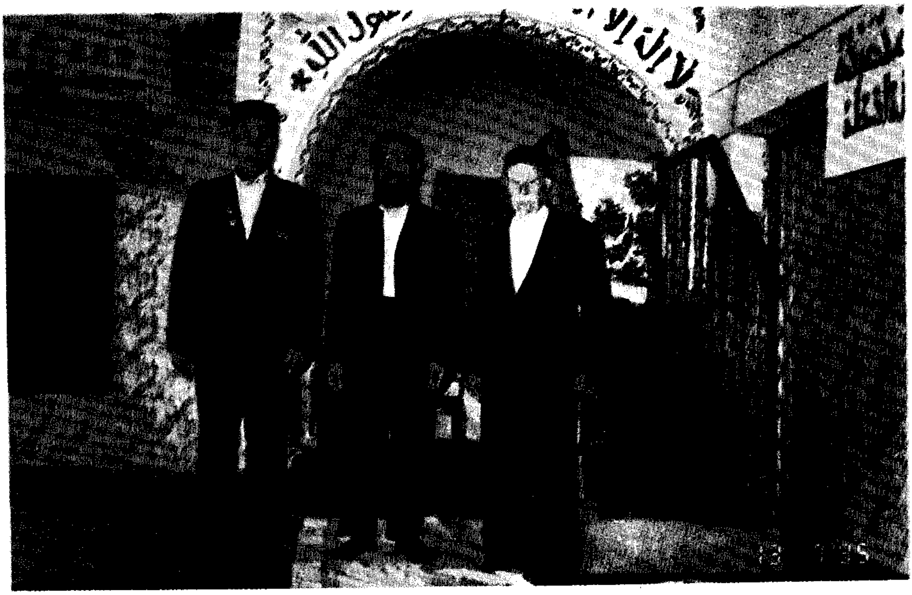

في محراب جامع أورسك، على يميني رئيس جمعية المسجد فاضل جان، وعلى يساري إمام المسجد

وذكرت بهذه المناسبة ما سمعته من بعض الأطباء العرب في مدينة بعيدة جداً عن هذه البلاد، هي مدينة (سان باولو) كبرى مدن البرازيل، وثانية كبرى مدن العالم، إذ يبلغ عدد سكانها خمسة عشر مليوناً، ولا تكبرها إلا مدينة المكسيك، عاصمة دولة المكسيك.

قال لي ذلك الطبيب العربي: إن الذي يعيش في مدينة سان باولو، وإن لم يكن مدخناً، فإن رئته تبدو كرئة المدخن، وذلك لكثرة استنشاقه للهواء الملوث، فإذا أضيف إلى ذلك كونه يدخن يتضاعف الأذى الذي يلحق

بصدره وسائر جسمه من التدخين والتلويث، ولم أرهم وافقوا ولا عارضوا لما ذكرته من مضرة التدخين.

ثم تفقدنا المدرسة الواقعة في غرفتين صغيرتين وهي في الحقيقة ليست مدرسة، بل ليست كتّاباً معتاداً، وإنما هي فصلان دراسيان، يتعلم فيهما الكبار والصغار بطريقة غير منتظمة ولا مجدية، لعدم وجود المدرس المؤهل، وقال لي الإمام: إن الدارسين هنا تتراوح أعمارهم من (١٨) سنة إلى (٧٠) سنة، ثم صعدنا معهم إلى الطابق الأعلى؛ حيث يقع المسجد، فألفيناه نظيفاً معتنىً به، مفروشاً بالسجاد المعتاد، أي المتوسط في جودته، ومزين سقفه بثريات ونقوش، وفيه رسومات وآيات قرآنية مكتوبة بخط لا بأس به، وإن كانوا لا يفهمون معناها، وقلَّ من يعرفها من غيرهم ممن يحضرون إلى المسجد.

وهذه الكتابات مثل الشهادتين: (**لا إله إلا الله وحده ودينه، محمد عبده ورسوله، السلام -أي الإسلام- من آمن بالله، وصدق وعده، واتبع رسله، أدخله الجنة**).

وبجانب المحراب صورة لمدرسة في مدينة خيوه بمنطقة خوارزم الواقعة في جمهورية أوزبكستان في الوقت الحاضر، وهي المدرسة التي تخرج فيها هذا الشخص الذي كتب الآيات القرآنية على جدران المسجد، واسمه (يولداش).

صلينا في المسجد ركعتين تحية المسجد، والتقطنا فيه بعض الصور، ثم عدنا إلى الطابق الأسفل، حيث وجدنا أخوات من المسلمات المسنات قد أعددن طعام الإفطار، وهو فطاير داخلها لحم مفروم دسم جداً، بحيث يقطر منه الدهن، وزبد، وبسكوت، ومشمش مجفف، وحلوى مقرطسة، وشاي.

على مائدة الإفطار في مسجد أورسك

الحديث الصحفي :

حضر هذه المأدبة شاب ظهر عليه لأول وهلة أنه ليس من العاملين في المسجد ، وإنما يظهر أنه غريب عنه ، وإن كان يسكن قريباً منه ، وهو من أبناء المسلمين ، واسمه (نايل بن نادر) ، وتبين أنه صحفي في صحيفة (أخبار مدينة أورسك).

بعد أن فرغ من مشاركتنا طعام الإفطار استأذن في تقديم الأسئلة ، فبدأها بالسؤال عن الغرض من مجيئنا إلى هذه المدينة. فقلت: لقد جئنا إلى إقليم أورنبورغ للاجتماع بفضيلة أخينا وصديقنا الشيخ عبد الباري رئيس الإدارة الدينية ، وبحث التعاون في الأمور الثقافية ما بين رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة التي نمثلها ، وبين دار الفتوى في أورونبورغ.

قال: كيف وجدتم وضع المسلمين الآن؟

قلت: إنه وضع جيد من حيث كونهم الآن أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، وفي بناء مساجدهم التي أعيد أكثرها إليهم، ويجري الآن العمل على استعادة باقي المساجد والأوقاف الإسلامية التي يجب أن تعاد إلى المسلمين، لأنها خاصة بهم، واشتريت أساساً من أموالهم.

قال: كيف حال المسلمين أنفسهم؟

قلت: إنهم يحتاجون للتعليم الإسلامي، إلا أن ذلك لا يعني أننا نطلب من جميع المسلمين أن يتعلموا العلوم الدينية، ويتركوا العلوم الأخرى المدنية، وإنما المراد أن يستدركوا ما فاتهم من المعرفة بأمور دينهم.

فقال: كيف ينظر المسلمون في الخارج إلى أحداث الشيشان.

فقلت: ينظرون بأسف بالغ لما حصل من القتل والتخريب، ويأملون في قرب عودة السلام إلى البلاد، وتحقيق ما يريده المسلمون.

فسأل في النهاية: ما هي تمنياتك للمسلمين في مدينة (أورسك) ؟

قلت له: أتمنى لهم أن يتعلموا أمور دينهم ودنياهم، وأن يكونوا عاملاً مهماً في ترقية مدينتهم، وأن يتعاونوا فيما بينهم على أمور دينهم، ومع إخوانهم في الوطن من غير المسلمين فيما فيه الصالح العام لمدينتهم، من المحافظة على المؤسسات العامة التي تخدم الجميع كالطرق والمستشفيات.

هذا وقد بقى هذا الصحفي معنا حتى أعلنت لهم تقديم رابطة العالم الإسلامي تبرعاً عاجلاً هو ألفان وخمسمائة دولار أمريكي لصالح المسجد، فسجلها الصحفي واستأذن في أن ينشرها في الجريدة، فقلت له: ينبغي أن تستأذن المسلمين في هذا، فإن رأوا أن المصلحة تقتضي نشره في الجريدة نشرته، وإن رأوا غير ذلك لم تنشره. قلت هذا لكونه من أبناء

المسلمين، ولا أدري الظروف المحيطة بالمسلمين، وما إذا كانوا لا يخشون من أن يساء تفسير تقديم هذه المساعدة، فكلمهم قال: إنه لا مانع من نشر ذلك في الجريدة، فنحن نريد أن يعرف الجميع أن لنا إخواناً من مكة المكرمة زاروا مسجدنا، وبحثوا معنا فيما يحتاجه ثم تبرعوا بهذا المبلغ.

كان الحديث يدور بالتتارية إحدى اللغات المتفرعة من اللغة التركية القديمة المسماة بالجغتاوية، وبعضهم يسميها الطورانية، فيترجمه زميلنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله إلى العربية، وأحياناً يقوم المفتي الشيخ عبد الباري خير الله بذلك.

واحتاج أحدنا إلى الحمام لكونه لم يدخل الحمام العام في فندق (الأورال)، فذهبوا به إلى مكان في آخر ناحية الطابق الأرضي؛ حيث وجد الحمامات العامة التي يستعملها المتوضئون لصلاة الجمعة، والدارسون في المدرسة، مراحيض ترتفع إلى قرب رأس الإنسان، ولكنها لا تخفيه كله إذا كان واقفاً، وهي ذات أبواب من الخشب ليست لها أغاليق، بمعنى أنها تفتح في الهواء، ووجد عدة صنابير منفصلة للمياه عندها أباريق عديدة من النحاس الثقيل، يأخذون الماء بها من الصنابير، ثم يدخلون المراحيض يستعملونه.

ومع ذلك فإن هذه المراحيض العامة هي أنظف وأحسن من الموجود في فندق (أورال) الذي هو مرحاض من النوع المسمى بالإفرنجي، لا يمكن لمن يجلس عليه جلوساً معتاداً إلا أن يصيبه الوسخ بل القذر، ولو كان عندهم من الذوق والعناية بالنزلاء لجعلوها حماماً كالعربي الذي يقضي المرء به حاجته من دون أن يمسه من جسمه شيء كما فعل الفرنسيون في مراحيض المقاهي والمقاصف العامة في شارع الشانزليزيه في باريس؛ حيث رأيتهم جعلوها من المراحيض العربية، وذلك لكثرة من يستعملها، فلا يصيبه

التلوث.

وفي حمامات المسجد صابون لم نجد منه في الفندق شيئاً حتى في حوض غسيل الأيدي الموجود في الغرفة، وإنما انتفعنا بصابون صغير كنا أحضرناه من بلادنا لعلمنا بأننا قد نحتاج إليه في البلاد الروسية.

المدرسة الحبيسة :

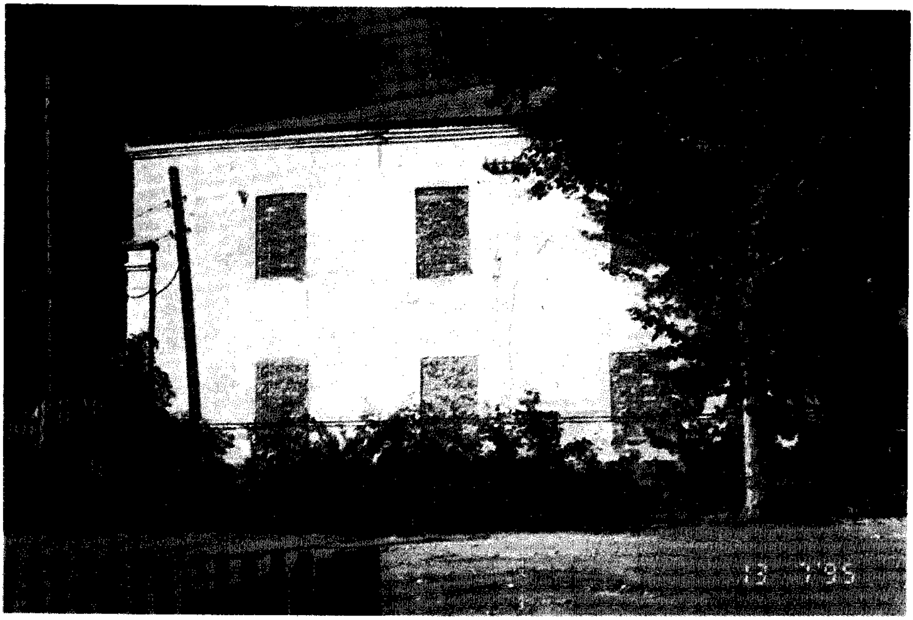

المدرسة الإسلامية المغتصبة في أورسك

أمضينا ما أردناه في زيارة المسجد وملحقاته، ومن الحديث مع الإخوة المسلمين فيه، وأعطيناهم التبرع العاجل، فطلبت منهم أن يروني المدرسة التي ذكروا أنها بجانب المسجد، وأنهم لم يطلبوا استعادتها خوفاً من أن تسألهم الحكومة عن قدرتهم على ترميمها وإصلاحها والانتفاع بها، وكان الأخ فاضل جان قد أخبرني أمس أنهم لم يطلبوا استعادة هذه المدرسة لكونهم لا يملكون أي شيء مما تحتاج إليه من ترميم وتعمير،

وأن الحكومة ستقول لهم: أنتم لن تنتفعوا بها، وإنما تريدون ألا ينتفع بها غيركم.

فأشاروا إلى جهتها بجوار المسجد من جهة الغرب، فخرجت قبلهم ابتغى زاوية مناسبة لالتقاط صورة لها، واقتربت من باب أحد البيوت، فنبحني كلب صغير كان عند الباب، مما حمل أهل البيت على فتح الباب لاستطلاع الأمر، وهم من الروس، فعدلت إلى الاقتراب من بيت مجاور، فنبحني كلب فيه صغير أيضاً، وهم يتخذون الكلاب الصغيرة للحراسة.

والتقطت هذه الصورة التي لا أثق بوضوحها.

ثم ذهبوا إلى المدرسة التي بدت بناء جيداً، ذا لون أحمر، وهي مؤلفة من ثلاث طبقات، لو حصل عليها المسلمون الآن ورمموها، واستفادوا من أجرتها لكفت جميع ما يحتاجون إليه للمسجد والمدرسة الصغيرة فيه، وذلك حتى يحسن أمرهم، ويكثر طلابهم فيستعملونها للدراسة كما كانت من قبل.

وتستعمل الآن مصنعاً للأحذية، أول ما استرعى انتباهي عند الدخول إليها من باب المبنى الداخلي وجود صناديق من الورق المقوى (كراتين) فيها أجزاء من إصلاح أحذية قد ركبها عش العنكبوت، مثلما كان عليه الحال في فندق المؤسسة في أورونبورغ عندما مررت بيدي خلف السرير ألتمس نقطة لتوصيل الكهرباء، فوجدت العنكبوت قد عششت فيها.

صعدنا إلى الطابق الثاني من مبنى المدرسة الذي بدا من الداخل أوسع وأكبر، وذلك مع درج واسع، وصرنا نطلع على الغرف المشغولة بمعدات إصلاح الأحذية وصنعها.

فهو يستعمل مصنعاً لصنع الأحذية ابتداء من كونها جلوداً، حتى

يكتمل صنعها، ووجدنا ثلاثة من الروس وامرأة ظهر لنا أنهم لا يرحبون بزيارتنا، والظاهر أن سبب ذلك أن أصحابنا كانوا قد زاروا مبنى المدرسة أكثر من مرة، وهؤلاء الروس يعملون بجد في صنع الأحذية، وقد عرضوا أحذية جاهزة في رفوف عندهم.

الروس الذين يعملون في صناعة الأحذية داخل المدرسة الإسلامية المغتصبة في أورسك

قلت للإخوة المرافقين: قولوا لهم: إن هذه المدرسة للمسلمين، وليست لهم، فينبغي لهم أن يعيدوها لهم، فاحتدّ أحدهم وقال: الحكومة هي التي أعطتنا إياها، فنحن لم نأخذها من المسلمين ولا من غيرهم، وهي الآن لنا!

ومن اللافت للنظر أنهم وهم منهمكون في صنع الأحذية لديهم زجاجة خمر فيها نصفها يشربون منها، وواضح من مناظرهم وهيئاتهم أنهم ليسوا ممن يسهل التفاهم معهم، ونحن لم نأت إليهم من أجل ذلك، وإنما من أجل الاطلاع على هذه المدرسة الحبيسة التي طالما كانت دار علم يُتلى فيها القرآن، ويُذكر فيه اسم الله، ونرجو أن تعود إلى ما كانت عليه من

قبل.

وهذا المبنى ثمين جداً، وهو مجاور للمسجد لا يفصل بينهما إلا أرض خالية من البناء، مشغولة ببعض الأشجار والأعشاب الوحشية.

وقلت للإخوة المسلمين: إنه لا يجوز أن يتأخروا في المطالبة باسترداد هذه المدرسة ولا يوماً واحداً، وإذا كان يلزم لذلك أن يدفعوا مصاريف ونفقات للمحامي وغيره، فإننا نخبرهم أننا على استعداد لتقديم ذلك من رابطة العالم الإسلامي، إذا كتب لنا فضيلة المفتي به.

وقلت لهم: إن موضوع إصلاحها وعجزهم عنه لا ينبغي أن يصدهم عن المطالبة بها، وأنهم ينبغي أن يعرضوا الأمر على بعض الشركات أو المؤسسات التي للمسلمين فيها نفوذ، عسى أن تقوم بإصلاحها مقابل استغلالها، أو استغلال جزء منها لمدة معينة، أو على الأقل إقراضهم المبلغ الضروري لإصلاحها، حتى يسعوا لدى إخوتهم المسلمين في البلدان العربية والإسلامية، كي يتبرعوا لهم بالمبلغ فيما بعد ذلك إن شاء الله، وأننا عرفنا بالتجربة أن المشروع الإسلامي الذي يُبدأ به بالفعل يجد من يسرع بالتبرع له، بخلاف ما إذا كان مشروعاً لم يخرج إلى حيز التنفيذ.

المسلمون في مدينة أورسك:

حان وقت مفارقتنا للمدينة، فرأينا أنه لزاماً علينا قبل أن نفعل ذلك أن نسجل بعض المعلومات المتعلقة بأحوال المسلمين فيها.

يبلغ عدد سكان (أورسك) (٣٠٠) ألف نسمة، ٣٠٪ منهم من المسلمين، وهذه نسبة قد تبدو كبيرة، ولكن الواقع أن الطبيعي أن تكون أكبر، لأن هذه المدينة كانت من بلاد المسلمين الخالصة لهم قبل

الاحتلال الروسي للمنطقة، فهي معدودة من بلاد القازاق المسلمين، ولا تزال قريبة من بلادهم كما قدمنا من كون مطار المدينة لا يبعد عن حدود جمهورية قزاقستان إلا بكيلو مترين اثنين، ويتألف المسلمون فيها من التتار الذين لهم الأغلبية بين المسلمين، ويبلغ عددهم فيها أحد عشر ألفاً، يليهم القازاق الذين يبلغ عددهم سبعة آلاف، ثم الباشقردز المسمون بالبشكير، وعددهم فيها (٤٤٥٩)، وباقي العدد من قوميات أخرى من القوميات المسلمة.

وقد شدد الروس على العنعنات القومية، بل القبلية، فقسموا المسلمين إلى أقسام متعددة حسب قومياتهم، أو لنقل حسب قبائلهم، أو حسب اللهجات التي يتكلمون بها، وأغلبها يرجع إلى اللغة التركية القديمة، مثل لغة القازاق، والتتار، والأوزبك، والباشقردز، وذلك لتفريقهم بعد أن كان الإسلام يجمعهم، وكانت القبيلة لا تعني شيئاً إلا التعارف فيما بينهم.

وكان في مدينة (أورسك) قبل الحكم الشيوعي خمسة مساجد، ولا يوجد فيها الآن إلا مسجد واحد معمور، وهو الذي زرناه هذا الصباح، والمسجد الثاني لا يزال محتلاً من سكان من الروس، امتنعوا عن الخروج منه إلا إذا وجدوا من يعوضهم بمساكن غيره، والحكومة المسؤولة عن ذلك لا تفعل لهم شيئاً.

أما المساجد الثلاثة الأخرى، فقد هدمت وذهبت أعيانها، ولكن أماكنها معروفة على وجه التقريب، ولو كان للمسلمين القوة والنفوذ لطالبوا الحكومة باستعادة أرضها، أو التعويض عنها بأرض حكومية يقيمون عليها مساجد بديلة، أو ينتفعون بها في مؤسساتهم الدينية.

ويشكو المسلمون الآن الحاجة إلى المال؛ إذ يقول الأخ فاضل جان،

وهو رئيس جمعية المسجد: إننا عاجزون عن رفع رواتب العاملين في المسجد في الوقت الحاضر، مثل المرأة التي تنظف المسجد، وتتسلم منا (٤٠) ألف روبل راتباً شهرياً، مع أن هذا المبلغ يقل قليلاً عن عشرة دولارات أمريكية، كما قال: إنهم يدفعون (٥٠) ألف روبل أخرى، وتعادل أحد عشر دولاراً أمريكياً لأربعة من الحراس يتناوبون حراسة المسجد طيلة أربع وعشرين ساعة، ومجموع رواتبهم مائتا ألف روبل، أي أربعة وأربعون دولاراً في الشهر للحراس الأربعة كلهم.

وقد بينت لهم عندما قدمنا هذا المبلغ الذي اعتبروه كبيراً، وهو ألفان وخمسمائة دولار، أنهم يمكنهم أن يدفعوا منها رواتب هؤلاء العاملين في المسجد لمدة طويلة.

وقد سألتهم جميعاً عما إذا كان المسلمون يزيدون من أجل أن يتلافوا الوضع الحاضر الذي أصبحوا فيه أقلية في بلادهم، إذْ كاثرهم الروس عليها حتى كثروهم، فصاروا ٧٠ ٪، فذكر الأخ القازاقي قادر جان أن المسلمين يزيدون بسبب أنهم يتوالدون أكثر مما يتزايد الروس من جهة الولادات، وهذا الأخ قازاقي، وربما كان يتكلم على قومه القازاق، وإلا فإن الإخوة التتاريين كانوا أخبروني أن معدل المواليد عندهم لا يزيد كثيراً عن المواليد عند الروس، وبذلك تكون زيادة عددهم عن هذا الطريق قليلة، بل ضئيلة.

وقلت لهم هنا ما قلته لغيرهم من قبل في مناسبات مثل هذه المناسبة: إنه ينبغي لهم أن يعملوا على تشجيع نسل المسلمين، وأن يسهلوا الزواج المبكر فيهم عن طريق تخصيص مساعدات لمن يريدون الزواج، وعن طريق تشجيع من يكون لهم أطفال أكثر من غيرهم.

ويمكن إنفاذ ذلك بوساطة جمعية خاصة يكون لها صندوق لهذا

الغـرض، تجمـع لـه التبرعـات المحليـة، وتطلـب التـبرع لـه مـن المؤسسـات الإسلامية في الخارج، ومن أثرياء المسلمين الذين لا شك في أنهم سيبادرون إلى التبرع لهذا الصندوق، إذا عرفوا الغرض النبيل الذي أسس من أجله.

وقد سألتهم عن الإخوة المسلمين القازاق الذين يسكنون في المدينة، وعما إذا كان أحد منهم قد نزح إلى جمهورية قازاقستان بعد أن نالت الاستقلال ؟.

فنفوا ذلك وقالوا: لم يذهب أحد إلى قازاقستان، وذلك لكون هذه المدينة والمنطقة التي تقع فيها هي من بلادهم الأصيلة، وإن أصبحت الآن جزءاً من جمهورية روسيا الاتحادية، ولكون المعيشة الآن في جمهورية روسيا أحسن مستوى من المعيشة في قازاقستان.

ولأمر مهم آخر ذكروه لي، كما ذكره غيرهم في غير هذه المنطقة، وهي أنهم لا يواجهون أي ضغط من الحكومة الروسية، أو من المواطنين الروس الذين يعيشون معهم في المدينة.

إن كون هذه المنطقة من بلاد القازاق القديمة هي أمر مؤكد أكثر من تأكيد كونها ليست من بلاد الروس القديمة بطبيعة الحال، فهي جزء وطرف من المنطقة المعروفة في التاريخ العربي القديم بدشت قفجاق التي صارت تسمى في العصور القديمة بدشت قازاق، بعد أن تبدد القفجاق وانقرضوا باندماجهم في غيرهم، وخلو المنطقة منهم، وكون القازاق خلفوهم على سكناها.

وقد قطعها ابن بطوطة - رحمه الله - ووصفها في رحلته، فذكر أنه اخترقها قاصداً مدينة خوارزم، وذكر أنها صحراء مسيرة أربعين يوماً، لا تسافر فيها الخيل، لقلة الكلأ، أي العشب والشجر الذي ترعاه، قال:

وإنما تجر العربات بها الجمال، وقال: ((ثم سرنا فيها - بعد مسافة ذكرها - ثلاثين يوماً جاداً، لا ننزل إلاّ ساعتين، إحداهما عند الضحى، والأخرى عند المغرب، وتكون الإقامة قدر ما يطبخون (الدوتي)، وهو من حبوب ذكرها، ويشربونه، وهو يطبخ من غلية واحدة، ويكون معهم الخليع من اللحم - وهو الذي طبخ من قبل طبخاً خفيفاً - يجعلونه عليه، أو يصبون عليه اللبن، وكل إنسان إنما ينام ويأكل في عربته حال السير، قال: وكان لي في عربتي ثلاث من الجواري، ومن عادة المسافرين في هذه البرية الإسراع لقلة أعشابها، والجمال التي تقطعها يهلك معظمها، ومايبقى منها لا ينتفع به إلاّ سنة أخرى بعد أن يسمن، والماء في هذه البرية في مناهل معلومة بعد اليومين والثلاثة، وهو ماء المطر والحسيان.

إلى مدينة نوفا ترويسك:

لا تبعد مدينة نوفا (ترويسك) عن (أورسك) إلا بمسافة لا تزيد على (٢٥) كيلو متراً، وذهابنا لم يكن من أجل رؤيتها فقط، لأن المدن كثيرة في هذا الإقليم، ونحن نهتم بزيارة المدن التي فيها مساجد، أو مشروعات إسلامية تحتاج إلى مساعدة، ونستطيع أن نساعدها.

وفي مدينة (نوفا ترويسك) مسجد يبنى، وقد توقف العمل فيه بسبب قصور النفقة.

كان المفتي الشيخ عبد الباري خير الله قد هاتف رئيس جمعية المسجد الأخ محمد شاهد بن محمد زايق، رئيس الجمعية التي تشرف على المسجد، وهو المتولي أيضاً، ووظيفته مهندس معماري في الدولة:

فصحبنا إلى المدينة، وكانت معه سيارة حملنا عليها، وهي شاحنة صغيرة جديدة، غير أنها لم تسلم من العيب الذي لاحظته في أكثر

الشاحنات الصغيرة، إن لم يكن في كل ما ركبته منها، وهو أيضاً عيب موجود في سيارات الأجرة، وذلك في (شطب) وهو الشق غير البائن في الزجاج، لقد كنت أهتم بذلك لكوني أركب في مقدمة السيارة، ومعي مصورتي معدة لالتقاط المنظر الذي أرى أنه يستحق التصوير من السيارة، فإذا كان في الزجاجة الأمامية شطب، أو شرخ كانت الصورة معيبة، وهذه السيارة الجيدة، وهي سيارة المؤسسة التي يعمل فيها الأخ (محمد شاه بن محمد زايق) كما أخبرنا به فيها شرخ، إلا أنه في أسفل الزجاجة لحسن حظي.

سلكنا من الفندق ونحن نخرج من وسط مدينة (أورسك) حياً فيه بيوت متفرقة، أي غير متراصة، فيها شجر من التفاح غير الجيد، وهو المسمى بالبلدي عندنا.

بين آسيا وأوروبا:

مرة أخرى كنا في نقطة فاصلة بين حدود القارتين الآسيوية والأوروبية، وذلك عندما وقفت على منتصف جسر من نهر (أورال) الذي يشق مدينة (أورسك)، وهو أكثر وضوحاً، لأنه ليس معداً إلاَّ لمرور السيارات والرَّجَّالة، وليس يمر فوقه قطار، ثم إنه ضاحية من المدينة، وليس مثل الجزء من النهر الذي على الجسر الكبير، ومررنا به في أول هذا الصباح، فذلك يمر بمركزها، أو بالقرب من مركزها.

وشطا هذا النهر سواء في هذه النقطة من حيث عدم العناية، والزراعة، وغرس الأشجار المثمرة، وإن كان هذا الجسر الصغير أقل سوءاً من الجسر الكبير على النهر نفسه من حيث النظافة، أو لنقل من حيث عدم النظافة.

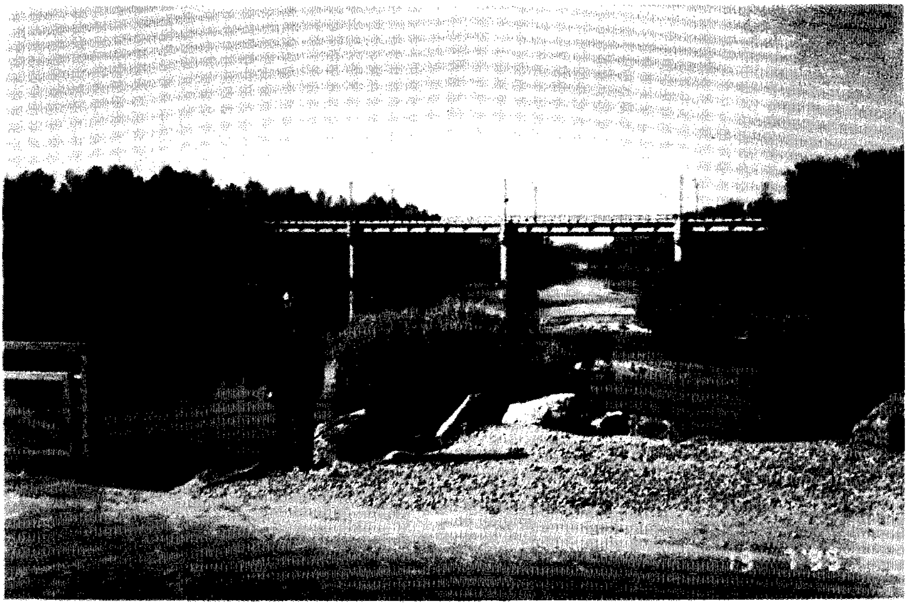

المؤلف على نهر أورال في أورسك

لم نلبث طويلاً عند نقطة الحدود بين أوروبا وآسيا التي يمثلها هذا النهر، وذلك لكوني وقفت طويلاً عنده، عندما ما رأيناه لأول مرة في مدينة (أورنبورغ)، وإنما واصلنا السير، فرأينا أبراج الكهرباء ذات الضغط العالي تمر بضاحية المدينة، إلا أنها صدئة تبدو كما لو كانت من حديد لم يُطلَ قطُّ، وذلك بخلاف ما عليه أبراج الكهرباء الفولاذية في بلادنا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، حيث كأنما هي من معدن صقيل.

وتفارق هذه ما نعرفه من أبراج الكهرباء في كونها مقامة على ثلاث ركائز كالأرجل لها، بديلة من الركائز الأربعة الموجودة عندنا.

ولو كانت هذه الركائز الثلاث لقاعدة البرج فقط لما كان هذا غريباً، وإنما الغريب أنها تظل ثلاث ركائز، وهي ترتفع بارتفاع البرج، وتتقارب فيما بينها إلى نهايته، أو ما يقرب من لك.

وقلت وأنا أودع مدينة (أورسك) التي لم يعجبني كثير مما رأيته من

عدم العناية فيها: إنه لا جميل فيها إلا ما خلقه الله لها من نهر، وأنبته من زهر، أو خلعه من حسن على وجوه بعض ساكناتها، أو أطفال أهلها.

ريف (أورسك):

خرجنا إلى الريف بعد سير في ضواحٍ فيها بيوت تقليدية، فوجدنا البيوت الأصيلة هنا التي تكون من الخشب الذي تغير بالمؤثرات الجوية، بسقوفه من الصفيح الذي يتغير -أيضاً- بطبيعته إذا لم يجدد طلاؤه، وأعشاب الأرض جافة بعد أن كانت نضرة كثيفة فيمايبد من مظهرها.

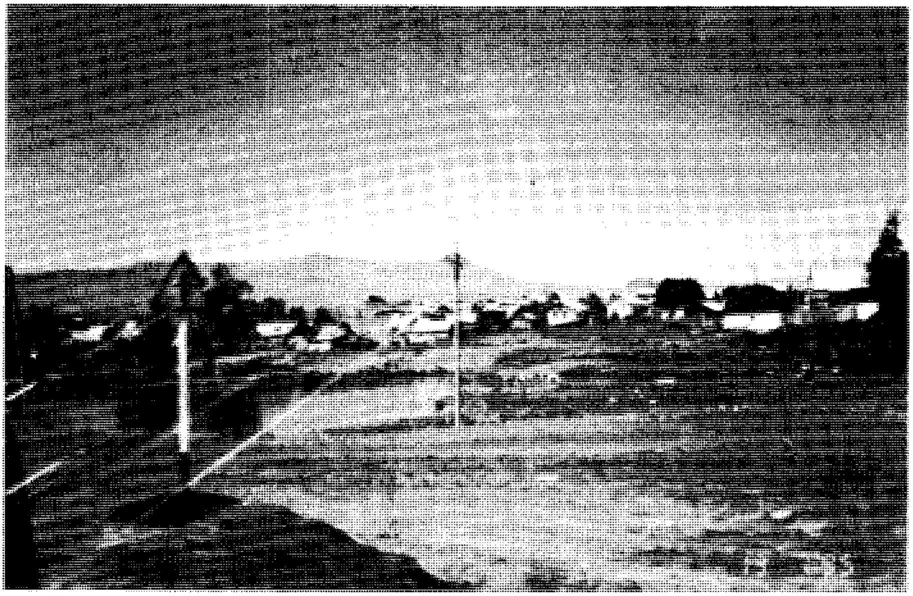

في الطريق بين أورسك ونوفاترويسك

ومررنا على الطريق بمقلب للقمامة، وهو المكان الذي تُرمى فيه القمامة، وكونه على هذا الطريق الإسفلتي المهم، مما يدل على عدم العناية، بل على الإهمال، ومن الإهمال الإضافي أن هذه القمامة متروكة حتى بدون أن تحرق.

مصانع الحديد:

مر الطريق بمنخفض فيه زراعة بخضرتها الواضحة على البعد، بخلاف الأماكن المرتفعة من المنطقة، فإنها جافة تشبه مثيلاتها في بلادنا، لأن أعشابها قليلة وقد جفت. ورأينا على البعد المداخن الكبيرة، والأبنية الواسعة حولها، وسارع الإخوة المرافقون ليقولوا: إنها مصانع الحديد المقامة على قرب مناجم الحديد في ربى هذه المنطقة، وفي جبال متطامنة قريبة منها.

وعندما رأيت المداخن تنفث الأدخنة الكثيفة قلت في نفسي: لقد أحسنوا صنعاً حينما أبعدوا هذه المصانع عن مدينة (أورسك) كيلا تلوث جوها، ثم تبين لي أنها ليست بعيدة عن مدينة (نوفا ترويسك) التي نقصدها، وإن لم تكن ملاصقة لها.

والمراد بمصانع الحديد هذه التي تستخلصه من التربة، ثم تحيله إلى حديد صافٍ صالح للصناعة، وبجانب مصانع الحديد معمل للماء الحار والهواء الساخن اللازم للتدفئة في هذه البلاد الباردة، بل الثالجة في الشتاء، ومدخنته تنفث دخاناً أبيض غليظاً، ورأيتهم أيضاً يدخنون في هذا الجو الذي يخيف مظهره من تلوث الهواء.

ووقف السائق على قارعة الطريق، واستدير السيارة وبال وهو واقف، ويجدر ذكر أنه ليس من المسلمين.

وعندما مررنا بقرب مصانع الحديد هذه التي تحيط بها أبنية واسعة ضخمة، قد كوموا بقربها جبلاً صناعياً من الحديد الخام المعد لسبكه في المصانع، باستخلاصه من التراب والشوائب الأخرى، فقلت في نفسي: لماذا لا نصنع نحن أيضاً مثل هذه المصانع، فبلادنا العربية الإسلامية فيها

من خامات المعادن، ومن الوقود اللازم لاستخراجها واستصلاحها ما في بلاد هؤلاء وأكثر.

ولماذا نظل عالة عليهم نستجديهم السلاح الذي يأخذون مقابله أموالاً ضخمة يديرون بها مصانعهم، بل يديرون بها ومثيلاتها دولاب حياتهم، بدلاً من أن تكون أموالنا في بلادنا، وثروتنا لأولادنا ؟.

والطريف في الأمر أن ألوان الأبنية هنا كلها بني خفيف، شبيه باللون الطبيعي للحديد، ورأينا الشاحنات الضخمة القوية التي تبدو للنظر خشنة خشونة العجائز الروسيات، ضخمة بالنسبة إلى ما نعرفه من السيارات، مثل ضخامة أجسام تلك العجائز بالنسبة إلى الغانيات الرشيقات.

وكلها تعمل ذاهبة آيبة في هذا المشروع الحديدي الضخم، إضافة إلى سكك القطارات الحديدية التي رأينا قطاراً منها طويلاً كثير العربات.

ولاحظت مظهراً من مظاهر البرودة في هذه البلاد في فصل الشتاء، وذلك في خزان ماء فوق أحد الأبنية، وقد لفوه بما يشبه الخيش والقماش السميك المضاعف، المحاط بقضبان من حديد صدئ، وذلك ليضعوا فوقه شيئاً إضافيا يمنع ماء الخزانات من التجمد في الشتاء، فالجو هنا قارص البرد، إضافة إلى الهواء الملوث من مداخن المصانع، وما يشعر به العمل في الحديد من ثقل وخشونة، وكل ذلك لم يمنع عمالهم وفنييهم من العمل في هذه المنطقة التي تقسو الحياة فيها على ساكنيها، أكثر مما تقسو الصحراء.

وشيء آخر، وهو أن هذه المنطقة تشبه الصحراء لولا بعض الأماكن التي تجري فيها أنهار في أوقات الدفء، ثم تتجمد في فصول البرد حتى لا

ينتفع بها أحد، وهي ليست أراضي سهول متسعة لتستغل في الزراعة في وقت الزراعة، ما عدا أماكن منها معينة، فتكون الطريقة المثلى لاستغلالها هي إيجاد المصانع فيها، لأن التدفئة في الشتاء تسهل العمل في داخلها، حتى تصبح كأنها هي لا تتأثر بحالة الجو غير الملائمة.

وقلت في نفسي لنفسي – أيضاً -: ماذا لو عملنا في صحرائنا مثلما عمل هؤلاء في أرضهم، فعملنا على إنشاء المصانع فيها، وكيفنا أماكن العمل منها، كما فعلناه الآن في منازلنا التي تشكو الرفاهية الزائدة ؟ ألا نكون بذلك قد ساوينا بها إذا أنتجت، تلك المصانع، وبين الأراضي المنتجة بالزراعة.

هذه نوفا ترويسك:

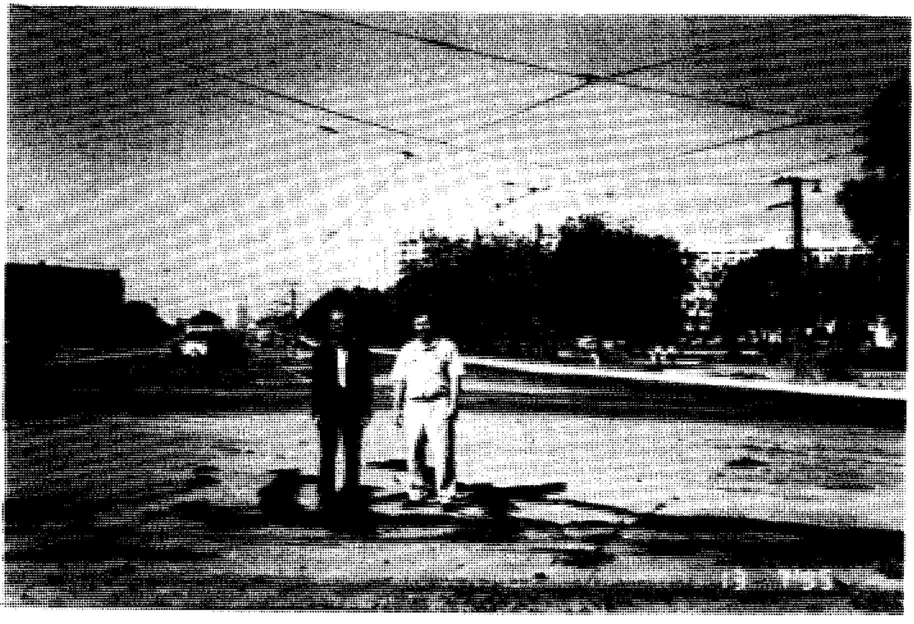

صورة مع الأخ محمد شاهد في الشارع الرئيسي في نوفاترويسك

أول ما رأيناه في مدخلها قطار كهربائي صغير (ترمواي) يسير في شارعها الواسع، وهو أحمر الطلاء، فسلكنا شارعها الرئيسي وهو

مستقيم، تتقابل فيه عربات (الترمواي)، وقفنا في قلبها التجاري من أجل التقاط الصور التذكارية، والتفرج برؤية المارة الذين كانوا فيه كثراً، وهم ذوو مظهر روسي، وفيهم نسبة كبيرة من المسنين من شيوخ وعجائز، وربما كان هذا كون الشبان والمتوسطين الآن في أعمالهم.

وفي مركز المدينة أبنية (شيوعية) عديدة منتظمة في شارع طويل.

ولاحظت أن عربات (الترمواي) فيها أكثر من الحافلات، وأن الناس يصعدون إليها وينزلون منها بكثرة.

ومن قلب المدينة سلكنا شارعاً مع ضاحية مشجرة بأشجار كثيفة تكاد تخفي البيوت خلفها، فلا يرى الناظر من الشارع إلا هذه الأشجار الجميلة المنظر.

مع الأخ محمد شاهد في شارع مزفت في مدينة نوفاترويسك

وهذا الشارع مزفت، وهو ما هو عليه من تشجير، إلا أن أطرافه وأماكن الأرصفة منه يعلوها التراب، بحيث إذا اضطرت سيارة من السيارات إلى السير فوقها أثارت غباراً غريب المنظر في مثل هذا الشارع،

ومن المناظر بعد أن تركنا هذا الشارع منظر عجوز تحرق مقداراً ضئيلاً من القمامة أمام منزلها، وهو منزل منفرد، وليس شقة من الشقق، وفرس شقراء جميلة المنظر جداً، معها فلوها الذي يقفز وكأنما هو يطير من فرط النشاط، وبقر سمان ترعى في الأعشاب والحقول غير المزروعة، ولكن عددها لم يكن كبيراً، ورجل راكب على حصان غير أصيل فيما يظهر من شكله.

مسجد نوفا ترويسك:

في العاشرة إلا عشر دقائق كنا نقف عند المشروع العظيم، مشروع أول مسجد يبنى في هذه المدينة (مسجد نوفا ترويسك).

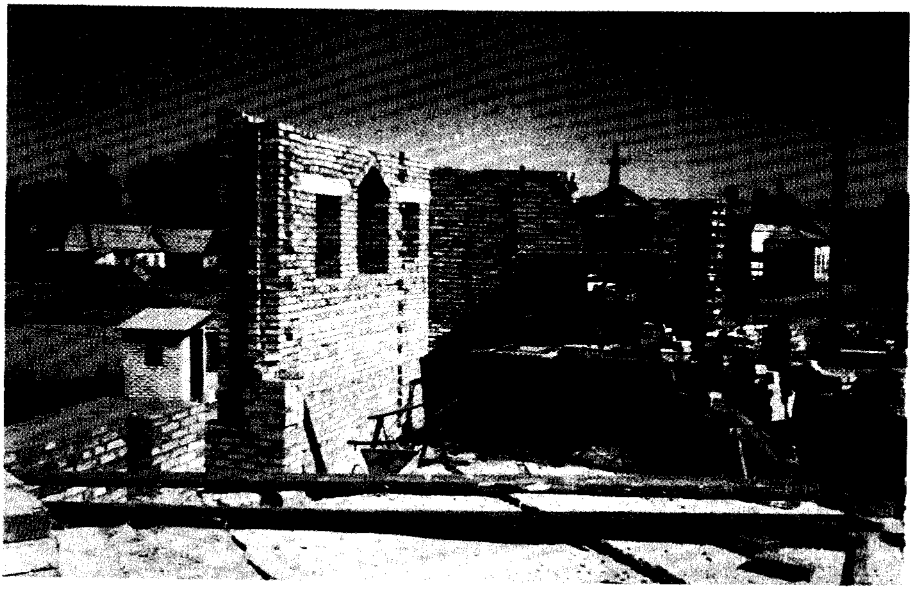

مسجد نوفاترويسك (تحت البناء)

وقد بدا بمساحة أرضه الواسعة المسورة بسور محكم، وبما قام من بنائه الذي لا يزال في مرحلة تقرب من مرحلة التأسيس ضخماً رائعاً في هذه المنطقة البعيدة المنزوية عن العالم العربي في بعدين مضاعفين، أحدهما بعد

روسيا عن العالم العربي، والثاني بعد إقليم (أورونبورغ) عن مراكز الإدارة المعروفة فيها، ثم في بعد هذه المدينة (نوفا ترويسك) عن عاصمة إقليم (أورونبورغ).

وقد أسرع أخونا ومرافقنا الأخ (محمد شاهد) ببسط خارطة كبيرة مفصلة لمشروع المسجد، حيث ينوون أن يجعلوه مركزاً إسلامياً، يشتمل على فندق، ومطعم، ومدرسة، إلى جانب المسجد.

وهذه همة عظيمة لا تطمح إليها همم كثير من الرجال، وبخاصة في هذه البلاد التي تكثر فيها المعوقات التي تثبط الهمم عنها.

سألت الأخ (محمد شاهد) عن اسم المسجد، فقال: إنه (مسجد نوفا ترويسك) لأنه المسجد الوحيد فيها، فليس قبله مسجد، ولا يوجد في البلدة غيره من المساجد، لأن البلدة حديثة النشأة، لم يمضِ على بدء السكن فيها إلا (٤٥) سنة.

قال: ولذلك سميت (نوفا ترويسك)، فنوفا باللغة الروسية تعني جديدة، وأما ترويسك فإنها ربما كانت مسماة على اسم بلدة اسمها (ترويسك)، ولكنها بعيدة عنها تبعد بحوالي (٣٠٠) كيلو متر، غير أن كلمة (ترويسك) تدل في اللغة الروسية على التثليث المشهور في العقيدة النصرانية.

صعدنا على خشب مستند إلى المبنى مما يصعد معه العمال إلى داخل مبنى المسجد المرفوع عن ظهر الأرض، ولم يبدؤوا بشيء من الملحقات بالمسجد بعد، وإنما بدؤوا العمل بالمسجد أولاً، ثم عجزوا عن الحصول على النفقة فتوقفوا، إلا أن بعض المتبرعين من المسلمين الذين يأتون للعمل

في المسجد في أوقات العطل والراحة، يعملون في المسجد بالمجان محتسبين الأجر من الله تعالى، وقد رأينا منهم في المسجد اثنين، أحدهما اسمه (جميل بن عبد الله)، وهو مدرس في المعهد الهندسي في البلدة. والثاني: طالب اسمه (مرسل بن رفعت) قال لنا عندما عرف أننا من العرب: إن أمنيته أن يتعلم في البلدان العربية.

تذكارية في مسجد نوفا ترويسك (تحت البناء) الأخ محمد شاهد رئيس جمعية المسجد في أيمن الصورة، على يمينه الأخ جميل بن عبد الله المدرس المتطوع، فالمؤلف، فالأخ مرسل بن رفعت الطالب المتطوع للبناء في المسجد

وجدنا مبنى المسجد عظيماً حقاً، فهو واسع مرفوع عن الأرض، وبناؤه بالأسمنت المسلح القوي، وبالآجر الأحمر، بحيث يجزم من يراه بأن الإخوة الذين قاموا على بنائه كان عملهم خالصا لوجه الله، لأنهم لم يبحثوا عن الأرخص من الأسعار، والأشياء، وإنما بحثوا عن الأقوى والأفضل لبناء المسجد وبقائه على السنين، رغم قلة النقود، بل قلة

الأنصار، وعدم العون ممن يستطيعون العون لهم من المسلمين. وقد قال الأخ محمد شاهد بمرارة: إن العمل متوقف في بناء المسجد منذ ثلاث سنين. وقال: لقد ذهبت إلى موسكو أطلب العون من الهيئات الإسلامية هناك، ورجعت بدون نتيجة، لأنهم قالوا: إننا لا نساعدكم إلا إذا زرناكم، ورأينا المشروع بأنفسنا. قال: ولم يزرنا أحد منهم حتى الآن.

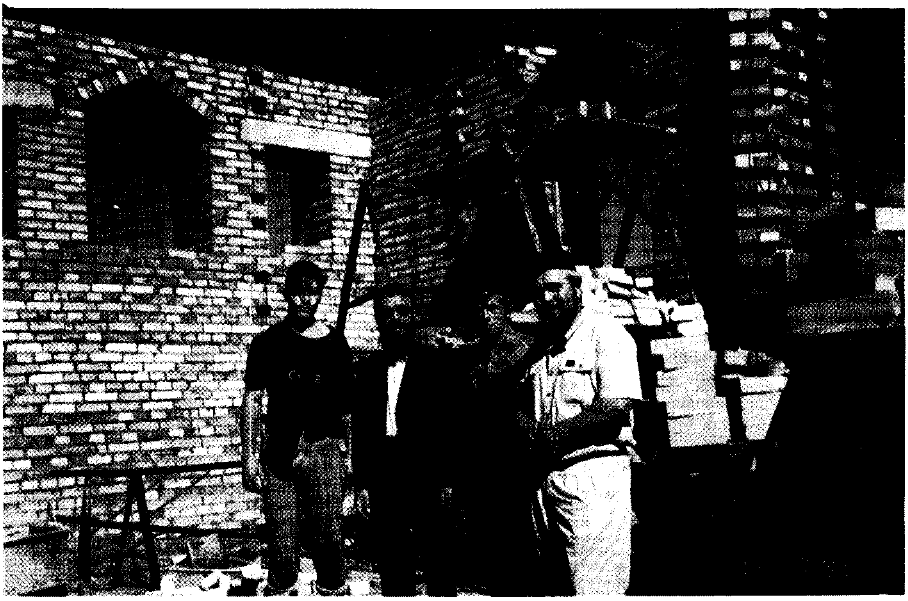

داخل مسجد نوفاترويسك (تحت البناء) مع رئيس الجمعية والأخوين المتطوعين

وما يبعث على التأثر أنه قال: إن المساعدة الوحيدة جاءتنا من إخواننا اللاجئين البوسنويين الذين كانوا يأتون إلينا يساعدوننا في بنائه متبرعين بالعمل بأنفسهم، وإلا فإنهم لا يملكون مالاً يقدمونه. وأظن أنه قال: إنكم أول وفد من بلد إسلامي يصل إلى هذه المدينة بقصد زيارتنا، ورؤية المسجد، ولكنني لم أتحقق من ذلك، لأنني كنت أتحدث مع أحد الإخوة وهو يتحدث إلى أحد المرافقين.

وكان الحديث كله يدور بالتتارية التي يحسنها رفيقنا في الوفد

الأستاذ رحمة الله بن عناية الله فيترجمه بالعربية، أو بالروسية التي يحسنها مرافقنا من (أرونبورغ) مدير الإدارة الدينية الشيخ (عبد الباري خير الله) فيترجمه للعربية.

وقوله إنه ذهب إلى موسكو كأنما كان يظن أنها آخر الدنيا، والمفروض في مثل هذا المشروع العظيم أن يذهب القائمون عليه إلى البلدان الإسلامية إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، ثم إن مواطن التبرع بالمال ومواضعه هي في البلدان العربية، وبخاصة المطلة منها على الخليج العربي، ولم يفعلوا شيئاً من ذلك، بل إننا ونحن في رابطة العالم الإسلامي لم نعرف عنه أي شيء، وقال معتذراً: إننا طلبنا من الإدارة الدينية في مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية (بشقردزستان) أن يساعدونا ولم يفعلوا.

فقلت له: لقد ساقنا حسن حظنا أن رأينا مشروعكم العظيم، وأننا ونحن على جناح سفر لا نستطيع فيه أن نحمل المبالغ المالية الكبيرة، نستطيع أن نقدم الآن مبلغاً رمزياً يحرك العمل في المسجد، ونعلم أنكم إذا أنفقتموه، ولم تجدوا تبرعات أخرى، وكتبتم لنا بذلك بوساطة أخينا الحاضر معنا مفتي (أرونبورغ)، وشفع ذلك بتوصية منه أن نرسل إليكم مساعدة مجزية من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة، تسلم إليكم في موقع العمل، وبحضور المفتي، حين يحملها مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في موسكو، أو ترسل إليكم بوساطة الإدارة الدينية في (أرونبورغ).

ومن الأمثلة على قوة العمل في المسجد أن مصلى النساء بنوا حيطانه من الآجر الأحمر المزدوج حتى يساعد على عزل البرودة في الشتاء، وقد بنوه منفصلاً بطبيعته عن المسجد، وإن لم يكن منفصلاً بفراغ، كما أنهم بنوا أسفل المنارة بالإسمنت المسلح العريض القوي، وقد انتهى من بنائها ما علوه

(٧) أمتار، ويزمعون أن يرفعوها إلى (٢٥) متراً.

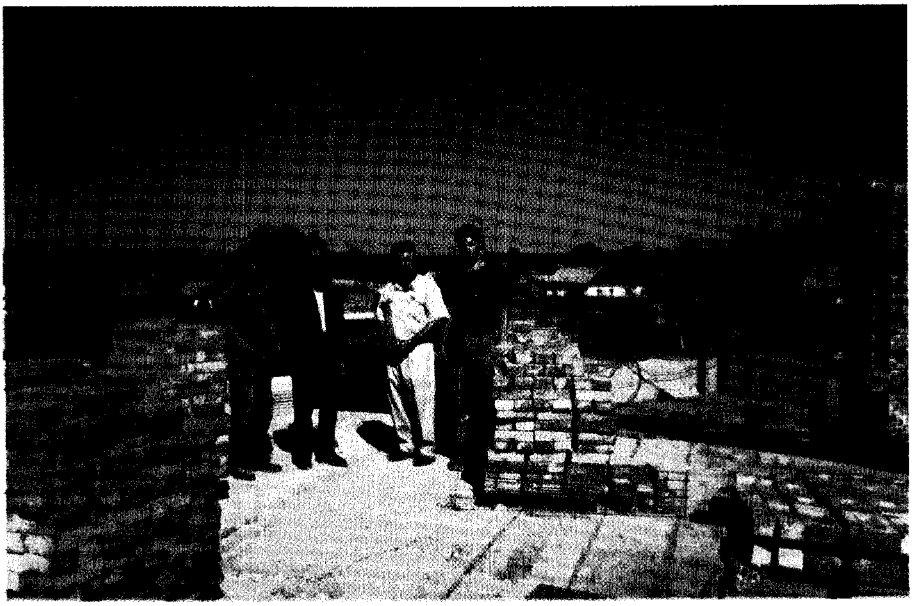

فوق سطح المسجد في نوفا ترويسك مع محمد شاهد والمتطوعين

وقد صعدنا إلى جزء أتموا صب سقفه من المسجد، وهو مرتفع، فالتقطنا صوراً تذكارية مع هؤلاء الإخوة المتبرعين بالعمل بأنفسهم في المسجد، وصورة للقرية منه.

وكان الجو صاحياً، والشمس حارة حرارة شمس الربيع في بلادنا، لذلك وجدنا عند هؤلاء الإخوة زجاجة ماء كبيرة يشربون منها، يرطبون بها أجسادهم.

وفي مكتب خشبي مؤقت، كان المقعد فيه لوحاً من الخشب، جعلوه على هيئة مقعد مستطيل، وكان أحب إليّ من المقعد الوثير الذي لا ينفع الإسلام والمسلمين، فبسطوا أمامنا الخارطة التفصيلية لهذا المركز الإسلامي، التي ظهر فيها إلى جانب ما ذكرته مشروع مبنى مكتبة جيدة، ومسكن للإمام، ومسكن للمؤذن.

جنود مجهولون:

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ ، فقد تولى بعض بني قومنا عن البحث عن إخوانهم المسلمين المحتاجين، وإيصال بعض ما أعطاهم الله تعالى من مال إليهم، فبعث الله جنوداً من جنوده المجهولين عند الناس، المعروفين عنده عز وجل قاموا بقدر ما استطاعوا ببعض ما لم يقم به القادرون منا ، وقد رأيتهم بملابسهم الملوثة بمواد البناء، وأجسادهم التي يتصبب منها العرق في الشمس، وبالحماسة الفائقة التي تعلو وجه الأخ (محمد شاهد) رئيس جمعية المسجد أمثلة للمسلم المجد المجتهد المتفاني في العمل لدينه، مع ضعف الإمكانات، وانصراف الهمم عن مثل هذه الأمور فتلوت الآية الكريمة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

وقد أعلنا لهم تقديم تبرع عاجل من رابطة العالم الإسلامي، سوف نسلمه لهم فوراً، هو أربعة آلاف دولار أمريكية، وهو مبلغ له أهميته في مثل هذه البلاد ، وإن كان يعتبر صغيراً في بلادنا ، وذلك لتدني عملتهم الوطنية ، وتقلص الثروات من المواطنين، وضعف مرتباتهم، بل ضعف دخولهم على وجه الإجمال.

وطلبنا من الأخ (محمد شاهد) أن يحضر الأوراق والأختام الرسمية للمسجد ، وهو مسجل رسمياً في الدوائر القانونية الحكومية ، وأن يحضر معه أيضا اثنين أو ثلاثة من العاملين معه من جمعية المسجد ، يكون منهم إذا أمكن خازن الجمعية ، وهو المسمى بالمحاسب.

فانطلق مسرعا بسيارته، وظللنا في هذا المكتب الخشبي الخشن المؤقت جالسين على المقعد الخشبي المستطيل بدون ظهر أو يدين، ووضعنا في أيدي الأخوين الكريمين المتبرعين مبلغاً قليلاً بمثابة الصلة الرمزية من إخوانهم القادمين من مكة المكرمة، وهي هدية شخصية.

ثم جاء الأخ ومعه اثنان من أعضاء الجمعية، أحدهما الخازن، فدفعنا أربعة آلاف دولار أمريكية نقداً بحضور المفتي والمسؤولين في الجمعية، والأخوين العاملين المتبرعين، وطلبنا منه أن يوافي المفتي بكيفية صرف هذا المبلغ على المسجد، من أجل أن يكتب هو لنا بذلك إلى مكة المكرمة، وأعطيناهم عناويننا، وأرشدناهم إلى كيفية الكتابة لطلب المساعدة في المستقبل.

المسلمون في نوفا ترويسك:

يبلغ سكان نوفا ترويسك (١٠٦) آلاف نسمة حسب آخر إحصاء رسمي أجرته الحكومة، تبلغ نسبة المسلمين بينهم ١٥٪ ينتمون إلى قوميات متعددة حسب العادة الشيوعية التي لا تحصي الناس حسب أديانهم، وإنما حسب قومياتهم، إلا أنه من المعروف أن بعض القوميات تتألف كلها من المسلمين، كالتتار، والقازاق، وبعضها تتألف كلها من المسيحيين أو الشيوعيين، أي من غير المسلمين، كالروس، والأوكرانيين.

فالتتار من سكان المدينة يؤلفون مع إخوانهم القازاق والبشقردز الأكثرية الغالبة من المسلمين.

وحدثنا الإخوة عن بلدتهم بأنها قائمة على تعدين الحديد، وعلى صناعة الإسمنت أيضاً، إذْ توجد الحجارة الصالحة للإسمنت بجانبها،

ولذلك وجدت فيها مصانع للإسمنت لا تبعد عن مجرى نهر (الأورال) إلا بثمانية كيلو مترات، وهو الذي رأينا واديه الذي يجري فيه أخضر من الطريق، وإن لم نمر به مباشرة.

والتقطت صورة عامة لمشروع المسجد، وسوره الواسع المدار على أرضه التي تبلغ مساحتها ستة آلاف متر مربع، وهي منحة من الحكومة للمسلمين.

مغادرة نوفا ترويسك:

غادرنا مينة (نوفا ترويسك) في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً قاصدين العودة إلى مدينة (أورنبورغ) بطريق البر وليس بالجو، لأنه لا توجد رحلة جوية إليها إلا صباح غد، وليس في إمكاننا أن نضيع وقتنا إلى الغد، لاسيما أننا قد حجزنا للسفر جواً في التاسعة من صباح الغد إلى مدينة سمارا عاصمة إقليم سمارا.

وقد كرم أهل البلدة فأعطونا سيارة إحدى المؤسسات العامة، وهي حافلة صغيرة مع سائقها لإيصالنا إلى مدينة (أورنبورغ) التي تبعد (٣٥٥) كيلو متراً من نوفا ترويسك هذه.

ولم ندخل وسط المدينة ونحن نغادر المسجد الذي يقع في ضاحية مهمة من ضواحيها لم تشملها المساكن بعد، كما أننا لم نعد إلى الطريق الذي جئنا معه من مدينة (أورسك)، وإنما مع طريق إسفلتي لا بأس بجودته، بل إنه جيد لولا ضيق فيه، ويذهب مباشرة إلى مدينة أورونبورغ، فمررنا في ضاحية (نوفا ترويسك) بجبل من نفايات التراب الذي استخرج من الحديد، ولم نقف عنده أيضاً.

وقد أسرع السائق بالخروج من منطقة البلدة، وتبين أن هذا سيكون دأبه في الإسراع في السفر، وهو أمر نريده، لولا أننا نخاف عاقبته، لا سيما في هذا الطريق الضيق الذي تتقابل فيه السيارات، لا يفصل بينها إلا خط أبيض.

كان المنظر من الطريق عندما فارقنا المدينة ريفياً، أكثر ما يشاهد فيه حقول القمح الحصيد الذي تركوه فيها أجزاء من قصبه، لم تحصدها الحصادة، فاختلطت ببعض الأعشاب التي نبتت من مطر صيفي سابق، وصارت بذلك مراتع جيدة للماشية الراعية، إلا أنها قليلة رغم إمكان إكثارها، وسهولة ذلك لولا مشقة خزن أعلافها لفصل الشتاء الطويل.

الطريق بين أورسك وأورنبورغ

وأغلب السيارات الموجودة في الطريق الآن هي ناقلات كبيرة، وبعضها قلابات كبيرة، ومن المناظر اللافتة هنا أن جراراً زراعياً قد عرض عليه صاحبه أخشاباً، وحمل عليه مقداراً كبيراً من العلف، فصار بعرض سيارتين، واستأثر بالطريق كله، بحيث تضطر السيارات التي تقابله أو

التي تريد أن تسبقه إلى التريث أو التوقف حتى تجد فرصة للمرور.

والسائق روسي صامت على عادة السائقين الروس الذين عرفتهم في أماكن عدة من البلاد الروسية، ومن ذلك تنقلنا بالسيارات عبر جمهوريات بلاد القوقاز الصغيرة، والمراد الجمهوريات الصغيرة الواقعة في منطقة جبال القوقاز، حيث لا توجد رحلات جوية بينها.

قرية يوجني:

مر الطريق بقرية اسمها (يوجني) روسية خالصة للروس، بمعنى أنه لا يوجد بين سكانها أحد من المسلمين.

وتتميز الأرض التي حول القرية بالخصب والعناية، ومن ذلك أننا رأيناهم كوموا أكواماً هائلة من علف الماشية الذي حشوه من الأعشاب، ليجعلوه علفاً للماشية في الشتاء، وفيها حقول زراعية، بل تقع القرية وسط منطقة خضراء ضيقة.

وبعدها رأينا أرضاً سوداء قد حرقت الأعشاب الوحشية والأشجار الصغيرة فيها من أجل تنظيفها من هذه الأعشاب، والأشجار البرية، فأصبحت الأرض محترقة، فحرثوها حتى تخصبها الشمس، بعد أن أخصبها رماد الأعشاب المحروقة.

وفيها حقول خضر، ذكروا أنهم زرعوا فيها علفاً للحيوان أيضاً.

وقرية كيدرباسوفا:

وصل الطريق إلى وادٍ بين جبال جرد من النبات، وفي الوادي قرية اسمها (كيدر يا سوفا)، وهي ذات بيوت متفرقة، أي غير متلاصقة، وتبدو

كالأكواخ لرداءتها، وكونها كالتي لا تزيد عن غرفة من الصفيح.

وقد وقف السائق مع بعض الشاحنات التي رأيناها واقفة في منحدر الوادي، ومع سائقي الشاحنات زجاجات كبيرة من اللدائن الخفيف فارغة، تبين أنهم يملؤونها من نبع ماء في الوادي، ونزل سائقنا من السيارة فشرب من النبع، وأحضر منه ماء في زجاجة صغيرة، ولا أدري السبب في كونهم لا يأخذون منه بأوعية كبيرة، ولم يذكر مرافقنا الشيخ المفتي شيئاً عنه إلا أنه ماء نبع صافٍ، فلم يذكر أنه معدني، ولم يعرف أكثر من ذلك.

وبهذا صح ما أحسست به أكثر من مرة عندما أصل إلى المملكة من الهند، حيث أجد أن الهواء النقي غير الملوث بأدخنة السيارات، ولا بالروائح الكريهة من المواد الأخرى، هو أمر ذو بال يستحق الفرح والابتهاج .

وهم هنا يعيشون في جو المدن الملوث، أو الهواء الملوث، وبخاصة أن موقع التجارب النووية الروسية لا يبعد عن هذه المنطقة من إقليم (أورنبورغ) إلا بنحو ألف كيلو متر مربع.

قرية إيلينكا:

وصلنا إلى وادٍ متسع خصب تقع فيه قرية بادر المفتي الشيخ عبد الباري بالقول: إن أهلها من المسلمين لهم مسجد، ففرحنا بذلك، إلا أن فرحنا انقلب إلى ترح كما سيأتي.

وأول ما استرعى انتباهي في القرية أكوام من التبن وعلف الماشية مكومة فوق السطوح لكي تقيها عفونة المطر، وإفساد الثلج الذي يركبها فيما إذا بقيت على الأرض، وقد ذكرني ذلك ببلدان وقرى عديدة

في شمال الصين وشماله الغربي، رأيت أهلها يضعون فيها تبن الأرز والقمح فوق سطوح منازلهم، أو فوق سطوح غرف فيها.

التبن على السطوح في قرية إيلينكا

ولم يسترع انتباهي خلو شوارعها من الزفت مطلقاً، لأن هذا صار سمة غالبة على القرى الروسية في هذه المنطقة، وفي مناطق أخرى من روسيا.

ورأيت مشهدين شدّا انتباهي، أحدهما مشهد عدد من شبان القرية وصبيانها يسيرون في شوارعها الترابية بسروال، وليس على أعالي أجسامهم شيء من اللباس، مع أنهم واقعون في منطقة شمالية باردة، وهذا البياض الشديد في الأجسام، مع مظهر القرية الذي تبدو فيه كأنما هي من قرى إفريقية، أو الهند.

وشيء تافه آخر، وهو شدة سواد الغربان فيها، رغم شدة بياض الناس، وكثرة الغربان أيضاً.

وقد رثيت للسائق في هذه القرية وهو يسير بسيارته ترتفع وتنخفض

مع الحفر، والنقر التي في الشوارع، فتتمايل ذات اليمين وذات الشمال، ونحن معها نتمايل مرغمين.

المسجد زريبة حيوان:

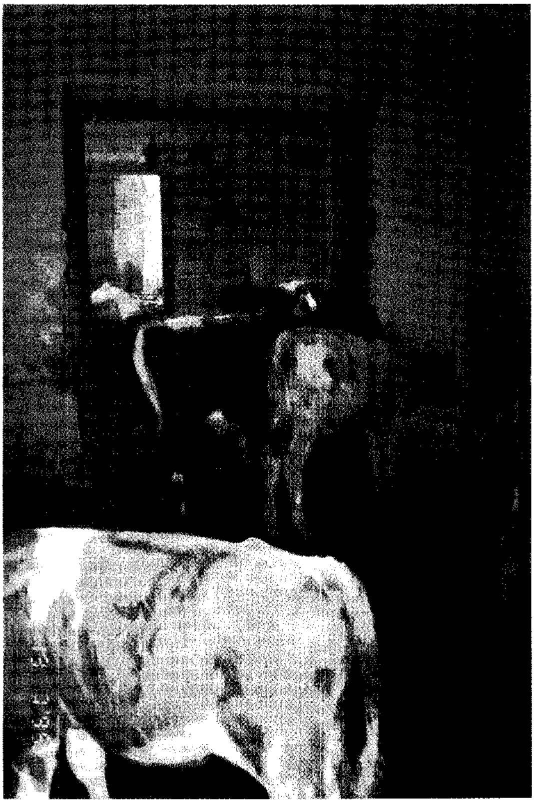

البقر داخل مسجد إيلينكا

كان سبب دخولنا لهذه القرية هو لرؤية مسجد فيها وحيد، وقد رأينا منارته ظاهرة بارزة بسبب تطامن بيوت القرية التي لا تزيد على طابق واحد، لكونها بيوتاً ريفية أغلبها للفلاحين.

ودلنا على حالة المسجد منظر منارته التي لم ترمم ولم تجدد، إلا أن ذلك على سوئه كان أقل صدمة من حالة المسجد نفسه، فقد رأيناه مهملاً، على بابه من جهة أبقار، وعلى باب له آخر ماعز.

وتبين أن الأمر أسوأ من ذلك، إذْ لاحظنا أنه قد تحول إلى زريبة للحيوان، وأنه مليء بالأبقار والماعز، وأن داخله قد صار مزبلة عفنة من روث الأبقار.

والمسجد نفسه قد أصابه الخراب، وأهم ذلك ما كان من سقفه ناحية القبلة، حيث المطر والثلج يسقط منه على أرض المسجد.

والغريب أن البقر اختار أن يربض فيه من باب العادة، وإلا فإن الجو ليس بارداً ولا حاراً يحوجه إلى أن يبحث عن مكان مسقوف. والبقر نفسه على حالة جيدة من السمن، وكذلك الماعز الكبير الحجم، ولكن مبنى المسجد على حالة زرية، بل مهينة للمسلمين من أهل هذا الإقليم كلهم، وليس لأهل هذه القرية وحدهم، وقلت للمفتي المسؤول عن هذا الأمر: لماذا يترك المسجد هكذا، ولا مسجد للمسلمين من أهل القرية غيره؟.

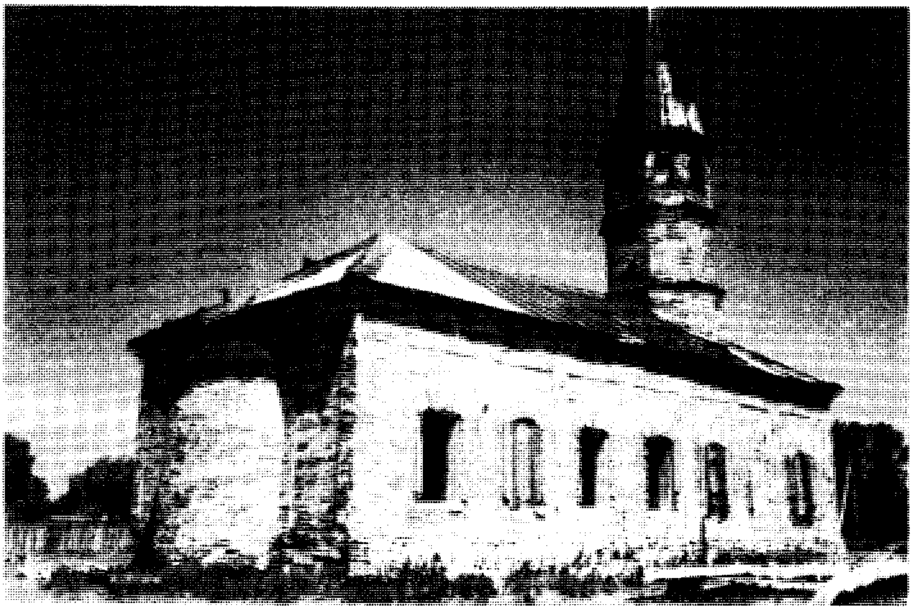

مسجد إيلينكا المهجور المهان

فقال: إنهم يقولون: إنهم يحبون إصلاحه، ولكنهم لا يستطيعون ذلك لضعف إمكاناتهم المادية.

فقلت: إن هذا عذر غير مقبول، فالإمكانات المالية لا تأتيهم عفواً، وإنما تأتي مثلما أتت غيرهم بعد التمهيد لإصلاح المسجد، والسعي في جميع التبرعات له، ولن يضير المسلمين في القرية أن يستغنوا حتى عن وجبة من وجبات الطعام في الأسبوع، فيجمعوا من ذلك ما يستطيعون أن يفتحوا به باب التبرع بالمسجد، مثلما فعل إخوان لهم في الإسلام من أهل الهند قبل خمسين سنة، عندما رأوا أن الجماعات النصرانية قد افتتحت ملاجئ للأيتام، تربيهم وتعلمهم تربية مخالفة للإسلام، ورأوا أن بعض أولاد المسلمين صاروا يدخلون إليها بسبب الحاجة، وعدم وجود من يكفلهم من المسلمين، فتنادوا بينهم – على قلة دخولهم لإنشاء دار لأيتام المسلمين، وصاروا يطلبون من كل بيت من بيوت المسلمين أن يتبرع لهم بلقمة من طعام كل فرد من أفراده من الأرز، شرط أن يكون الأرز جافاً، طعامهم الغالب كان الأرز، لأنهم من أهل جنوب الهند، فهم في مدينة بنقلور عاصمة ولاية كرناتك.

وقد جمعوا تلك اللقمات الجافة، فكونت مقادير من الأرز استعملوها طعاماً للأيتام، وما فضل عن ذلك باعوه لاستخدامه في أغراض أخرى للميتم، إلى أن عرف أثرياء المسلمين خارج مدينتهم وداخلها جديتهم، فأقبلوا على التبرع بالكثير بالمال، حتى كبر ذلك الميتم، وصار يتبعه مدارس ابتدائية ومتوسطة وثانوية وكلية للبنات أسموها كلية (الصالحات)، وقد ذكرت ذلك في كتاب: ((**جنوب الهند**)) من سلسلة الرحلات الهندية.

وقلت للأخ المفتي: إن هؤلاء المسلمين يعتبرون بمثابة رعيتك التي أنت مسؤول عنها، لأنك رئيس الأمور الدينية في هذه البلاد، ولا يجوز أن يكون المسجد هكذا، فلا تحركون ساكناً لإصلاحه، فتبين لي أنه لم يكن

يعرف حالته من قبل.

البقر رابض في داخل مسجد ةإلينيكا

وهـذه عـادة رأيتـها مـن مفـاتي - جمـع مفـتٍ – عديديـن، ومـن رجـال مسـؤولين في هـذه البـلاد الروسـية، لا يعرفـون شـيئاً ذا أهميـة مـن أحـوال إخوانهم خارج المدينة والقرية التي ينتمون إليها.

وقلت له: أنت تعلم أن رابطة العالم الإسلامي تساعد على إعمار مثل هـذه المساجد التي تستعاد، مع أن هـذا المسـجد لا يسـتعمل الآن إلا زريبـة عامة للأبقار والأغنام، وحتى البط رأيناه – أيضاً – وهو يقرقر عند حائطه الخارجي.

وقلت لـه: إذا فرض أن أهـل القريـة لم يسـتطيعوا أن يعملوا أي شـيء

لهذا المسجد الذي لو لم يكن فيه إلا أنه مظهر من مظاهر ثقافتهم الإسلامية، وأثر من آثار آبائهم المسلمين في المنطقة، لكان ذلك كافياً لأن يحفزهم للعناية به، وعدم تركه في هذه الحالة المزرية، ولكان ينبغي لهم أن يصونوه بأن يغلقوه دون أن يتحول داخله إلى مزيلة من روث الدواب ومخلفاتها الأخرى.

ثم إنه أثر من الآثار القديمة الثمينة إذْ هو قديم البناء، وترك على هذه الحال يعجل بخرابه خراباً نهائياً بسقوط سقفه، وبعدم إمكان ترميمه.

قال المفتي: لقد سبق أن قلت لهم هذا إن المسجد يمثل شرف أجدادكم، ويجب عليكم صيانته.

فقلت له: إنني أرى أنه رغم ما أصيب به المسجد حتى الآن، ما زال في الوقت متسع لإصلاحه، فيجب أن تكوّن لجنة من أهل القرية، ولن تعدم منهم من يستجيب لذلك، وأن تشرعوا في إصلاحه، ونعدكم بأننا سنرسل إليكم من رابطة العالم الإسلامي مساعدة عاجلة إذا كتبتم لنا بأن ذلك قد خرج إلى حيز التنفيذ.

لقد كان بإمكاننا أن ندفع مساعدة عاجلة مما نحمله من نقود من رابطة العالم الإسلامي، ولكننا لم نفعل ذلك، لأننا ندفع مثل هذه المساعدة للمساجد والمدارس التي بدئ بها، ويحتاج الاستمرار في إصلاحها إلى مساعدة، أما أن ندفع شيئاً لمشروع لم يبدأ حتى باتخاذ الإجراءات لتنفيذه، فإن التجارب قد علمتنا أنه كثيراً ما تحدث عوائق تحول دون تنفيذه، فيذهب المال الذي دفعناه سدى.

وفي هذه الحالة النفسية التي أصبحنا عليها بسبب ما عليه المسجد

من إهمال، وبالتالي لمعرفتنا بأن أهل القرية لا يؤدون حتى صلاة الجمعة، خرجنا من القرية وسيارتنا تتمايل في شوارعها، كما لو كانت حسرى مثلنا على هذا الحال.

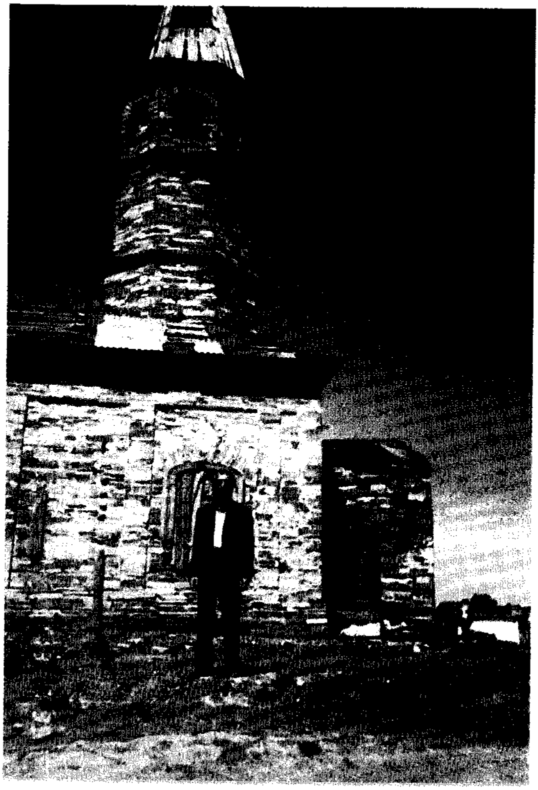

المؤلف عند مسجد إلينيكا المعطل

ورأيت في جانب من القرية مناظر متناقضة، منها أن سيارة روسية صغيرة من طراز (لادا) كانت متوقفة عند كومة من السماد بجانب أحد البيوت التي تبين أنها تتبعها أرض زراعية صغيرة، يزرعها أهل البيت، وفوق سطح غرفة متطامنة فيها كومة من علف الحيوان مرفوعة عن الأرض لما سبق ذكره.

وقال الشيخ المفتي: إن سكان القرية يبلغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة، نصفهم من المسلمين، ونصفهم من الروس.

وقفة عند مطعم نادر:

المطاعم والمقاصف نادرة في الطرق الروسية، ومعدومة في طرق أخرى، ومن المطاعم النادرة التي لم نر غيرها على هذا الطريق الذي يبلغ طوله (٣٦٠) كيلو متراً مطعم، وهو مقصف للوجبات السريعة التي يتناولها الشخص وهو واقف، إذْ لا توجد فيه قاعة الطعام، ولا موائد للجلوس.

وذلك أننا بعد ما تركنا القرية المؤسفة حالتها بعشرة كيلات رأينا مفترقاً لطريق السيارات، كتبوا عليه قبل الوصول إليه بأن السرعة محددة بأربعين كيلو متراً، وقد التزم بها السائق بالفعل .

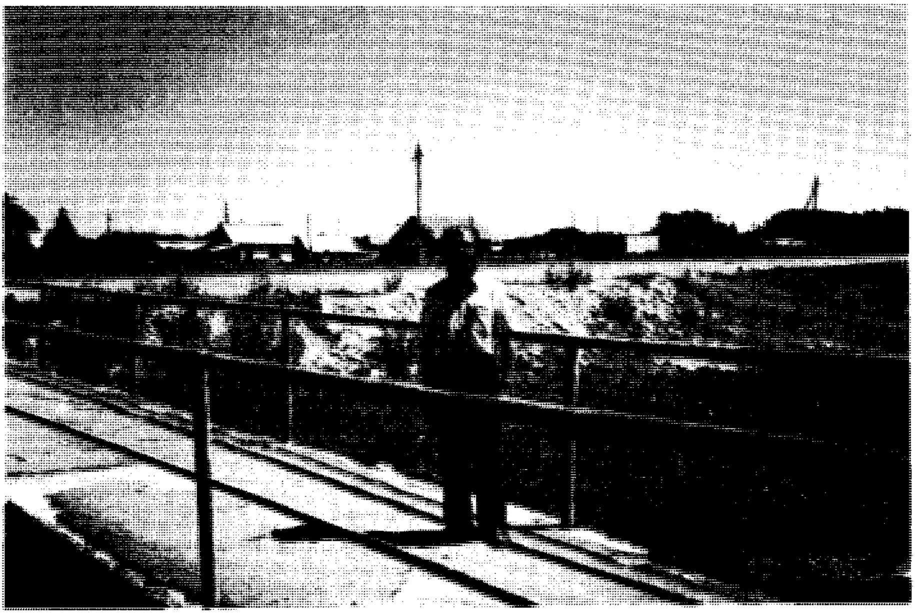

المؤلف في مفرق الطريق عند المطعم في منتصف الطريق بين أورسك وأورنبورغ

ثم موقف عند المطعم، فوجدنا عنده مثل ما رأيناه في طريق طويل سلكناه داخل روسيا البيضاء، وهو موقد جمر مرفوع عن الأرض بنحو المتر، والجمر فيه يتقد، وعليه بقايا قطع من الخشب غليظة، ولكن ليس

عليه غير ذلك، وقد وضعوه أمام المطعم من أجل أن يجلب السائقين، أو ينبههم إلى وجود هذا المطعم، مع أنهم لا يحتاجون إلى تنبيه، إذْ تنبههم إليه الحاجة، وعدم وجود غيره في الطريق.

بحثنا في المطعم عن شراب نشتريه من الكولا أو البيبسي، فلم نجد إلا شراباً من شراب الفراولة مشبعاً بالغاز.

ولم نكن بحاجة إلى طعام، فقد تناولنا ونحن في السيارة شيئاً خفيفاً من الكعك.

ورأيتهم يشوون على ذلك الجمر لحماً للمشترين.

والغريب أننا رأينا السواقين يأخذون من زجاجات من زجاجات الخمر، بسياراتهم، والمفروض أنهم يذهبون بها إلى بيوتهم، وإلا فإن تناولها وهم يقودون السيارات أمر محظور، وفيه خطر عظيم عليهم وعلى غيرهم. أما نحن فقد اشترينا زجاجة كبيرة من شراب الفراولة الفوار، ولكننا لم نجد عندهم أكوابا نحملها في السيارة، فاضطررنا إلى استعارة كوب واحد نتناوب الشرب فيه وغسله، ثم نعيده إليهم.

وذكرت المقاصف وأماكن الاستراحة على الطرق في بلادنا، وكثرتها ووفرة الخيرات المتنوعة الرخيصة فيها، فحمدت الله تعالى وشكرته.

وقد أخبرنا السائق أنه قد بقيت على الوصول إلى مدينة (أورنبورغ) (١٦٠) كيلو متراً.

المسجد الذي حولوه إلى طاحونة:

كانت الوقفة أيضاً مؤسفة عند قرية اسمها فيكولسك، أهلها

مسلمون بالاسم، أو لنقل: إن آباءهم وأسلافهم من المسلمين، وأنهم أنفسهم ليسوا من المسيحيين، ولا من المنتمين إلى أي دين غير الإسلام الذي يعتبرونه هوية تميزهم عن غيرهم، ولكنهم لا يمارسون شعائره، لا يأتمرون بأوامره، ولا ينتهون عند نواهيه.

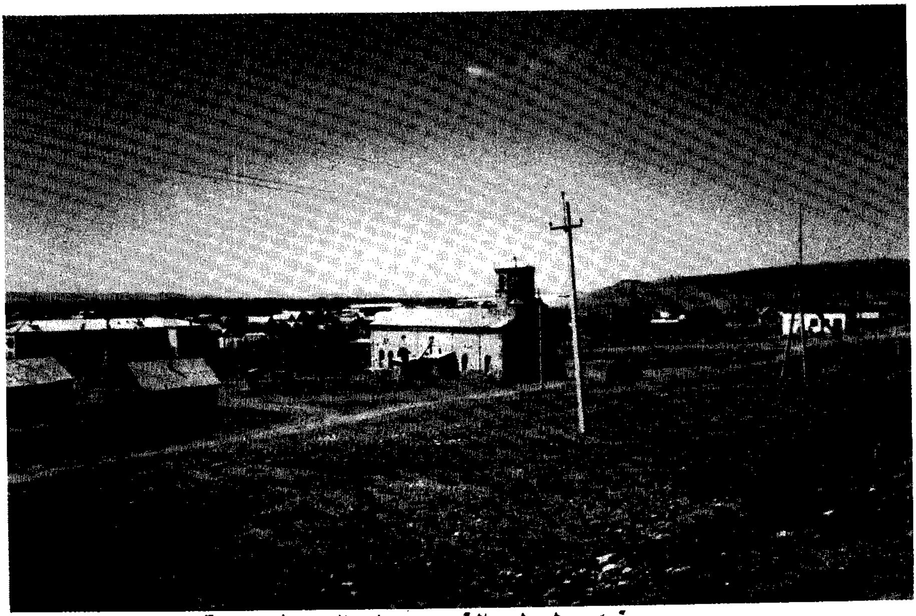

مسجد فيكو لسك الذي حول إلى طاحونة

لذلك رأينا مسجداً في القرية ظاهراً منفرداً، ليس بجانبه بيوت، ولكن الشيوعيين كانوا قد حولوه إلى طاحونة، ولا يزال كذلك حتى الآن، فلم يكن عند أهل القرية الذين ذكر المفتي أنهم مسلمون همة ولا عزم على استخلاصه ثم تجديده في إقامة الصلاة فيه.

وقال المفتي كما قال السائق: إن عدد سكان القرية يناهز ألفي نسمة، إلا أن المفتي أضاف: إنها كانت فيها أربعة مساجد، ثلاثة غير هذا المسجد، وإنه لا يعرف الآن ما إذا كان منها مسجد واحد يصلى فيه، ولكن آخر ما يعلمه أنه ليس فيها مسجد معمور بالمصلين!.

وقلت له في هذه المرة ما قلته في المرة السابقة: إنه يجب عليك أن

تسعى إلى استرجاع هذه المساجد، وذلك بتشجيع أهل الخير من المسلمين فيها، ثم تكتب للمؤسسات الإسلامية وعلى رأسها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة بطلب المعونة المالية على ما لم تستطيعوا القيام به من ذلك، وإن الرابطة إذا اقتنعت من الطلب استجابت إليه، وأرسلت المساعدة، وإذا لم تقتنع أرسلت مدير مكتبها في موسكو أو غيره إليكم، فشاهد الأمر ثم كتب به إليها، فأسرعت المساعدة.

المؤلف قرب قرية فيكو لسك بين أورسك وأورنبورغ

وقد وعد خيراً، وإن كان لم يجزم المسألة معلقاً الأمر على حالة المسلمين في القرية.

بعد قرية فيكو لسك انحدر الطريق انحداراً خفيفاً إلى سهل متسع، على يمين الطريق ويساره أشجار وأعشاب برية نامية، ولكنها غير كثيفة.

ورأيناهم يحرقون الأعشاب والأشجار القصيرة الوحشية النابتة في الأرض، وذلك من أجل التخلص منها، والانتفاع بالرماد المتخلف عن حرقها في إخصاب الأرض.

ثم مررنا بمنطقة زراعية فيها بحيرة اسمها (ستار يتسا).

ثم مر الطريق بعد ذلك بحقول من حقول عباد الشمس الممتدة، وهي كأكثر الحقول والمزروعات الأخرى ملك للدولة، جرياً على ما كان عليه الحال في النظام الشيوعي الذي لا يزال معمولاً به في أكثر الأشياء؛ حيث لا يجوز أن يتملك الأفراد أرضاً إلا قطعاً صغيرة محدودة تمنحها الدولة لهم على سبيل الاختصاص، بمعنى أنهم لا يملكونها كما يملك الأفراد في البلدان الأخرى غير الشيوعية الأراضي الزراعية، ولكنها لا تنتزع منهم، ويرثها الأبناء عن الآباء.

الطريق بين أورسك وأورنبورغ . صورة التقطها المؤلف من السيارة

وعباد الشمس رأيت حقوله مزروعة في أماكن عديدة من شرق أوروبا البارد؛ حيث يعصرون حبه ويستعملون ما يستخرج منه زيتاً للطعام، ويخصصون الثفل وهو بقايا الحب طعاماً للدواجن، أما قصبه وتبنه فهو علف للحيوان.

وقرية فيها مسجد:

كان الأسف يملأ قلبي، ويكدر خاطري، ونحن نقبل على قرية ذكر المفتي أن نصف سكانها من المسلمين، ونصفهم من الروس، فتحاشيت أن أساله مسرعاً عن حالة المساجد فيها، ولكنه سارع فذكر أن في هذه القرية مسجداً عامراً للصلاة، فحمدت الله وشكرته، وسألته عما إذا كان المسجد يحتاج إلى مساعدة لكي نقف عنده، فذكر أنه لا يحتاج، لأنه يصلى فيه الآن.

واسم القرية (نواتسير كاسك).

ونوه المفتي بأن السكان المسلمين فيها هم من التتار.

وأهم ما لاحظناه في هذه القرية كثرة الأعلاف التي جعلوها أكواماً مكومة من تبن وعشب حشوه، أي أخذوه من الأرض ليستخدموه في الشتاء، حيث تعقم الأرض عن إنتاج أي علف، بل عن إنتاج أي شيء، بل تتكاثف فوقها الثلوج، فلا ينتفع منها بشيء من النبات.

هذا والسائق يسرع بسيارته، بل إنه يتجاوز أحياناً المائة وعشرين كيلو متراً من سرعته، مع أنها حافلة صغيرة، وحالة الطريق سيئة، وإن لم تبلغ درجة سوئها سوء حال الطرق داخل المدن في هذا الإقليم.

وقد صار الطريق مشجراً عند محاذاته لهذه القرية وبعدها، فالتقطت له هذه الصورة، وكان من المناظر المتعددة في هذه المنطقة التي يشقها مناظر مكررة من حقول القمح الحصيد. وعلى جانبي الطريق نمت نباتات من نبات عباد الشمس، وقد أزهرت بأزهار صفر داخلها حبوبها السود، وهي لم تزرع، وإنما سقطت أثناء النقل، أو حملتها الريح.

هذا وكلما اقتربنا من مدينة (أورونبورغ) زادت خصوبة الأرض،

واعترض الطريق ماعز سود، بطونها مليئة من هذه الأعشاب النامية التي لا تكون هكذا في الكثرة والنمو إلا في فصل الصيف الذي هو لهم فصل الربيع.

ومن الغريب وجود الغربان السود الغرابيب، أي التي لم يخالط سوادها غيره، فليست من الغربان البقع التي يخالط سوادها شيء من الحمرة، أو الغبرة الموجودة في موسكو.

وفكرت في قلة القرى والمدن في هذه المنطقة مع خصوبتها وصلاحيتها للزراعة بالنسبة إلى المناطق الشمالية منها، فذكرت ما كان قاله لي أحد الأخوة المهتمين بهذه الموضوعات من أهل البلاد عندما سألته عن أسباب وجود الروس في مدن المنطقة وقراها، حتى صاروا أو كادوا يعادلون في العدد سكان أهلها الأصلاء من القازاق والتتار، فقال: إنها منطقة واسعة، وفيها أراضٍ زراعية تنتج من الغذاء والحيوان ما لا تستطيع الأراضي الروسية الشمالية أن تنتجه، ثم هي أيضاً قليلة السكان، واسعة الأراضي، بحيث تبدو بعض أراضيها كأنما هي مهجورة، لذلك هاجر الروس إليها، أو هُجّروا فاستوطنوا فيها منذ أول الاحتلال الروسي، حتى صاروا يعدون أنفسهم من أهلها، وليسوا بغرباء عنها.

ومن هذا الجد المؤسف نقول في شيء تافه: إننا وصلنا إلى قسم من الطريق يصلحونه، وتركوا النصف الآخر تسير عليه السيارات، حتى إذا جف تركوه لسير السيارات، وصبوا النصف الذي لم يصب عليه الزفت من قبل، فضلاً عن أن يكونوا مثلنا ومثل الأقطار المتقدمة القليلة في العالم التي تهيئ تحويلة، وهي الطريق الممهد المؤقت تسير عليه السيارات، إلى أن يتم ترميم الطريق على الوجه الأكمل، فتسمح بمسير السيارات فوقه.

أما هذا الذي رأيت اليوم فهو عجيب، إذْ تعمل فرق إصلاح الطريق

بينما السيارات تسير فيخوض بعضها في هذا الزفت الذي لا أدري أحار هو أم بارد، فيصيب رشاشه الأسود اللزج السيارات، ويلوثها، مما جعل بعض السائقين يخرج نصف سيارته إلى الأرض الترابية التي تحف بالطريق لكي يتفادى على الأقل تلويث نصفها بالزفت إذا كانت حالة الطريق تسمح بذلك.

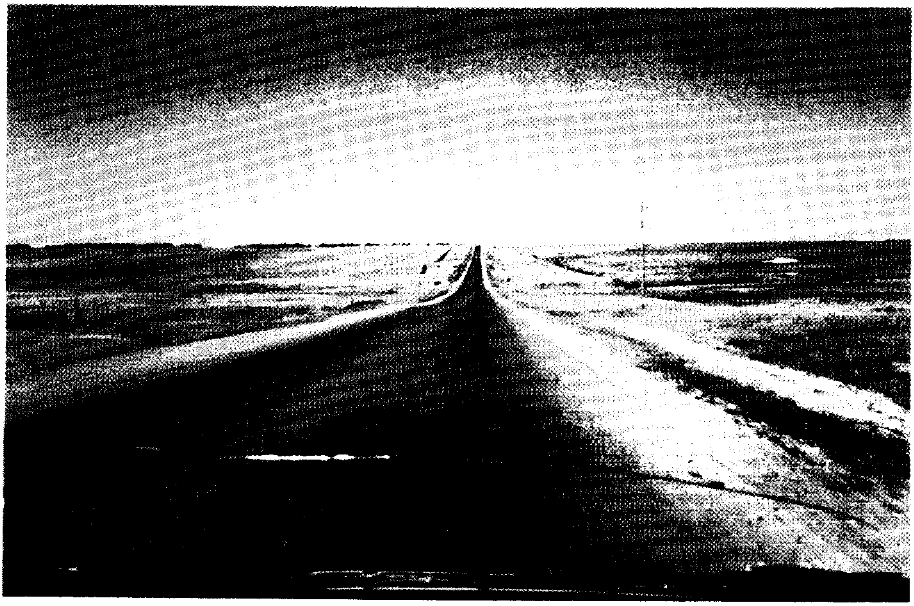

في الطريق بين أورسك وأورنبورغ

ولا شك أنهم لو كانوا في أرضي صحراوية مستوية لتجنبوا الطريق المزفت كله حتى يصلوا إلى الجاف منه.

وهذا مظهر من مظاهر سوء الإدارة في هذه البلاد، وعدم مبالاة موظفيها بمتاعب الناس، فضلاً عن البحث عما يريحهم، وربما كانوا يفكرون أن مجرد صب الزفت على الطريق ليكون أملس جيداً هو منة لهم على السائقين، ينبغي أن يشكروها وأن يتحملوا كل ما يترتب عليها من متاعب.

ومن مظاهر الإهمال أيضاً أننا رأينا سيارة قلاب ضخمة مليئة بتراب

لا أدري لأي غرض، ولكنه متروك فوقها وهو بارز عن صندوقها دون موانع، فصارت تسير وتلوث الطريق بما يقع من ذلك التراب عليه.

وبحثت عن أرقام الكيلات من الطريق التي لا بد أن تكون فيه حيث أردت أن أعرف ما بقي منه قبل الوصول إلى (أورونبورغ)، فلم أرَ من ذلك شيئاً كالذي يكون عندنا، وفي أكثر البلدان، فاسترعى السائق انتباهي إلى لافتة صغيرة عليه كتابة صغيرة لا تكاد ترى، فيها رقم الباقي من الطريق، ولكن لا ينتبه إليها إلا من كان خبيراً بها، وقال: لقد بقيت على الوصول إلى (أورنبورغ) (٣٥) كيلو متراً.

بيوت المنتجعات:

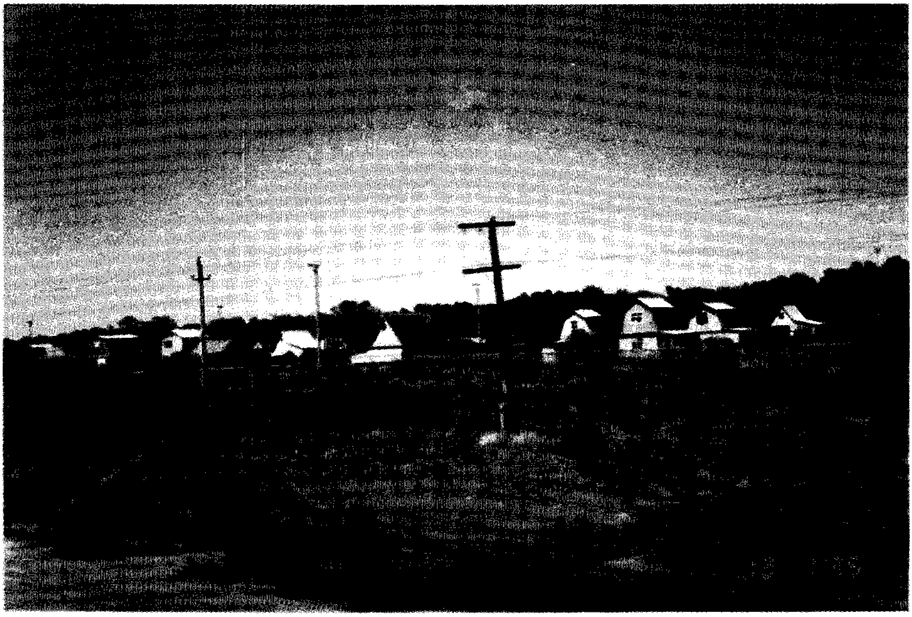

بيوت الانتجاع قرب أورنبورغ

قبل الوصول إلى (أورونبورغ) بـ ٢٩ كيلو متراً وصلنا إلى بيوت متفرقة، أي بعضها منفرد عن بعض، لا يوجد فيها بيتان متلاصقان، ويكون البيت منها – في الغالب – أشبه بغرفة واحدة، لأنه صغير المساحة،

إلا أن بعضها يكون من طابقين.

وهذه البيوت يسمونها المنتجعات، وانتشرت في البلاد الروسية في السنين الأخيرة، لكون معظم السكان يعيشون في شقق صغيرة محدودة المساحة، فاتخذوا هذه المنتجعات لسكناها في الصيف، أو الخروج إليها عند الفراغ، ويكون البيت الواحد منها وسط مساحة صغيرة من الأرض، لكن صاحبه يستغلها في زراعة البطاطس التي تكفيه إذا كان وحده، أو كانت أسرته صغيرة العدد، مؤنة للشتاء، لأنهم يخزنون البطاطس من دون أن يفسد في الشتاء، وذلك لبرودة الجو، وبطريقة اتخذوها لذلك منذ القديم بداعي الحاجة، و(الحاجة أم الاختراع) كما يقال.

مما يجدر ذكره أن زراعة البطاطس لا تحتاج إلى ماء، فهو يسقى من ماء المطر في الصيف إذْ تسقط الأمطار في سبتمبر حتى منتصف أكتوبر، حيث تبدأ الثلوج في النصف الثاني بالتساقط.

وقد سمعت منهم في هذه المنطقة، وفي مناطق أخرى من يسمي منهم هذه البيوت بالمنتجعات، وبأنها بيوت الأغنياء، وذلك أنه لا يستطيع الحصول عليها إلا الغنيّ، والغنى نسبي هنا، فالغنيّ فيهم يعتبر ميسور الحال عند غيرهم، لأن هذه هي حال أغلبية الشعب الروسي في الوقت الحاضر إلا النادر الذي لا حكم له، ولا يقاس عليه.

وقبل الوصول إلى مدينة (أورنبورغ) حسن الطريق، وصار ذا اتجاهين تفصل بينهما جزيرة فيها عشب بري غير منسق.

ولم أرَ في الطريق في القرى أو قرب المدن باعة من الفلاحين يبيعون الفاكهة، كما يكون عليه الحال في البلدان المنتجة للفاكهة في جنوب الاتحاد السوفيتي السابق، مثل أوزبكستان، وتركستان، اللتين تنتجان

مقادير ضخمة من الفواكه المتنوعة، مثل الأعناب والتين والخوخ والكرز والمشمش.

هذا وقد عاد الطريق إلى كونه واحداً مفصولاً بين طريق السيارات الذاهبة والآيبة بخط أبيض.

وأغلب سيارات الركوب فيه هي (لادا) أوسع السيارات استعمالاً في الاتحاد السوفيتي كله، وفي روسيا في الوقت الحاضر، وهي من صنع روسي تشبه الفيات الإيطالية.

وهي صغيرة الحجم، إلا أن السيارات الأخرى التي تشاركها الطريق هي سيارات نقل ضخمة خشنة المظهر، روعي في تصميمها القوة والمنفعة، دون أن يراعى فيها الجمال، وكلها من صنع روسي.

هذه أورنبورغ:

في الرابعة إلا ربعاً كنا ندخل مدينة (أرونبورغ)، فكان أول ما وصلنا إليه منها أبنية حكومية ضخمة مؤلفة من شقق سكنية صغيرة، ولكنها كثيرة، وهذا الطريق هو غير طريق المطار الذي دخلنا منه إلى المدينة لأول مرة.

وقصدنا رأساً دار الفتوى حسب رغبة صديقنا الشيخ عبد الباري، فوجدنا مائدة الغداء فيها منصوبة، عليها الأطعمة الباردة والفاكهة والحلوى، والأخوات المسلمات المسنات يعملن في إعداد الطعام الحار.

وقد أكلنا أكلاً لَمّاً لحاجتنا إليه، ولكونه حلالاً بلالاً، والطعام الحلال لا يوجد في هذه البلاد للبيع، ومن الغريب المؤسف أنه لا يوجد مطعم إسلامي يذهب إليه المرء فيأكل فيه لحماً يعرف أنه ذبح ذبحاً

شرعياً، وإنما على من يريد ذلك أن يذبح ذبيحة لنفسه، أو بالاشتراك مع الآخرين.

توزيع المساعدات المالية:

كنا قد ضربنا موعداً لأهل المساجد والمشروعات الإسلامية التي زرناها ورأينا أنها تحتاج إلى مساعدة عاجلة، وحددنا لهم السادسة من عصر هذا اليوم، ولكن بعضهم تعجل الأمر وحضر في الخامسة والنصف، فأعطيناه ما قررناه له، ثم جاءت بقيتهم، ولم ينته ذلك إلا في السادسة والنصف.

وخرجت أثناء فترة من العمل إلى الشارع الذي يقع عليه المسجد الجامع هذا الذي فيه دار الفتوى، وهو شارع: (ريبا قوفسكايا)، وأخذ لي أحدهم هذه الصورة التذكارية فيه.

ثم عدت إلى الإدارة الدينية فتأملت النبات الذي فيها، فإذا به كله أعشاب وحشية، بمعنى أنها نبتت من دون استنبات، وقلت في نفسي: لماذا لا يحاولون أن يزرعوا هنا شيئاً مفيداً مما لا يحتاج نضجه إلى وقت طويل، مثل الطماطم والخضار، فهو لا يحتاج إلى سقي، لأن أمطار الصيف تكفيهم عن ذلك، حتى لو زرعوا فيه بطاطس مثل أولئك الذين يزرعون مساحات ضئيلة من البطاطس أقل سعة بكثير من مساحة حديقة الجامع والإدارة الدينية الواسعة؟

لاشك في أنهم سيجنون منه خيراً كثيراً.

والأشجار أكثرها من أشجار الظل، مع كون الظل هنا غير مرغوب، فتكون من أشجار الخشب ما عدا أشجار التفاح الصغير المسمى

بالبلدي، وثمره لا يكون جيداً، لذلك رأيناه متروكاً على الأرض بمقادير كبيرة لا يرغب أحد أن يأخذه لعدم صلاحه للأكل.

ولاحظت الآن أن باب الإدارة الدينية أخضر الطلاء، تعلوه (٣) أهلة دون نجوم.

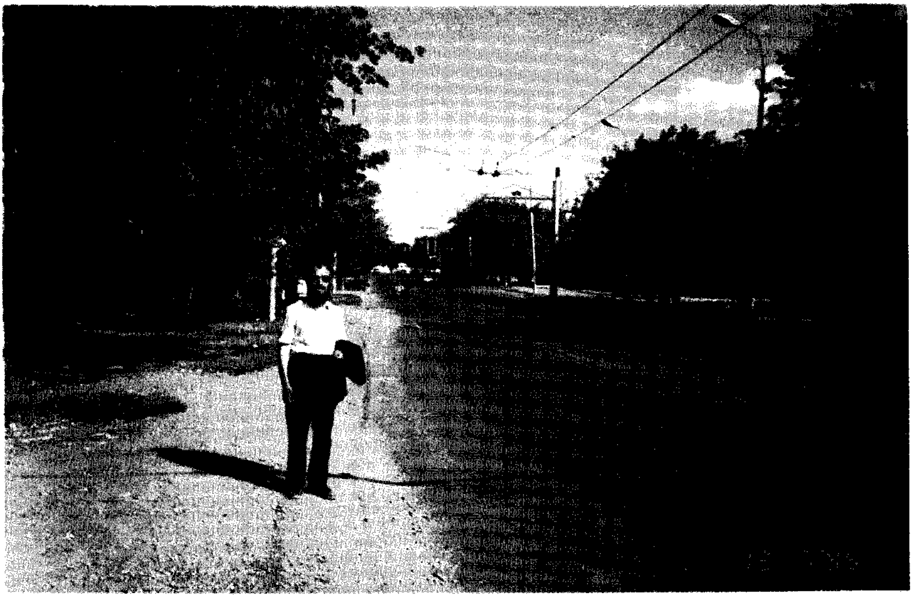

المؤلف في الشارع الذي تقع عليه الإدارة الدينية في أورنبورغ

وفي السابعة والنصف كنا قد فرغنا من صرف المساعدات للإخوة المسؤولين عن المؤسسات الإسلامية، فكنا نطلب حضور رئيس الجمعية المشرفة على المشروع، مثل رئيس جمعية المسجد الذي يسمونه (رئيس متولي)، فرئيس هي المعروفة، ومتولي أصلها من الولاية على الوقف ونحوه، فجمعوا بين الكلمتين لتدلا معاً على المعنى الخاص لهذا الأمر، وهو الرئاسة على لجنة أو جماعة تقوم على مشروع خيري، وهم يطلقون هذا اللفظ (رئيس متولي) دون إضافة من تعريف أو وصف، ولو كانوا قالوا: (رئيس) لا نصرف الذهن إلى الرئاسة الدنيوية حتى يحلى ذلك بلفظ أو تعريف.

ونطلب ان يكون معه خازن الجمعية المسؤول عن الأموال التي ترد إليها لحفظها، ثم صرفها على المشروع حسب نظام الجمعية الذي لا يجيز أن ينفرد شخص من الجمعية بذلك.

وقد يكون المشروع مسجداً تحت البناء والتأسيس، وقد يكون مكتملاً، ولكنه يحتاج إلى مساعدة قليلة من أجل الإنفاق على المصروفات المتكررة اللازمة له، وبعضها لا نعرفه في بلادنا، ولا نحتاج إليه، مثل مصاريف التدفئة التي تستمر في هذه البلاد لمدة سبعة أشهر، وتكون كثيفة غالية في الوقت الحاضر لشدة البرد وارتفاع أسعار المواد الذي لم يرافقه ارتفاع في مستوى الدخول مساوٍ لارتفاع الأسعار.

وفي هذه الحالة فإننا نطلب إمام المسجد أن يكون حاضراً عند صرف المساعدة للمسجد، وأن يشترك في التوقيع على الأوراق التي تتضمن تسليم المساعدة، رغم كونه ليس عضواً في الجمعية، وذلك من أجل العلم، وبغية أن تكون له معرفة بكيفية صرف المساعدة، ثم نصدق أوراق التسلم من أعلى جهة دينية في البلاد، كالمفتي الذي يتم تسليم المساعدة بحضوره ـــ في بعض الأحيان، أو من قبل رئيس المسلمين وزعيمهم.

وقد علمتني التجارب في أنحاء العالم كله أن النقود إذا صرفت بهذه الطريقة، فإنها تصرف فيما قدمت له، ولا تصرف لغير ذلك.

والسبب هو هذه الاحتياطات التي ذكرتها، وكون المساعدة العاجلة مثل هذه التي صرفناها اليوم تكون قليلة، وتكون لمشروع محتاج، أما إذا كانت المساعدة أكثر، فإنها تصرف بوساطة السفارة السعودية الموجودة في البلد الذي يقع فيه المشروع، أو بوساطة مدير مكتب رابطة العالم الإسلامي في ذلك البلد، ويكون صرفها لهم حسب سير العمل في تنفيذ المشروع، وقد تصرف منجمة، أي موزعة على عدة دفعات، حسب

الحاجة وجودة التنفيذ.

الفندق الشيوعي:

ليس للفنادق مذاهب، وإن كان لأهلها مذاهب عديدة في البلدان الحرة، لا يؤثر مذهب أهل الفندق على الفندق نفسه، غير أن بعض الفنادق في بعض البلدان تكون لها صفات وخصائص في البناء، أو في الخدمة، أو في الأدوات والأشياء المستخدمة فيها، ومن ذلك فنادق الاتحاد السوفيتي التي بنيت في زمن سيطرة الحكومة الشيوعية، فقد بنت في أكثر المدن الرئيسية في الاتحاد السوفيتي السابق فنادق على طراز يكاد يكون واحداً، فهي كبيرة كالفنادق السياحية في البلدان الغربية، وهي المعدة لإسكان السياح الذين تكون دخولهم في العادة محددة، مثلما تكون المبالغ التي رصدوها للإنفاق منها على السياحة مقدرة تقديراً، بخلاف رجال المال والأعمال التجارية، ورجال الدولة، فإن هؤلاء لا يسكنون في الفنادق السياحية، وإنما يسكنون في الفنادق الكبيرة المجهزة بما يحتاجونه من وسائل اتصال، وغرف اجتماعات، إضافة إلى ما يقضون فيه الزائد من أوقاتهم داخل الفنادق طلباً للأمن من مطاعم ومقاصف، وربما ملاه ومراقص... إلخ .

والفنادق الشيوعية هذه تتميز لذلك بصغر غرفها، وكونها على نظام واحد، من كون الغرفة فيها حمام يمر منه الداخل للغرفة، ويكون في الجهة التي تقابل باب الحمام خزانة للملابس، إلا أنها تكون خربة لم تصلح، ولا تصلح مع الاستعمال في الغالب، وهذا هو الذي أدركناه عندما زرنا الاتحاد السوفيتي قبل خمس سنوات فقط من انفراط عقده، وذهاب عهده.

وتكون السرر في تلك الفنادق ضيقة جداً، بحيث إذا انقلب الإنسان فيها سقط منها، إلا إذا كان خفيف النوم، أو قليل التقلب، ولعله لهذا السبب جعلوها قليلة الارتفاع عن الأرض حتى لا يؤذي ارتفاعها من قد يسقطون منها عند التقلب، وكذلك يجعلون الغطاء الذي على السرير يتغطى به النائم ضيقاً أيضاً، حتى إنني أعجب لذلك إذا تذكرت أن بلادهم بلاد باردة جداً، وأن أجسادهم أعرض من أجسامنا بسبب ضخامتها التي مرجعها إلى أكل الدسم الذي يساعد على تحمل البرد.

إلا أنهم يكافحون سقوط الغطاء الضيق بأن يجعلوا الغطاء الصوفي السميك الذي هو كالبطانية في وسط غلاف من القماش القطني الأبيض، مفتوح في وسطه مما يلي النائم، إلا أن هذه الانفتاح لا يزيد على نصف متر تقريباً، ولا يشمل إلا وسط ذلك القماش الذي يصح أن يسمى بالرداء، والغرض من ذلك أن يدخل النائم رجليه في الفتحة التي في الرداء، فتكون رجلاه تحت الغطاء الصوفي البطانية، ويضمن بذلك عدم سقوط الغطاء عنه بالليل.

مع العلم بأن جميع مدن الاتحاد السوفيتي فيها أنابيب عامة للتدفئة بالماء الحار والبخار، تولدها الدولة في محطات عامة ضخمة، وتدخلها إلى جميع البيوت مثلما ندخل أنابيب المياه، وأسلاك الكهرباء.

ومن الأشياء التي تتميز بها الفنادق الشيوعية، ولا نقول تمتاز بها إلا بمعنى أنها تتفرد بها عن غيرها، ضيق المناشف والفوط، حتى إن الفوطة الواحدة المعتادة التي تستعمل لتنشيف الوجه واليدين عندنا تعادل في مساحتها ثلاث فوط أو أكثر من فوطهم، أما الفوط الكبيرة التي تستعمل عندنا وفي البلاد الأخرى لتنشيف الجسم بعد الاستحمام، فإنها لا توجد عندهم مطلقاً، وإنما يجعلون بدلاً منها فوطة مستطيلة ضيقة، أكبر من

الفوطة التي يمسحون بها وجوههم وأيديهم بقليل.

وقل مثل ذلك في الوسادة، فجميع الوسائد في هذه الفنادق تكون مربعة قصيرة، ولا توجد وسادة مستطيلة فيها، كما في غيرها من فنادق العالم.

وهذه الوسادة المربعة قصيرة بحيث إذا تقلب النائم عليها كاد رأسه يسقط عنها، ولكن سقوطه لن يكون مهماً لأنه فوق السرير، إذْ هي أقصر منه على ضيقه.

والصابون في هذه الفنادق يكون قطعاً مقطعة بسكين، أو بشيء حاد، وتكون خشنة لأنها من صنع خاص عندهم، فلا يوجد فيها صابون مغلف، ولا ذو رائحة ذكية، فضلاً عن أن يفرقوا بين الصابون المستعمل في الحمام وغيره، وفي بعض الأحيان لا يوجد صابون في حمام الغرف، إلا إذا طلبه النزيل، ولذلك اعتدت على أن أحمل معي صابوناً من حجم صغير للطوارئ.

ويكون في الغرفة ثلاجة في أكثر الأحيان، ولكنها تكون كبيرة وخربة، ولا يغلق بابها بسهولة، أو لا يغلق بإحكام. ومثل ذلك التلفاز، فلا بد أن يكون كبير الحجم، أجش الصوت، أخرس إلا من تلفاز الاتحاد السوفيتي أو الروسي، فلا ترى منه غير المحطات المحلية على قلتها، لأن البلاد واسعة، ولا يصل الإرسال التلفازي العالمي إلا إلى أطرافها، ويمكن مشاهدته بالأطباق اللاقطة أو غيرها، ولكن ذلك غير مسموح به حتى الآن، ومن حسنات هذه الفنادق أنه يكون فيها مكتب خشبي مثل كل الأثاث فيها، وذلك لوجود الخشب بكثرة، ووفرته في بلادهم، وتحته كرسي معتاد.

وأما الكهرباء، فإنها أعجب من العجب، فإنني لم أرَ في أي غرفة من غرف هذه الفنادق كلها غرفة تكون أسلاك الكهرباء فيها كلها خفية في الجدار، لأنها قديمة، وإذا ضرب سلك استعاضوا عنه بسلك خارجي يبدو كالمؤقت.

الحي الذي فيه فندقنا من أورنبورغ. صورة التقطتها من نافذة الفندق في الدور التاسع

والحديث عن الحمامات في هذه الفنادق يحتاج وحده إلى عنوان، فلا يوجد حمام واحد فيها صالح كله ، أو حتى مصلح كله، فلا بد من أن يكون فيه شيء خارب ولم يصلح، إلا صلاحاً مؤقتاً ، أو لم يصلح أصلاً.

وهذا الحديث على طوله عن الفنادق الشيوعية أثاره إلى جانب فضول الكاتب وطبعه في الثرثرة، أننا خرجنا من دار الفتوى في السابعة والنصف مساء، وذهبنا مع الإخوة المرافقين على رأسهم المفتي إلى فندق روسي من تلك الفنادق التي أسميتها الشيوعية، ويقولون: إنه أحسن فندق في المدينة، وربما كانوا يقصدون أنه أكبر فندق في المدينة، فهو كبير واسع، كثير

الطبقات، بحيث نزلنا في الطابق التاسع منه، وكانت غرفتي ذات نافذة غربية كبيرة، فكانت الشمس تدخل الغرفة حرارة لم تكن متوقعة، ولم تكن ستائر النافذة مرنة تنزلق إذا أردت إبعادها أو إسدالها على النافذة، بل كانت تتلكأ في الحركة، وإذا شددت عليها الضغط انفجرت، وانفجارها أن تسقط في يدك أو على صدرك، لأن وضعها في مكانها هو أشبه بالتلصيق غير المحكم.

وقد لقيت عناء من الحر، ففتحت باب الغرفة رغم ما يخشى من مغبة ذلك، مثل دخول سكران عليك، فضلاً عن اللص الذي قد ينتهز فرصة غياب أو غفلة من العجوز التي تخدم الطابق الذي تسكن أنت فيه.

وذلك لكون هذا مثل سائر الفنادق المماثلة، يكون في كل طبقة من طبقاته موظفة مسنة مسؤولة عن الغرف فيه، ولديها مفاتيح الغرف كلها، وهي التي تعطيك مفتاح غرفتك بعد أن تدفع إليها ورقة النزول التي أعطتك الإدارة إياها، حتى إذا أردت فراق غرفتك أعطيت تلك العجوز مفتاح الغرفة، وأخذت منها ورقة السكن.

وكنت بحثت عن شيء مكتوب مثل الأوراق التي تدل على اسم الفندق أو الدعاية للمدينة، أو الإعلان عن الأماكن المهمة، كما يكون في الفنادق الأخرى في البلدان الغربية وغيرها، حتى اسم الفندق لم يكن مكتوباً على أي شيء فيه، لا على المفتاح، ولا غيره، مما اضطرني إلى أن أسأل عن اسمه واحداً بعد الآخر، حتى عرفته، فاسمه مكتوب عليه بالحروف السيريلية التي هي الحروف المستعملة في الكتابة الروسية، وليس كالحروف اللاتينية التي نستطيع قراءتها.

ولم يكن في الفندق ماء ساخن، ونحن بحاجة للاستحمام، فانتظرنا ذلك حتى سخن الماء في الليل.

غروب الشمس في مدينة أورنبورغ

وقد لاحظت غروب الشمس من نافذتي، فالتقطت صورة للجزء الذي تطل عليه من المدينة، ثم التقطت صورة للشمس وهي تهم بالغروب، وذلك في العاشرة والنصف، وقد سبق أن نقلت ما قاله لي المفتي هنا من أنهم يصلون المغرب في العاشرة والنصف، والعشاء في الحادية عشرة، والفجر قبل طلوع الشمس بساعة، أما الظهر والعصر فإنه لا إشكال فيهما، إذْ وقتهما لا يتأثر بتأخر غروب الشمس ولا بتقدمه، والمراد بذلك صلاتهم في هذه الأوقات في هذه الأيام، وإلا فإنها تتغير بعد ذلك تغيراً كاملاً عندما يقصر النهار، ويطول الليل.

يوم الجمعة: ١٦/ ٢/ ١٤١٦هـ ١٤/ ٧/ ١٩٩٥م.

قبل مفارقة أورنبورغ:

حان فراق مدينة (أورنبورغ)، ولكننا لا نحب أن نفارقها قبل أن نلقي إليك بكلمة مختصرة عنها، وقد قدمت ذكراً جماً لأشياء شاهدتها فيها أثناء الحديث عن اليوميات، ولكن ذلك متفرق غير مرتب.

فنقول: اسمها: مدينة النهر الذي يراد به نهر (أورال) الذي يشقها الآن مكوناً فيها الحدود بين قارتي آسيا وأوروبا.

وقد أنشئت في عهد القيصرة الروسية كاترين الثانية.

وهي عاصمة إقليم (أورنبورغ) الذي يؤلف شكل مستطيل من الشرق إلى الغرب، فأغلب السكان من المسلمين، في شرقيه هم من القازاق لمجاورته لجمهورية قازاقستان، وكل المدن فيه، وأغلب القرى فيها مسلمون، إذ يبلغ عدد سكانه فوق مليونين ٢٠ ٪ منهم من المسلمين.

وتبعد مدينة (أرونبورغ) (١٥٠٠) كيلو متر جهة الشرق من موسكو.

ويبلغ عدد سكان مدينة (أرونبورغ) ستمائة ألف نسمة، منهم مائة ألف من المسلمين، أي أنهم يمثلون سدس السكان فيها.

وتوجد فيها الآن خمسة مساجد، أربعة منها تقام فيها الصلاة، والخامس لا يزال أسيراً في أيدي السلطة الحكومية، حيث لا تمانع في إعادته للمسلمين، ولكنهم يقولون: إنه يحتاج إلى ترميم، ولا شك في أن هذه حجة داحضة، لأنه لا يلزم من استعادته أن يرمم فوراً، وإنما يمكنهم أن يفعلوا ما فعله إخوان لهم في مساجد مماثلة، إذ صاروا يجمعون ما يستطيعون جمعه فيما بينهم، ثم يكتبون إلى إخوانهم في البلدان الإسلامية

لمساعدتهم على ذلك، وهم فاعلون إن شاء الله، إذا ما بسط لهم الأمر، وشهد بحاجتهم إلى المساعدة الزائرون لبلادهم، والعارفون بأمرها مثلنا.

وكانت في مدينة (أرونبورغ) قبل الحكم الشيوعي أحد عشر مسجداً، هدمت وعفيت آثارها إلا هذه المساجد الخمسة المذكورة، فقد بقيت حتى الآن، حتى مناراتها لم يهدمها الشيوعيون كما فعلوا بالمساجد في المدن الأخرى. وقال لي أحد الإخوة: إن الشيوعيين لم يهدموا منارات المساجد لكونها قوية من الحجارة، ولا أعتقد هذا صحيحاً لأن قوتها ليست إلى الدرجة التي لا يستطيعون هدمها، وقد هدموا بعض الكنائس مع أبراجها.

بل إن الأمر اللافت للنظر أن الشيوعيين هدموا كنائس كانت في المدينة، وكانت فاخرة البناء، حتى إن بعضها كان من أشهر الكنائس الأوروبية، فهدمها الشيوعيون وأزالوها بالكلية، وبنوا في مكانها أبنية أخرى، ومن ذلك مبنى محافظة إقليم (أورنبورغ) الذي أقيم على مكان كنيسة سابقة.

وربما كان مرجع ذلك إلى أن الشيوعيين المحليين لم يكونوا على الدرجة من التعصب ضد الدين الإسلامي التي عليها مواطنوهم من الشيوعيين الآخرين.

إلاّ أنه يجدر بالذكر أن الشيوعيين صادروا جميع المساجد والأوقاف الإسلامية، واستعملوها لأغراض أخرى غير أغراض العبادة، كما ذكرنا ذلك مفصلاً في اليوميات.

وكانت (أورونبورغ) مركزاً مهماً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية في هذه الأصقاع الشمالية منذ مائة سنة أو نحوها، بل استمر

ذلك حتى جاء الشيوعيون، وقضوا عليه كله.

وكان من بين ما فيها أربع مطابع عربية تطبع الكتب العربية، والكتب التتارية التي تستعمل الحروف العربية، ولا تستعمل غيرها في الكتابة، شأنها في ذلك شأن المسلمين في البلاد الإسلامية الشمالية كلها، مثل بلاد البلغار الذين أسلموا في أول القرن الرابع الهجري، واستعملوا الحروف العربية في الكتابة حتى تغلب عليهم الروس، وأجبروهم على الكتابة الروسية.

وقد رأيت كتباً عديدة مطبوعة بالعربية في هذه المدينة، وفي مكتبتي منها كتاب نفيس هو: « **تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار في وقائع قزان وبلغار، وملوك التتار** » تأليف الشيخ م. م. الرمزي، طبع بالمطبعة الكريمية والحسينية ببلدة (أرونبورغ) على مصاريف ملتزمه، كافة حقوقه محفوظة لمؤلفه وأولاده، طبع في سنة ١٩٠٨م، أي قبل قيام الشيوعية.

كما رأيت كتبا ورسائل عديدة مما طبع بالعربية في هذه المدينة في أماكن أخرى من العالم، ومن ذلك: مدينة إيركوستك في شرق سيبريا.

وقد سألت المعنيين بالأمر هنا عن هذه الأمور عن المطبعة الكريمية ومكانها، وعن الأسرة الكريمية فلم يعرفوا عنها شيئاً، إلا ما عرفوه عن أسرة تسمى (كريموف) يعتقد أنها من هذه الأسرة، وأنها تنزل الآن في المحلة التي فيها مسجد قصر القوافل (كروان سراي مسجد).

وكانت تصدر في (أورونبورغ) عشر صحف ومجلات بالحروف العربية عندما حدثت الثورة الشيوعية في عام ١٩١٧م، فقضت عليها كلها، كما قضت على الثقافة العربية، وحاولت القضاء على الدين الإسلامي في

النفوس، وتمنع ممارسة شعائره وفروضه، فاستطاعت الثاني، ولم تستطع الأول، إذْ ما زال المسلمون متمسكين بالدين الإسلامي بمثابة هوية ومميز تاريخي لهم، حتى الذين لا يؤدون العبادات، ولا يقومون بالواجبات الدينية، يعلنون أنهم لا يزالون مسلمين، وأنهم سوف يظلون كذلك.

ولذلك لم يسجل التاريخ وقائع ارتد فيه المسلمون عن الإسلام في هذه الديار، حتى في أقسى أيام الحكم الشيوعي، فكان من ضعف إيمانه أو أكره على التظاهر بذلك يقول: إنه شيوعي، بما يعني ذلك فرضاً الإلحاد، وإنكار الأديان، ولكنه لا يقول إنه مسيحي أو يهودي على سبيل المثال.

وقد كان في المسلمين في أورنبورغ في أخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين الميلاديين أثرياء بنوا المساجد، وأسسوا المدارس، واستقدموا العلماء الأعلام بالدين الإسلامي واللغة العربية من الأمصار البعيدة إلى مدينة (أورنبورغ) بل بعثوا بعوث الطلاب بنفقاتهم إلى مصر ومكة المكرمة لتحصيل العلوم الإسلامية، وإفادة الناس بعد عودتهم مما تعلموه.

فنبغ منهم من نبغ في العلوم العربية الإسلامية حتى ألفوا فيها المؤلفات، وصارت لهم مدارس عليا بمثابة الجامعات، كالمدرسة الحسينية التي تقدم الكلام عليها.

وقد اشتهر من أولئك الأثرياء المسلمين المتحمسين لنشر الثقافة الإسلامية، الذين أنفقوا الأموال الطائلة لدراستها ونشرها في البلاد: أحمد باي، وابنه عبد المغني باي، ومحمود باي.

وهناك غيرهم من أثرياء المسلمين الذين بلغ إنفاقهم المال على المشروعات أن يقول الناس: إنهم يملكون مناجم للذهب وقعوا فيها على

ذهب كثير أنفقوا منه ما أنفقوا.

وقد سألت أهل المعرفة من أهل البلاد عن ذلك، فذكروا أن بعضهم كان بالفعل يعمل في تعدين الذهب، ومما يجدر ذكره أن الشيوعيين لم يصادروا المساجد في أول الثورة الشيوعية، بل تركوها بأيديهم لسنوات، وذلك إما مجاملة لهم، أو خوفاً من الأثر السيئ الذي يتركه ذلك في نفوسهم، وإنما صادروها كلها في عام ١٩٣٧م، وبعد الحرب العالمية الثانية أعادوا للمسلمين مسجداً واحداً هو المسجد المركزي الذي فيه الإدارة الدينية، أما المساجد الأخرى فقد بدأ المسلمون في استعادتها منذ عام ١٩٩١م، ولا يزالون، ويبلغ عدد المساجد المفتوحة للصلاة في إقليم (أورنبورغ) كله في الوقت الحاضر (٦١) مسجداً.

وماذا عن الوقت الحاضر:

يتكلم المسلمون الغيورون على دينهم عن الحالة الحاضرة بحسرة وألم، فيقولون: كنا في زمن الحكم الشيوعي يستطيع الواحد منا أن يقتصد من دخله شيئاً قليلاً من المال، ينفقه على المسجد، إذْ لا يوجد وجه للإنفاق الديني غير ذلك، بل حتى الإنفاق الدنيوي مجاله محدود، لأن كل الأمور الاقتصادية للبلاد هي في يد الدولة وحدها.

والآن بعد أن سقطت الشيوعية، وصرنا أحراراً في ممارسة شعائر ديننا، وفي إنفاق أموالنا فيما نشاء، لم نجد بين أيدينا أي شيء من المال ننفقه، لأن الحالة الاقتصادية قد تدهورت نتيجة للمرحلة الانتقالية التي تمر بها البلاد، وهي تنتقل من الاقتصاد الشيوعي إلى الاقتصاد الحر، مثلنا في ذلك مثل سائر فئات الشعب، فليس الفقر، أو لنقل قلة النقود وقفاً علينا نحن المسلمين دون غيرنا.

ولكن النصارى تأتي إليهم جمعيات وبعثات تحمل النقود من خارج البلاد، ولو كانوا يقتصرون على عمارة كنائسهم ومحلات عبادتهم لكان هذا هيناً، فنحن نرى أن لهم الحق في ذلك، مثلما أننا لنا الحق، ولكنهم صاروا يسيطرون على أوقات من البث التلفازي، ويوزعون الكتب والنشرات التي تشكك شباب المسلمين في دينهم عن طريق ترويج الشبهات، وعن طريق تشجيع الشهوات والنزوات.

يضاف إلى ذلك التأثير الثقافي الذي وفد إلى البلاد مزوداً بالأشرطة السينمائية، والكتب المادية والإلحادية، ونحن لا نملك مثل هذه الوسائل، وإنما يعظ أئمة المساجد في المساجد التي لا يحضر الصلاة فيها إلا القليل من المسلمين، بسبب التربية الشيوعية.

قالوا: ولا بد من نهضة دينية تستعمل مثل تلك الوسائل أو بعضها، فنحن لا نطمح إلى الاقتصار على إصلاح حال المسلمين وحده، وإن كان ذلك مطلوباً بالدرجة الأولى، وإنما نطمع في أن ندخل بعض الحائرين الذين لا دين لهم إلى الإسلام، وقد شهدنا حالات فردية قليلة دخل بعض الذين كان آباؤهم من المسيحيين في الإسلام، عن طريق ما سمعوه من مخالطة إخوانهم المسلمين بعد الحرية الدينية.

مغادرة أورونبورغ:

في الساعة السابعة والنصف صباحاً كنا نغادر فندقنا في مدينة (أورنبورغ) إلى المطار، للسفر منها إلى إقليم (سمارا)، يصحبنا المفتي ورئيس الجمعية الإسلامية الأخ عبد الغفور، وسكرتير الجمعية وغيرهم.

وعند الوصول إلى المطار قال الموظفون للإخوة المودعين: على كل راكب أن يحمل أمتعته وحقائبه معه، حتى يضعها في الطائرة، فنحن لا

نتسلم منكم شيئاً، وقد تحمل ثقل ذلك المفتي والإخوة المودعون الذين حملوا أمتعتنا وحقائبنا حتى وضعوها في الطائرة .

وفعل مثل ذلك جميع المسافرين، إلا أن الذي هون الأمر على سائر الركاب أنهم لا يحملون أمتعة ثقيلة، وذلك لقلة دخولهم المالية، ولمعرفتهم بمشقة حمل الأمتعة إلى الطائرة وإنزالها منها.

وقد ودعنا الأخ المفتي الشيخ عبد الباري خير الله وإخوانه عند سلم الطائرة، وغادرنا (أرونبورغ) في الساعة التاسعة والنصف وخمس دقائق متجهين إلى مدينة (سمارا) عاصمة إقليم سمارا، وللحديث عن ذلك الإقليم كتاب آخر غير هذا الكتاب من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا. والله المستعان.

فهرس المحتويات

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف ٣
مؤلفاته المطـبوعة في غير فن الرحلات.... ١٢
إلى جنوب جمهورية روسيا.........١٧
المشكلة الجديدة: ١٩
إقليم أورنبورغ...............................٢٣
الموقع والمساحة: ٢٥
المناخ :..٢٦
عدد السكان:..................................٢٧
اللغة الرسمية للمنـــــطقة واللهجات
المحلية: ٢٨
التوزيع الديني للســـــكان والمذاهب
المتبعة:...٢٩
١-نبذة تاريخية عن المنطقة ٢٩
٢-تاريخ دخول الإسلام إلى المنطقة: ٣٠
٣-المناطق المهمة لنشر الدعوة:...... ٣١
المعالم الاقتصــــادية والاستثمارية
بالإقليم:.......................................٣٣
التعليم:...٣٦
نشاط المنظمات غير الإسلامية.......٣٦
المدن والمؤســــسات التي زارها
وفد الرابطة في إقليم أورنبورغ :.....٣٧
من قازان إلى أورنبورغ: ٤٥
المضيفة النائمة: ٤٨
في مطار أورنبورغ: ٥١
مدينة أورنبورغ: ٥٣
الإدارة الدينية: ٥٦
فندق المؤسسة: ٦٢
وقفة على ضفة آسيا:.......................٦٥
الشاعر بجانب الفضائي:..................٦٦
تاريخ المدينة:...............................٦٧
المدرسة الحسينية: ٧١
داخل المسجد المركزي: ٧٥
أين طبع أورونبورغ ؟:....................٧٨
مسجد قصر القوافل:........................٧٩
تاريخ المسجد: ٨٠
المنارة الشامخة:.............................٨٢
المدرسة الحسينية: ٨٦
المدينة الجامعية:.............................٩٠
مدينة بنت فتح الدين: ٩١
شاي الأختين: ٩٥
المصلى المؤقت: ٩٦
جامع السليمانية: ٩٨
حديث محزن: ١٠١
المدرسة الإسلامية: ١٠٣
إلى نصب القارتين:........................١٠٦
أول مسجد في أورونبورغ: ١٠٩
شارع كريستوفا: ١١١
مسجد أسير: ١١٢

عودة للجامع المركزي:............... ١١٤
إلى قرية الغربان:.................. ١١٦
مأدبة القرية المسلمة:................ ١١٩
السفر إلى مدينة أورسك:............ ١٢٣
مطار أورسك:..................... ١٢٧
نهر أورك:....................... ١٢٩
صباح الأورال:.................... ١٣٦
في جامع أورسك:................. ١٣٧
تاريخ المسجد:.................... ١٤٠
الحديث الصحفي:.................. ١٤٤
المدرسة الحبيسة:.................. ١٤٧
المسلمون في مدينة أورسك:......... ١٥٠
إلى مدينة نوفا ترويسك:............. ١٥٤
بين آسيا وأوروبا:.................. ١٥٥
ريف (أورسك):.................... ١٥٧
مصانع الحديد:.................... ١٥٨
هذه نوفا ترويسك:.................. ١٦٠
مسجد نوفا ترويسك:................. ١٦٢
جنود مجهولون:.................... ١٦٨
المسلمون في نوفا ترويسك:.......... ١٦٩
مغادرة نوفا ترويسك:............... ١٧٠
قرية يوجني:...................... ١٧٢
وقرية كيدر باسوفا:................ ١٧٢
قرية إيلينكا:...................... ١٧٣
المسجد زريبة حيوان:.............. ١٧٥
وقفة عند مطعم نادر:.............. ١٨١
المسجد الذي حولوه إلى طاحونة:... ١٨٢
وقرية فيها مسجد:.................. ١٨٦
بيوت المنتجعات:................... ١٨٩
هذه أورنبورغ:.................... ١٩١
توزيع المساعدات المالية:........... ١٩٢
الفندق الشيوعي:.................. ١٩٥
قبل مفارقة أورنبورغ:............... ٢٠١
وماذا عن الوقت الحاضر:........... ٢٠٥
مغادرة أورونبورغ:................. ٢٠٦
فهرس المحتويات.................. ٢٠٩